

نَفَحَاتُ الْقُرْآنِ

الجزء الثالث
طُرُقُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مَنَاحَةُ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِ الشَّيْخِ نَاصِرِ مَهَارِمِ الشَّيرَازِيِّ

بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْفُضَلَاءِ

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

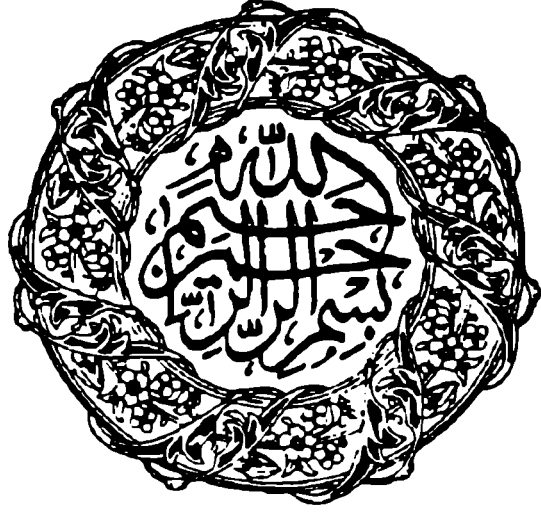
الجزء الثالث
طرق معرفة الله

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ٣
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٣٨٢ صفحة
- المطبعة الحيدري
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة



الاهداء:

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني .
محمد جعفر الامامي .
عبد الرسول الحسيني .
محمد الاسدي .
حسين الطوسي .
سيد شمس الدين الروحاني .
محمد محمدي الاشتهاري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الطرق الى الله...

كما ورد في بداية هذا الكتاب أن هناك طريقاً مشرعاً في باطن كل قلب نحو الله عز وجل ، وتنطلق في روضة روح كل انسان انشودة تعبر عنه ، ولهذا السبب بالضبط ، ونظراً لكثرة النفوس الانسانية ، فان الطرق الى الله لاحصر لها ، ولكل انسان نوع من الادراك والشعور المختص به حول الله تعالى .

ولكن مع كل هذه الاختلافات فان وجهة الجميع واحدة ، ويتحرك العالم بأسره نحوه . ويظهر في اعماق روح كل انسان برعم من معرفة ذاته وصفاته ، وتتبسم في قلب كل انسان زهرة من ازهار معرفته .

ويرتفع دائماً من هذا «الوادي الايمن» نداء «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» ويدعو الفطرة السوية الكامنة في كل النفوس الانسانية اليه ، وبصوت «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى» يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد في هذا الوادي المقدس .

ويوصي جميع بني آدم للعمل بمضمون وصيته لمريم «وَهَئِذَا يَكُونُ جُذْعُ النَّخْلَةِ» فيهزون الاغصان المثمرة لشجرة التوحيد لتساقط عليهم ثمرات الايمان والمعرفة الطيبة .

وان لا يخشون ابداً من نيران شرك النمروديين ، وان يكونوا ابراهيميين

فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء . ليطفثوا نيران الشرك المحرقة ويحيلونها الى روضة للتوحيد .

وان يركبوا في سفينة المعرفة المنجية كما ركبها نوح ، ليغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره - حتى الكنعانيون منهم - .

وان يطرخوا على رأس «السامري» دون وجل ، ويحرقوا عجله الذهبي المنمق الذي يتسبب في جذب قلوب المتعلقين بالدنيا ومحبي الثروة واكتناز الذهب في نار غضبهم المقدسة . وينثروا رماده في بحر الفناء!

أجل فان سالكي هذا الطريق يكررون ما قام به الانبياء المرسلون في سيرهم الظاهري في هذا العالم من خلال سيرهم الباطني للوصول الى الهدف والمراد وهو «معرفة الله» .

وفي نهاية المطاف يلبّون النداء الروحي لنبي الاسلام (ﷺ) «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ، فيقتربون من أعلى مقامات الفلاح والفوز من خلال ترديدهم لنغمة التوحيد الروحية السامية بجميع اجزاء وجودهم «حتى الوريد والشريان» .

فيخرجون بهذا السير والسلوك الالهي من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم الى «دار الحقيقة» ومقام القرب الالهي .



ولكن النقطة المهمة تكمن في أن هذا الطريق يمتاز بكثرة المنحدرات والمرتفعات والمنعطفات التي تكمن في مسالكها شياطين الجن والانس . ويبدلون الجهد الجهيد لحرف سالكي هذا الطريق «بزخرف القول» ، لان امامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزة الله وجلاله منذ البدء لاغواء بني آدم ، ولعلمه بأنه

«رجيم» ومطرود من حضرته ، فانه يدعوا الآخرين للاصطباغ بصبغته .
 «الوسواس الخناس» صفة للشياطين الذين يضعون النقاب على وجوههم ،
 كالغول الاسطوري عند العرب ، يسرون عدة ايام في جادة الصواب ، وبعد أن
 يسحبون مجموعة من الناس خلفهم ، ينحرفون عن الصراط المستقيم ،
 ويلقون بهم في أودية «الضالين» و«المغضوب عليهم» المرعبة .

اذن ماذا ينبغي القيام به ؟

واين طريق النجاة ؟

ياترى ، هل يمكن طي هذا الطريق بأرجل العقل الخشبية فقط ، على
 الرغم من أن هذه الارجل الخشبية تُعدّ وسيلة من الوسائل التي وهبها الله
 تعالى ونوراً من الانوار الالهية ؟!

أم يجب ركوب أجنحة الوحي والصعود الى سماء المعرفة ، والذهاب
 لابعد من ضوء الشمع والمصباح ، فنمدّ ايدينا نحو الشمس المتلألأة ،
 ونستمدّ العون منه للوصول اليه ، لنحصل على الدليل من ذاته على ذاته ؟
 حيث ان مضمون حديث رسول الله (ﷺ) «مَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ
 أَضَلَّهُ اللَّهُ» ينص على ذلك ، وهل يوجد غيره ، يعرفه حق معرفته ليتمكن من
 تعريفه للآخرين ؟

ان هذا الكتاب وهو المجلد الثالث من التفسير الموضوعي لـ «نفحات
 القرآن» هو عبارة عن جهد متواضع في هذا المجال لمعرفة الله في مختلف
 الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد ، وتأييد حكم العقل بلسان النقل ،
 وترسيخ اسس البرهان بآيات الوحي .

محرم الحرام ١٤١٠ قم المقدسة - الحوزة العلمية

مرداد ١٣٦٨ ناصر. مكارم الشيرازي

طرق معرفة الله

تمهيد :

بالرغم من أن الطرق إلى الله ليست محدودة النطاق - وكما يقول بعض العلماء ان السبل إلى الله هي بعدد الخلائق (الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق)^(١) - إلا أنه توجد خمس طرق عقلية رئيسية وطريق فطري واحد لاثبات ذات الله المقدسة ، والطرق العقلية هذه عبارة عن :

١- برهان النظم .

٢- برهان الحركة .

٣- برهان الوجوب والامكان (الفقر والغنى) .

٤- طريق العلة والمعلول .

٥- برهان الصديقين .

والطريق السادس هو طريق (الفطرة) والسلوك (الباطن) والبحث في اعماق الروح الانسانية ، ومن الملاحظ ان القرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع، غير أن أشمل البراهين التي يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذي يثبت وجود ذلك المبدئ الازلي وما يملكه من علم وقدرة ، وذلك بعرض عجائب الخلق والآثار البديعة والانظمة العجيبة في عالم الوجود . ولذا خُصص اكثر الجزء الثاني من (نفحات القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيان موارده - وشواهدة في القرآن الكريم .

١ - نقله البعض بعبارة (عدد انفاس الخلائق) ويعني ان كل نفس يتنفسه الانسان طريق إلى الله . ولكن هذه الجملة لم نجدها بصورة حديث في مصادرها بل وردت في كلمات العلماء .

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لاثبات وجود الله ، ثم نتحدث عن قضية الفطرة في ظل التوجيهات القرآنية .

هذه صورة اجمالية عن ابحاث هذا الجزء .

نؤكد مرة اخرى وتكرر بان هذه الابحاث لا تُقدم كأبحاث فلسفية او كلامية ، بل كأبحاث في التفسير الموضوعي كما تقتضيه طبيعة الكتاب ، أي أننا نسير في ظلال الآيات القرآنية ونستضيء بتوجيهات هذا النور الألهي ، ولو كانت ثمة قضايا أخر فإننا سوف نتحدث عنها تحت عنوان (ايضاحات) ، وابحاثنا - في الحقيقة - لا تستوجب غير ذلك ، لأنها في حالة العكس سوف تفقد اصالتها كأبحاث تفسيرية .



(١)

برهان التغيّر والحركة

تمهيد :

إنَّ عالمنا الذي نعيش فيه في تغيّر دائم ، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة ، وكل شيء يعيش حالة من التغير .

ويبدو أن نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بالتغير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغير والتبدّل على صعيد نفسه أو على صعيد عالم المادة ، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة عن هذا التغير ليلاً ونهاراً ، بل أنّ ظاهرتي (الليل والنهار) هما من أوضح النماذج عن التغير والتبدل في العالم .

هذه التغيرات والحركات التي تحكم العالم تدل بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه هذه التغيرات والحركات كلها ، وكأن الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة .

والتغير والحركة في الموجودات هما في الأساس شاهدان ساطعان على حدوثها ، كما أن حدوثها دليل على وجود خالقها .

هذا الاستدلال - الذي سيُردُّ شرحُهُ في المباحث مستقبلاً - ورد في الآيات القرآنية بلطافة خاصة ، وبهذه الإشارة نرجع إلى القرآن الكريم كي نقرأ هذه الآيات :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي اِبْرَاهِيْمَ مَلَكُوْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُوْقِنِيْنَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَا كَوْكَبًا قَالْ هٰذَا رَبِّيْ فَلَمَّا أَفَلَ قَالْ لَا اُحِبُّ الْاَفْلٰكِيْنَ * فَلَمَّا رَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالْ هٰذَا رَبِّيْ فَلَمَّا أَفَلَ قَالْ لَنْ لَّمْ يَهْدِنِيْ رَبِّيْ لِاُكُوْنَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّٰلِّيْنَ * فَلَمَّا رَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالْ هٰذَا رَبِّيْ هٰذَا اَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالْ يٰقَوْمِ اِنِّيْ بَرِيْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ * اِنِّيْ

وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾ .

شرح المفردات :

١ - (أفل) و (أفلت) مشتقة من مادة (أفول) وتعني الاختفاء كما يقول جمع من اللغويين ، ولكن (الراغب) في (المفردات) اكثر دقة حيث يقول : الافول يعني اختفاء الاجسام النيرة كالشمس والقمر ، والصحيح هو ما يذهب اليه الراغب ، لأن هذا المعنى هو المتبادر من اطلاق هذا اللفظ ، كما انه ذو معنى كنائي في بعض المجالات ، فمثلاً يعبر عن موت العالم بـ (الافول) ، وفي ذلك - في الحقيقة - تشبيه بالشمس او النجم ، والتعبير بالافول والغروب هو بهذا اللحاظ .

٢ - كلمة (بازغ) و (بازغة) مشتقة من المصدر (بزوغ) بمعنى الشروق وانتشار النور ، كما يذهب اليه الراغب في المفردات فيقول هو في الاصل يعني اخراج دم الحيوان بُغية العلاج ثم استعمل بمعنى الطلوع .
أمّا ابن منظور فانه يقول في (لسان العرب) : الاصل فيه بمعنى الفتق ويستعمل في موارد فتق العروق في الانسان او الحيوان من اجل العلاج وبما ان طلوع الفجر وأمثاله يشق ظلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى (فتأمل جيداً) .

٣ - و (كوكب) مشتق من (ككب) او (كوب) وقد فسره الكثير بمعنى (النجم) ، ولكن الراغب في المفردات فسره بمعنى (النجم عند الطلوع) ، وعندما يفسره البعض بمعنى كوكب (الزهرة) فهو من قبيل المصداق الواضح له ، لأن كوكب الزهرة هو اشد النجوم تألؤاً ولمعاناً .

كما يطلق هذا اللفظ احياناً على الوسيم والجميل ، او الجزء المهم من كل شيء ، وعلى كبير القوم ايضاً ، ولكنها معانٍ مجازية في الظاهر .
أما (قمر) وإن كان معروفاً ، ولكن توجد هنا نقطة جديدة بالألتفات وهي ان الكثير من اللغويين صرحوا بأن لفظ (القمر) يطلق في فترة تمتد من الليلة الثالثة وحتى الليلتين الاخيرتين من الشهر ، وعليه لا يطلق لفظ القمر في الليلتين الأوليين ولا في الليلتين الاخيرتين بل يطلق لفظ (الهلال) ، لأن اللغويين يعتقدون بأن (القمر) و (القمر) من اصل واحد ويعني الغلبة ، وبما إن نور القمر في الليلة الثالثة يتغلب على أنوار النجوم المجاورة ، لذا اطلق عليه هذا اللفظ^(١) .

(شمس) هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من الجدير أن نذكر هذه الملاحظة وهي ان لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه ايضاً .

وبما ان الشمس غير ثابتة في السماء وهي في حركة دائبة (بالنسبة لنا سكان الارض) لذا يطلق هذا الاصطلاح على الاشخاص الفوضيون والحيوانات الجموحة فتُعرف بـ (الشَّموس) .

جمع الآيات وتفسيرها :

ابراهيم (عليه السلام) يواجه عبدة الاصنام بمنطق قوي

تحدث الآية الاولى عن اراء الله سبحانه (ملكوت) السموات والارض الى ابراهيم (عليه السلام) كي ينبعث اليقين في روحه بمشاهدتها ، وتتجدد الحياة في ايمانه الفطري حيث تقول ﴿ وكذلك نُري ابراهيمَ ملكوتَ السمواتِ

والارض وليكون من المؤمنين ﴿^(١)﴾ .

المقصود من (اراءة ملكوت السموات والارض) هو مشاهدة حكومة الله ومالكه لعالم الوجود بملاحظة الموجودات المتغيرة في هذا العالم [لان (ملكوت) لفظ مشتق من (ملك) بمعنى الحكومة والمالكية ، وزيادة الواو والتاء للتأكيد] هذه الحاكمة المطلقة والمالكية المسلمة لله على العالم جاءت بالتفصيل في الآيات اللاحقة ، وهذه الآيات - في الحقيقة - جاءت على صورة البيان (الاجمالي) و (التفصيلي) وهو من الاساليب القرآنية المعروفة في بيان القضايا المهمة ، ففي البداية تذكر القضية بشكل مغلق كي يستعد السامع ثم تشرحها [التعبير بفاء التفريع في (فلما) اشارة واضحة الى هذا الامر] . على كل حال فان القرآن شرع بتبيان هذا الاجمال في الآيات اللاحقة ، فيبدأ أولاً بالنجوم ويبين استدلال ابراهيم (عليه السلام) في ابطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ .

التعبير بـ (رأى كوكباً) مع ان نجوماً كثيرة تظهر في الليل - فيه اشارة الى نجم كبير ولامع الفت نظره اليه ، وبما ان كوكب (الزهرة) يظهر اول الليل و (كوكب) يعني (النجم عند طلوعه) يتأيد بذلك التفسير الذي يميل اليه اغلب المفسرين وهو ان النجم كان الزهرة او المشتري اللذين كانا يعتبران في العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركين ، وخاصة ما ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) في احدي الروايات بأن هذا النجم هو كوكب الزهرة .

على كل حال فان هذا النجم لم يدم طويلاً حتى أفل ، فقال ابراهيم ﴿ ... لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ .

مرة اخرى التفت ابراهيم الى طلوع (القمر) من وراء الافق فأضاء

١ - يقول بعض المفسرين بان في تشبيه الآية اشارة الى اننا كما اريناك - يا نبي الاسلام - ملكوت السموات والارض فانا قد اريناها ابراهيم ايضاً (وعليه ففي الآية جملة مقدرة) .

السماء والارض بنوره الأخاذ والجميل فقال ابراهيم ﴿هَذَا رَبِّي﴾ .
ولكن لم يدم طويلاً حتى تعرض القمر الى مصير النجم واختفى وراء
الافق وترك السماء في ظلام مرة اخرى ، (عندئذ قال ابراهيم (عليه السلام) الذي كان
يسعى للوصول الى وحدة المعبود والرب الحقيقي ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ
مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ .

وبهذه الطريقة أوضح أن سعي الانسان لا يكفي للوصول الى الحق ، بل
يجب ان يشملهُ الأمداد الالهية كي لا يكون من الضالين ، ومن المؤكد ان هذا
الأمداد يشمل الذين يجهدون انفسهم في ابتغاء الحق ، والله سبحانه .
واخيراً انتهى الليل ، واخذ الظلام يلم ستائره وفرّ من صفحة السماء ،
وبزغت الشمس فجأة بوجهها النير المتلألئ من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية
على الجبال والصحارى . ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ ^(١) .
ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس في جوف الليل المظلم واختفاء
صورتها خلف حجاب الغروب ، نادى ابراهيم (عليه السلام) : ﴿يَا قَوْمِ أَنِّي بِرِئَاءٍ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ﴾ .

لقد أدرك من أفول هذه الموجودات وغروبها انها ليست سوى
مخلوقات ، خاضعة لقوانين الخلق والتغيرات بما فيها الافول والغروب ، ومن
ذلك فهم ان وراء هذا المشهد قدرة خفية ثابتة لا سبيل للافول والغروب
والتغير الى (ذاته المقدسة) ابداً .



واضاف : اني اتوجه الى مَنْ خلق السموات والارض ، ولا أذعن للشرك

١ - (الشمس) وان كانت مؤنثاً مجازياً ويجب ان يشار اليها بـ (هذه) ولكن نعلم ان قضية المذكر والمؤنث
سهلة وهنا يمكن ان يكون (هذا) اشارة الى (الموجود) أو (المشاهد) .

ابداً، اني موحد كامل التوحيد وعابد وعبد مخلص ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

هل وقعت هذه الاحداث الثلاثة في ليلة واحدة أم في ليلتين ؟ ، قال بعض المفسرين - نظراً لعجزهم عن تصور وقوعها في ليلة واحدة - انها وقعت في ليلتين ، في حين يدل ظاهر الآيات انها تعاقبت في ليلة واحدة ونهار واحد وهذا ممكن تماماً ، لان كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح في اول الليل ثم يأفل سريعاً ، ثم يظهر القمر بدرأً من افق الشرق [والتعبير بـ (بازغ) يدل على ان القمر كان بدرأً أو قريباً منه] وعندما يختفي القمر في افق الغروب لا تلبث الشمس حتى تشرق ، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت في ليلة واحدة ونهار واحد .

وليس هذا مهماً كثيراً ، فالمهم هو ان نعرف بأن شخصاً في تلك المكانة العلمية والعرفانية وهو ابراهيم (عليه السلام) وبملاحظة ما للانبياء من مقام العصمة (حتى في فترة ما قبل البعثة) كيف يمكن ان يتحدث بكلام مقرون بالشرك في ظاهراً ؟

يمكن الاجابة عن هذا السؤال بطريقتين :

الاول : بقرينة ذيل الآيات حيث يقول ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ يفهم انه كان في حالة التحدث والكلام والجدال مع المشركين ونعلم أن مدينة بابل كانت تضم عبدة النجوم والقمر والشمس .

إنَّ المعلم الذكي والمتحدث الماهر عندما يواجه المعارض اللجوج المعاند فلا يقابله بمعارضة عقيدته فوراً بل يماشيه فترة، أي يتحرك مع الموجة قليلاً ثم يركبها ، وبهذا النحو يكون ابراهيم (عليه السلام) في بداية الامر معهم ظاهراً لكي يريهم ضعف عقيدتهم ومنطقهم عند افول هذه الاجرام السماوية . وهذا الاسلوب في النقاش مؤثر ونافذ ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما

لابراهيم (عليه السلام) من مقام في التوحيد والمعرفة .

في رواية عن الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في جوابه للمأمون الذي كان يعتقد بتعارض هذه الآيات مع عصمة الانبياء انه قال : (... إن ابراهيم (عليه السلام) وقع الى ثلاثة أصناف : صنف يعبد الزهرة ، وصنف يعبد القمر ، وصنف يعبد الشمس ... وكان قوله هذا على الانكار والاستخبار ...)^(١) .

والتفسير الآخر هو ان ابراهيم (عليه السلام) القى هذا الكلام بشكل فرضي ، والمحققون يواجهون ذلك في الغالب عند التحقيق .

للايضاح نقول : يتوصل الانسان تارة الى قضية ما عن طريق الاستدلال الوجداني والشواهد الفطرية ولكنه يريد ان يجعلها في اطار البرهان العقلي ، فيستعين بفرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كل فرضية حتى يصل الى ما يريد .

فمثلاً: يتوصل المحقق الى اصالة الروح بوجدانه ويرغب في اقامة البرهان على ذلك فيفترض الروح مادية أو أنّ المادية من خواصها ثم يدرس اعراض المادة وخواصها ومستلزماتها فيصل اخيراً الى أن المادية (أو اعراض المادة) لا تتوافق مع الظواهر الروحية فينفى الواحدة تلو الاخرى حتى يبلغ تجرد الروح .

وابراهيم (عليه السلام) ايضاً ولكي يسلك طريق التوحيد المنطقي والذي توصل اليه بوضوح في اعماق روحه يفترض فرضيات مختلفة ويقول (هذا ربي) و (هذا ربي) ثم يصل الى بطلان هذه الاحتمالات بافولها وغروبها حتى يقول اخيراً ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ * ويكمل

١ - عيون اخبار الرضا (عليه السلام) باختصار (بنقل من تفسير الميزان ٧ / ٢١٤) .

• - وردت احتمالات اخرى في تفسير الآيات اعلاه منها الاستفهام الاستنكاري والاستفهام بقصد الاستهزاء

توحيد المستدل .

ونلاحظ في بعض الروايات اشارات خفيفة الى هذا المضمون ، كما نقرأ عن الامام الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية في حديث طويل ... وفي آخره يقول الراوي : قلت له : أفني ضلال كانوا قبل النبي أم على هدى ؟

قال (عليه السلام) : لم يكونوا على هدى بل كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله ، ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم الله أما تسمع بقول ابراهيم (عليه السلام) : « لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين » اي ناسياً للميثاق^(١) .

ولكن القرائن الموجودة في الآيات والروايات التي وردت عن الامام الرضا (عليه السلام) في هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الاول .



علاقة الافول مع بالحدوث

لقد استدل ابراهيم (عليه السلام) بافول الكواكب والشمس وغروبها على نفي الوهيتها ، وقال بأن هذه الموجودات لا يمكنها ان تكون آلهة للعالم ، والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة ؟

توجد هنا آراء مختلفة :

١ - (الافول) علامة التغيير ، بل هو لون من التغيير ، والتغيير دليل على

→ وامثاله ، وخاصة في تفسير التبيان وتفسير الفخر الرازي حيث اوردا احتمالات عديدة ، ولكن لا ينسجم اي منها مع لحن الآية .

١ - نور الثقلين : ١ / ٧٣٦ ، الحديث ١٤٨ .

نقص الموجود ، لأن الموجود الكامل من كل جهاته لا تُتصور فيه الحركة ولا التغير لانه لا يفقد شيئاً ولا يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق ، وعلى ذلك فإن الموجودات المتغيرة والمتحركة تكون ناقصة حتماً فهي اما تفقد كمالاً ، أو أنها تبحث عن كمال جديد ، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود .

٢ - الموجود المقرون بـ (الافول) معرض للحوادث ، وكل ما كان معرضاً للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزلياً وواجب الوجود لاستلزامه الجمع بين (الحوادث) و (الازلية) وبين هذين حالة تضاد (تأمل جيداً) .

٣ - كل حركة تحتاج الى محرك من الخارج ، فان كان ذلك المحرك متحركاً فعلياً أن نبحت عن محرك آخر حتى نصل الى وجود ليس فيه حركة مطلقاً .

٤ - الحركة - وخاصة الحركة نحو الافول - دليل على ان عالم المادة صائر الى الفناء [وهو اصل الكهولة و (الأنثروبى) الذي سنشير اليه] وكل ما كان مصيره الفناء لا يكون أبدياً حتماً ، ومثل هذا الموجود لا يكون أزلياً قطعاً ، وبذلك لا يمكن ان يكون واجب الوجود .

ان كل مفردة من المفردات التي ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على استدلال النبي ابراهيم (عليه السلام) بها وملاحظته ، ويمكن ان يكون في كلام ابراهيم اشارة لطيفة اليها جميعاً .

ينقل (الفخر الرازي) عن بعض المحققين : ان استدلال ابراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الخاصة والمتوسطين والعوام .

اما الخاصة فانهم يفهمون حقيقة (الامكان) من (الافول) وكل موجود ممكن هو بحاجة الى الخالق ، وهذه السلسلة متصلة حتى تنتهي بالطاهر المنزه من الامكان ولا سبيل الى ذاته ، كما نقرأ في موضع آخر ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ

الْمُنْتَهَى»^(١)، واما المتوسطون فانهم يفهمون من الافول مطلق الحركة وان كل متحرك حادث وكل حادث محتاج الى وجود القديم الازلي، واما العوام فانهم يفهمون الغروب من الافول ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تمحى وتضمحل عند الغروب وتزول سلطتها وحكومتها، ومثل هذه الاشياء لا تصلح للالوهية، اذن جملة «لَا أَحَبُّ الْآفِلِينَ» كلام يستفيد منه (المقربون) و(اصحاب اليمين) و(اصحاب الشمال) وهذا اكمل وأوضح برهان^(٢).

من هنا يتضح لماذا لم يستند ابراهيم (عليه السلام) الى طلوع هذه الكواكب مع ان الطلوع والغروب كلاهما مصداقان للحركة؟ وذلك لان ظاهرة الزوال والفناء وانقطاع الفيض والبركة يشاهد في الغروب تماماً في حين لا يشاهد ذلك في الطلوع.

وعليه فإن الفصاحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الاعتماد على (الغروب) لكي تتوضح القضية اكثر، وتكون مقبولة تماماً لدى جميع الطبقات. وهذه النقطة جديرة بالملاحظة ايضاً وهي أن الحركة - كما سيأتي - لها انواع واوضحها هي (الحركة في المكان) وقد استند اليها في الآية (الحركة المكانية هنا مقترنة بالحركة الكيفية، لان كيفية النور في هذه الكواكب تتغير مع الحركة وتكون ضعيفة النور عند الغروب حتى تختفي عن الانظار).



يعتقد بعض الفلاسفة ان الآية ٨٨ من سورة النمل تتضمن اشارة الى برهان الحركة حيث يقول تعالى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا

١ - سورة النجم: الآية ٤٢.

٢ - تفسير الفخر الرازي: ج ١٣، ص ٥٢.

السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠٥﴾ .

فيقول اولئك بأن هذا التعبير ناظر الى (الحركة الجوهرية) وهي الحركة التي تكون في ذات الاشياء وباطنها ، الحركة التي تدل على أن عالم المادة باجمعه حادث ويحتاج الى خالق [سيأتي شرح هذا الكلام في باب الايضاحات باذن الله] ولكن بناء على أن الآية ناظرة الى حقيقة (الحركة الجوهرية) فانها لا تشير الى الاستدلال التوحيدي ولا الى الاستفادة من ظاهرة الحركة لاثبات وجود الله (تأمل جيداً) .

ويعتقد أغلب المفسرين بأن هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة (أشراط الساعة هي الاحداث المروعة التي تحدث عند قيام القيامة وخاصة تحرك الجبال وتلاشيها ثم صيرورتها غباراً كما جاء في آيات عديدة من القرآن الكريم) ^(١) .

ولكن كما قلنا في (التفسير الامثل) : إن هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية ، لأن تلاشي الجبال قبيل قيام الساعة مروّع الى درجة يجعل الانسان يعيش وحشة عظيمة في حين تقول الآية بأنك لا تعلم بحركة الجبال .

ولهذا نعتقد ان الآية تشير الى حركة الجبال المواكبة لحركة الارض في الدنيا وتشبيها بحركة السحاب ، وجملة (ترى) فيها اشارة الى الوضع الموجود والتعبير بـ ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ وذيل الآية ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ كلاهما دليلان على ان الآية ترتبط بحركة الجبال في هذه الدنيا ^(٢) .

ويعتقد البعض الآخر بان الآية ٢٩ من سورة الرحمن ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ اشارة الى مسألة الحركة الجوهرية التي يمكن عن طريقها الوصول الى وجود الله (عن طريق برهان الحركة) .

١ - للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة (التفسير الامثل) ج ١٣ ، ذيل الآية ١٠٥ / سورة طه .

٢ - لاحظ التفاصيل في ج ١٥ ، ص ٥٦٣ ذيل الآية ٨٨ / سورة النمل .

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة ايضاً، بل ان ظاهرها هو أن الله يخلق كل يوم أمراً جديداً، خلقه دائم ومستمر، وهو يبتكر في كل زمان أمراً جديداً، ويقدر كل يوم نعمة جديدة، وعمله هو الاستجابة لقضاء حوائج السائلين .

كما أن الظاهر من تعبير الآية وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها هو ما ذكر ايضاً (تحدثنا عن هذا الموضوع مفصلاً في التفسير الامثل)^(١).

ويُستنتج من مجموع ما تقدم أن أبرز الآيات الدالة على برهان الحركة هي آيات ابراهيم (عليه السلام) التي استدل بها على نفي ألوهية النجوم وذلك بأقولها وغروبها واحتياجها الى الخالق كذلك .



ايضاحات

١ - برهان الحركة ومقدماته

الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية استخدامه في مسأله اثبات وجود الله يقتضي ملاحظة الامور التالية اجمالاً:

- أ - تعريف الحركة .
- ب - وجود الحركة .
- ج - اركان الحركة .
- د - المقولات التي تقع فيها الحركة .

أ - تعريف الحركة :

ذكرت عدة تعاريف للحركة ، أوضحها التعريفان الآتيان .

١ - خروج الشيء من القوة الى الفعل بصورة تدريجية .

٢ - الزوال والحدوث المستمر .

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هي اما ان ينبت نبات او ينضج ثمر تدريجياً ، وفي هذه الموارد كلها يكون للجسم وضع فعلي كما ان له القابلية في ذات الوقت لاتخاذ وضع آخر ، وعندما يفقد الوضع الموجود تدريجياً ويتقبل وضعاً جديداً (ما كان فيه بالقوة يصبح فعليا) فان ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال الى حال ، غير ان هذا لا يعني ان الحركة مركبة من اجزاء اسمها (السكون) أو انها مركب من (الوجود العدم) بل ان الحركة امر واحد مستمر في الخارج وله اجزاء في التحليل العقلي .

من هذا البيان يمكن استنتاج ان الشيء اذا كانت له فعلية تامة ووجود مطلق فلا تتصور فيه الحركة ، بل سيكون ذا ثبات تام ، وبتعبير آخر أنّ الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان ، وعليه لا توجد في ذات الله سبحانه حركة على الاطلاق .

ب - وجود الحركة :

لا نواجه مشكلة مهمة في اثبات الوجود للحركة فذلك من الامور البديهية ، حيث نلاحظ بأمرنا وبوضوح ونحس بحواسنا الاخرى باستمرار وجود حركات في الخارج ، وعليه فان ادلة المنكرين لوجود الحركة ومنهم (الفيلسوف اليوناني ذنون واتباعه) لا قيمة لها وانها تجابه امراً بديهياً ، وذلك لاننا لا يمكن ان نعتبر الماء الجاري في النهر ، او التفاحة التي تنضج في

الشجرة تدريجياً، او عندما نركب السيارة ونسافر من مدينة الى اخرى اموراً خيالية قد ابتلينا بها، وانها امور ذهنية وليست خارجية لان هذا الامر هو أشبه بانكار البديهيات، ونحن في غنى عن الاستدلال ضده.

ولكن لا يمكن انكار ان فهم الحركة بدون قوة حافظة أمر غير مقدور، لان الحركة لا يمكن ادراكها باحساس آني لأنها أمر تدريجي.

ج - اركان الحركة:

ذكر الفلاسفة ستة اركان للحركة:

١ - المبدأ ٢ - الغاية ٣ - المحرك ٤ - المتحرك ٥ - موضوع الحركة ٦ - زمن الحركة (ستعرف ان الزمان ليس سوى مقدار الحركة) وبتعبير آخر أن الزمان وليد الحركة وليس والدها).

وسنرى ايضاً ان هذه الاركان الستة تطابق نظرية شهيرة ذهب اليها الاقدمون وعليه فإننا لا نحتاج موضوعاً للحركة بعد الاقرار بالحركة الجوهرية.

د - مجالات الحركة:

كان الفلاسفة في السابق يعتقدون بأن الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية هي: ^(١).

أ - الحركة في (المكان) ، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق .

ب - الحركة في (الكمية) نظير زيادة حجم النبات النامي .

ج - الحركة في (الوضع) نظير حركة الارض حول نفسها .

١ - المقولات العرضية التسع هي: الكم، الكيف، الوضع، المتى، الأين، ان يفعل، ان ينفل، ملك، والاضافة وشروحها في محالها.

د - الحركة في (الكيفية) نظير التغير التدريجي في لون وطعم ورائحة الفاكهة في الشجرة .

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في غير هذه الموضوعات الاربعة (غير ممكنة في جوهر الاشياء من باب اولي) فكان فلاسفة اليونان لاسيما (ارسطو) واتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وآخرون يعتقدون باستحالة الحركة في الجوهر، وكما قلنا في البحث الماضي انهم كانوا يتصورون ان ذات المتحرك هي من اركان الحركة ، ويعتقدون بأن الحركة لا مفهوم لها مالم يوجد موجود ثابت يتعرض للحركة .

ولكن صدر المتألهين (الفيلسوف الاسلامي الشهير) قدم نظرية جديدة وقال بأن الحركة في الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن ان توجد حركة في الاعراض مالم تكن مستندة الى حركة في الجوهر .

وبتعبير آخر ان (الحركات العرضية) تنشأ من (الحركة في الجوهر) ، قال صدر المتألهين ، لماذا نفترض هنا امراً ثابتاً ؟ وما المانع من ان يكون (الجوهر) متحركاً في ذاته ؟ بمعنى انه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً جديداً .

هذا الموضوع يبدو عجيباً لأول مرة - طبعاً - لأنه يستلزم ان يكون (المتحرك) مع (الحركة) شيئاً واحداً ، وان يكون الموجود نفسه سبباً لتحركه ، لكنه يقول : لو دققنا قليلاً لوجدنا ان الامر ليس عجيب فحسب بل هو امر واجب وجميل ايضاً .

ويُصر صدر المتألهين على ان اصل الحركة الجوهرية موجود في اقوال - السلف و يترقى ويستعين بآيات قرآنية كشواهد على هذا الموضوع (كي لا تكون حادثة هذه النظرية سبباً لنزاع المعارضين كما هو الحال في أية نظرية جديدة) .

ولو افترضنا ان هذه النظرية ليست جديدة ، غير ان عرضها بهذه السعة امر جديد .



١ - ادلة وجود الحركة الجوهرية

يعتقد صدر المتألهين بان الوجود على صورتين :

- ١ - وجود مستقر وثابت وعديم الحركة مطلقاً في ذاته او صفاته .
 - ٢ - وجود سيّال و متموّج في ذاته ، اي ان السيّلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار ، وقد يلاحظ هذا الاضطراب الذاتي بوضوح في اضطراب الاعراض ، وقد لا يلاحظ تغيّر في ظاهر الذات في حين تتجدد في باطنها باستمرار .
- وبتعبير آخر أنّ هذه الموجودات السيّالة لها وجود جديد في كل آن ، وهي اشياء جديدة ، ولكن هناك لون من الاتصال بينها يجعلها تبدو كوجود واحد .

وقد ذكر المناصرون لـ (الحركة الجوهرية) ادلة لاثبات مرادهم ، وان لم يسمح المجال لبيان هذه القضايا ، غير اننا نشير الى ثلاثة ادلة رئيسية هي :

- ١ - من القاعدة القائلة (كل ما بالعرض ينتهي الى ما بالذات) ، هناك اصل عام وهو ان كل موجود استعار صفة من غيره وأنها لا بد ان تنتهي الى مصدر تنشأ منه ، وبدون ذلك سنواجه مشكلة (التسلسل) ، أي أن الحرارة في الماء الحار مستعارة ولا بد لها ان تنتهي الى النار التي تولد الحرارة من ذاتها .

بناءً على هذا الاصل فان الحركة التي نلاحظها في أعراض الجسم (نظير الكمية والكيفية) لا بد لنا ان نعرف أنّ هذه الحركة ناشئة من

اضطراب الذات والباطن ، فمثلاً: لو كانت التفاحة ثابتة في ذاتها ومستقرة فكيف اذن يتغير لون اعراضها ؟ هذه الحركة الظاهرية اذن تخبر عن حركة الداخل .

٢ - كل (معلول متغير) بحاجة الى (علة متغيرة) ، فلو جلسنا في ظل شجرة في بستان ولاحظنا التحرك المستمر للظل فالواجب ان نعلم ان علته وهي اشعة الشمس في حالة تحرك ، ومن هناك ندرك الحركة في ذات الجسم عن طريق الحركة في اعراضه .

٣ - الزمان دليل آخر على الحركة الجوهرية ، لأننا نلاحظ جيداً ان حوادث العالم لا تكون مجتمعة ، فحوادث اليوم تتحقق بعد حوادث أمس وقبل حوادث غد ، وهذا أمر واقعي ، وهذا الاختلاف هو ما نطلق عليه عنوان تفاوت (الزمان) .

يبدو الزمان بالنظرة الاولى والسطحية واقعاً مستقلاً عن الموجودات ووعاء للحوادث ، ولكن لو افترضنا - ولو للحظة واحدة - عدم وجود الموجات المادية لوجدنا ان الزمان لا مفهوم له ، وبتعبير اوضح (الزمان) وليد (المادة) وبعبارة اخرى (الزمان) هو (مقدار الحركة) .

ومن جهة اخرى اذا اعتقدنا بأن الموضوعات التي تقع فيها الحركة تنحصر في الموضوعات الاربعة السابقة فانه يعني ان الموجود الفاقد لهذه الحركات ، أي مع عدم ملاحظة أية حركة في ظاهره ، فان هذا الموجود ينبغي ان لا يكون زمانياً ، في حين أن الوجدان فينا يحكم بأننا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية ، وليس ذلك إلا لأن المادة ذات حركة في ذاتها لكي تتقبل اجزاء الزمان (تأمل جيداً) .

هذه هي أهم الادلة لدى انصار الحركة الجوهرية وقد عرضناها باختصار

شديد .

ولا يزال السؤال قائماً عند البعض : كيف يمكن ان نتصور عينية (المتحرك) و (الحركة) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً ؟ ! وكيف يتم التصديق بشيء يكون تصويره في معرض السؤال ؟

والعجيب ان القائل بالحركة الجوهرية بنفسه يبدو مضطرباً امام هذه المعضلة العويصة ، وتتباين اقواله مما يدل على ان حلها غير يسير^(١).

وباختصار ان ابحاث الحركة الجوهرية باجمعها تتفرع عن قابلية تصور الحركة بدون موضوع ، ويقول البعض : أن هذا أمر غير معقول ، كما يعتقد البعض أن تصور هذا المعنى يقتضي اخلاء الذهن والابتعاد عن المفاهيم التي يأنس الانسان بها في مجال الحركة حتى يتصور وجوداً هو عين الحركة والمتحرك والحركة واحدة . كانت هذه خلاصة عن ابحاث الحركة .



٢- اثبات وجود الله ببرهان الحركة

لاشك في ان الحركة لا تنحصر في الحركة الجوهرية . ولذا لا يتحدد برهان الحركة لاثبات ذات واجب الوجود ببحث الحركة الجوهرية ، على الرغم من ان برهان الحركة - بعد الايمان بالحركة الجوهرية - اكثر وضوحاً في معرفة الله ، لايضاح ذلك نقول :

إن الحركة الجوهرية تقول بأن عالم المادة بأسره عبارة عن حركة ، أي أنه في حالة تجدد متواصل ، وله في كل آن وجود جديد ، وهذا الحدوث المستمر يثبت الارتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث ، اي يثبت واجب الوجود الازلي الابدی .

١ - للمزيد من المعرفة حول هذا الامر راجع كتاب (الاسفار) في بحث الحركة او دروس المرحوم الشهيد مطهري حول بحث الحركة في الاسفار: ج ١، ص ٤٤٧.

ويتعبير آخر: ان العالم في حال (صيرورة) دائمة لا (كينونة) ، وليس ذلك في الاعراض فحسب بل هو متأصل في اعماق ذاته ، ولذا يكون محتاجاً الى المبدأ باستمرار لكي يخلقه كل آن .

من خلال هذا البحث يمكن التوصل الى نتيجة جديدة وهي أن خلق العالم لم يحدث في البداية ثم وانتهى ، بل له خلق جديد في كل آن ، ولذا فان حاجة العالم الى علة ازلية ، ابدية لم تكن في البداية فقط ، لانه في حالة حدوث وخلق مستمر وفي كل آن ، وهذا المعنى كامن في اعماق مفهوم الحركة .

وبهذا لا يثبت بالحركة الجوهرية احتياج العالم الى واجب الوجود عند نشوئه فحسب ، بل انه محتاج اليه في البقاء ايضاً ، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية لا مفهوم للبقاء اصلاً فانه حدوث دائم غير انه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتصال مصطلح البقاء .

هنا يمكن ان نذكر تشبيهاً لكيفية ارتباط الاشياء بالمبدأ الازلي للعالم وهو ان الموجودات في العالم تشبه المصابيح التي يتواصل وجودها من خلال ارتباطها بالمصدر الكهربائي ، وبما ان النور يتجدد في كل آن فانه بحاجة الى العلة في كل آن والتعرف على كيفية انبعاث النور في المصابيح يكفي لمعرفة حاجتها المستمرة للمصدر المؤكد للطاقة الكهربائية .

صحيح ان (برهان الحركة) ينتهي بـ (برهان الامكان والوجوب) غير انه يُبحث بصورة مستقلة من اجل الحصول على صورة جديدة عنه (تأمل جيداً)



٣- العالم متغير وكل متغير حادث

استند الكثير من المتكلمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التغير) لاثبات وجود الله دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لان التغيرات التي تشاهد في ظاهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لاثبات آرائهم . وللإيضاح نقول : لا يبقى في عالم المادة شيء على حالة واحدة ، فكل الاشياء - دون استثناء - في حالة تغير .

ومن جهة اخرى ، ان التغير والحركة حادثان ، وبما ان المادة متعرضة لهذه التغيرات والتحويلات دائماً فينبغي ان تكون حادثة ايضاً فمن غير الممكن ان تكون المادة ازلية وتتعرض للحوادث منذ الازل لان ذلك يستلزم اجتماع (الحدوث) و (الازلية) وهما متضادان كما نعلم (تأمل جيداً) .

إنّ هذا الاستدلال وبملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادة يقام بصورة اوضح فكل مادة - وفق النظرية الفيزيائية الجديدة - تتركب من ذرات ، والذرة عبارة عن مجموعة من الحركات ، وكل حركة امر حادث ، فالمادة - اذن - والتي هي عبارة عن مجموعة حركات (الالكترونات) و (البروتونات) لا يمكن ان تكون ازلية ، وبعبارة اخرى ان كل حركة لها بداية ونهاية ، وكل ماله بداية ونهاية لا يكون ازلياً .

هذه المسألة جاءت بشكل جميل في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) في مواجهة مع (ابن ابي العوجاء) حيث قال له الامام (عليه السلام) : اسأل ماشئت ، فقال (ابن ابي العوجاء) : ما الدليل على حدث الاجسام ؟ فقال الامام (عليه السلام) : «اني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا اذا ضمّ اليه مثله صار اكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الاولى ، ولو كان قديماً ما زال ولا حال ، لأن الذي يزول ويحول يجوز ان يوجد ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الازل

دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الازل والحدوث والقدم والعدم في شيء واحد»^(١).



٤- حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

في البحوث العلمية الحديثة [خاصة بحوث (الترموديناميك) والقانون الثاني المعروف بقانون (الانتروبي) او (الكهولة) و (الأضمحلال)] ثبت هذا الامر: « وهو أن الحرارة تنتقل من الاجسام الحارة الى الباردة دائماً ولا يحدث العكس بنفسه ابداً و (الانتروبي) في الحقيقية هي نسبة الطاقة التي لا يمكن الانتفاع بها الى الطاقة القابلة للانتفاع ، ومن ناحية ثانية نحن نعلم ان هذا الانتقال والانتروبي في العالم في حالة تزايد ، فلو كان العالم أزلياً لكانت الحرارة في الاجسام كلها متساوية منذ عصور قديمة ولم تبقى طاقة نافعة وبالتالي لم يتحقق في العالم اي فعل أو تفاعل كيميائي ، ولاستحالت الحياة على الارض ، لكننا نلاحظ بأن التفاعلات الكيميائية مستمرة والحياة على الارض ممكنة ، ولذا فإن العلوم تثبت البداية للعالم - دونما قصد - وبهذا تثبت ضرورة وجود الله نظراً الى ان الحادث لا يحدث لوحده بل يحتاج الى المحرك الاول »^(٢).

والطريق الآخر الذي سلكوه لاثبات الحدوث للعالم هو التحقيق في الاجسام (المشعة) (هي اجسام لها ذرات غير مستقرة وفي حالة اضمحلال وزوال مستمر حتى تتبدل الى ذرات مستقرة ، ولها عدد ذري اكبر من (٨٠) ! وتكون على شكل اجسام ثقيلة وغير مستقرة ، وفي حالة اشعاع ذري ، وكأنها

١- بحار الانوار: ج ٣، ص ٤٦، اصول الكافي: ج ١، ص ٧٧ باب حدوث العالم.

٢- كتاب (اثبات وجود الله) لادوارد لوثر كيسل: ص ٥٥ (باختصار طفيف).

تلقي بنفائاتها الى الخارج حتى تتحول الى عناصر مستقرة .

إنَّ وجود هذه العناصر في الطبيعة دليل على ان العالم حادث وذو تاريخ ، وكما يقول المفكر الشهير (دونالد روبرت كار) والمتخصص في (الكيمياء الحياتية) كاتب كتاب (الارض) وهو كتاب يعيّن عمر الارض بحساب كاربون الاشعاع الطبيعي : (لو كان العالم ازلياً وابدياً لما وجدنا عنصراً مشعاً وذلك لتبدله الى عناصر مستقرة)^(١) .

ونستنتج من ذلك ان العلوم الطبيعية تثبت حدوث العالم ايضاً بطرق مختلفة ، ومن هنا تتضح ضرورة وجود خالق ازلي ابدى لتفسير ظهور عالم الوجود (تأمل جيداً) .

وبتعبير اوضح : ان اضمحلال المادة (الانتروبي) دليل على ان للعالم تاريخاً ينبىء عن بداية حدوثه ، فلو كان عالم المادة أزلياً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود، ولكانت الحرارة فيه متساوية وانعدم النشاط فيه وتعرض للفناء .

ويشبه هذا اذا وضعنا وعاءً مليئاً بالماء الحار في غرفة ، فمادامت الحرارة في الوعاء تختلف عن حرارة الجو فان الهواء حوله يكون متحركاً باستمرار ويزداد حرارة ويتصاعد الى الاعلى ويحل محله الهواء المجاور له وهذا يحدث حركة مستمرة في الفضاء المجاور ، وعندما تتساوى الحرارة في الغرفة فلن تكون اية حركة .

وهذا هو مصير العالم اخيراً ، والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه ، أي أن له تاريخ ظهور وحدث .

وهو يشبه الاواني المستطرقة المتصلة فاذا سكبنا الماء في احدها فانه سوف يتحرك في الأواني كلها حتى يستوي فيها وبذلك يحل السكون . ويقول العالم الفلكي (استونتر) : قام العلم باحتساب اعمار الكثير من الاشياء مثل : عمر الارض ، والصخور الشهابية ، والقمر والشمس ، والمجرة واخيراً عمر الدنيا ، والعمر اللازم - لتركيب العناصر المختلفة وتفككها - وظهر أن هذه الاعمار متقاربة وتقدر بـ (٦٠٠٠) مليون سنة منذ بداية حدوث العالم ^(١) .



وفي الختام نعود لنقول : ان حديث ابراهيم (عليه السلام) في الآيات المذكورة يستهدف مسألة اثبات وجود الله عن طريق الحكم العقلي القائل بان الشيء المتغير لا يمكن ان يكون خالداً وان كانت براهين اخرى للحركة كامنة في طيات استدلال ابراهيم (عليه السلام) (تأمل جيداً) .



(٢)

برهان
الوجوب والأمكان
(الغنى والفقر)

تمهيد :

أقام الفلاسفة والمتكلمون (علماء العقيدة) أدلة مختلفة لاثبات وجود الله سبحانه ، والبعض منها ذات اصول مشتركة ، ومن هذه الادلة برهان (الوجوب والامكان) وبرهان (العلة والمعلول) ، وستأتي تفصيلاتهما تباعاً باذن الله .

وبما ان هذه الاستدلالات تكون ذات شروح مختلفة لذا فانا نشير اليها بصورة مستقلة مع الاشارة الى اصولها المشتركة .

إن الاساس في البرهان (الوجوب والامكان) او (الغنى والفقر) يبتني على ما نجد في انفسنا وسائر الموجودات في العالم عند ملاحظتها من ان الحاجة تملأ وجودنا ووجودها ، أو من البديهي القول بأن الكون عبارة عن مجموعة من الحاجة والفقر .

إن الفقر في العالم دليل على وجود مصدر عظيم للغنى نطلق عليه لفظ (الله) تعالى^(١) .

وبعبارة اخرى اننا نجد كل موجود في هذا العالم تابع ، ولا يمكن لهذه التبعية ان تكون الى ما لا نهاية والعالم عبارة عن مجموعة من التبعية ، مما يدل على وجود ذات مستقلة قائمة بالذات في هذا العالم تتبعه

١ - التعبير بـ (ان الله غني حميد) وامثاله جاء في عشر آيات قرآنية : سورة البقرة ٢٦٧ ، سورة ابراهيم ٨ ، سورة الحج ٦٤ ، سورة لقمان ١٢ ، سورة لقمان ٢٦ ، سورة الحديد ٢٤ ، سورة الممتحنة ٦ ، سورة التغابن ٦ ، سورة النساء ١٣١ والآية اعلاه) كما ان وصف الله بالغنى ورد في آيات اكثر عدداً ، وهذا التأكيد والتكرار القرآني في هذا الصدد يحكي اهمية المضمون في هذا التعبير .

هذه (التبعية) وتستند اليه .

بعد هذا التمهيد نراجع القرآن الكريم خاشعين الآيات التالية :

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ^(١) .

٢ - ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ^(٢) .

٣ - ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ^(٣) .

شرح المفردات :

(فقراء) جمع (فقير)، وأصله كما يقول (الراغب) في (المفردات) هو الذي كسرت فقرات ظهره، وبما ان البؤساء يشبهون حال من تعرض لكسر الفقرات لذا اطلق عليهم هذا المصطلح .

كما أن (مسكين) مشتق من (السكون) ويعني العجز عن المشي ولذا اطلق على الفقراء المحققين، ولذا تطلق كلمة (فاقرة) على الحادثة او المصيبة العظيمة التي من شأنها ان تهشم الفقرات .

وقد ورد في (مجمع البحرين) بأن (فقير) يُطلق على الذي هو افضل حالاً من (المسكين)، ولذا قيل لرجل في الصحراء أفقر انت؟ قال: لا والله بل مسكين ^(٤) .

وعلى أي حال فانهم ذكروا لـ (الفقر) اربعة معاني هي :

١ - الحاجة الضرورية التي تعم جميع البشر بل كل الموجودات في

العالم والآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ عندهم تشير الى ذلك .

١ - سورة فاطر: الآية ١٥ .

٢ - سورة محمد: الآية ٣٨ .

٣ - سورة الرحمن: الآية ٢٩ .

٤ - يذهب البعض الى العكس في ذلك .

٢ - الاحتياج الى الحد الأدنى من مستلزمات الحياة ويعتقدون ان الآية ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ... ﴾ تشير الى ذلك .

٣ - فقر النفس والذي يعني الطمع، وعدة الحديث المعروف كقراً (كاد الفقر ان يكون كقراً) ويقابله غنى النفس .

٤ - الحاجة الى الله كما جاء في الحديث المعروف (اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك)^(١) .

وقد جاء في كتاب (العين) كلمة (فقرة) بمعنى الحفرة التي يوجد فيها الانسان في الارض للزرع ، ومن الممكن ان يكون الاصل في (فقير) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة في حياته ، ومن المحتمل ان يكون استعمال هذا اللفظ في العمود الفقري هو لوجود التقرعات فيه .

(غنى) من مادة (غناء) وتعني عدم الاحتياج ويقابله الفقر، ولذا ذكروا له هذه الموارد الاربعة في استعمالاته :

١ - الغنى بمعنى عدم الاحتياج الى اي شيء وهذا مختص في الله سبحانه .

٢ - عدم النقص في مستلزمات الحياة .

٣ - الغنى وعدم احتياج النفس اي القناعة .

٤ - الاستغناء عن الله وهذا المعنى محال ، ولكن قد تخطر هذه الفكرة

لدى بعض الناس وتكون سبباً للطغيان ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ استغنى^(٢) .

ويقول ابن منظور في (لسان العرب) : الغناء بالفتح : يعني المنفعة

١ - مفردات الراغب : مادة فقر .

٢ - سورة العلق : الآية ٦ و ٧ .

وغياء بمعنى التطريب ورغينا (بلا مد) يعني الاستغناء وعدم الحاجة، ومن الممكن ان يعتقد بوجود أصل مشترك بين هذه المعاني كلها ويقول بأن الغناء يطلق عندما يرفع الانسان صوته ويملاً به الجو كالاغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات !.



احتياج الجميع اليه

الآية الاولى تخاطب جميع الناس ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ، لـ (الفقر) هنا معانٍ واسعة وتشمل كل احتياج في الوجود بأسره، فاننا ومن اجل مواصلة الحياة المادية بحاجة الى ضوء الشمس، والماء، والهواء، وانواع من الغذاء والملبس والمسكن .

ولبقاء الحياة في الجسم نحن بحاجة الى الاجهزة الباطنية من قلب وعروق وجهاز للتنفس ودماع واعصاب .

ونحتاج في الحياة المعنوية - من اجل ان نميز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحق من الباطل - الى قوة عاقلة، وارقى من ذلك نحن بحاجة الى القادة الالهيين والكتب السماوية .

وبما ان منشأ هذه الامور كلها عند الله لذا فاننا بحاجة اليه في وجودنا كله .

إنّ الشهيق والزفير يحدثان بتعاوض الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان، وكل هذه العوامل هي هبات الهية، في كل نفس - اذن - هناك آلاف النعم، وينبغي الشكر على كل نعمة .

هذه الآية وان كانت تقصد كلام الذين يستغربون من اصرار النبي (ﷺ)

على عبادة الله تعالى كما يذهب الى ذلك بعض المفسرين^(١) ويقولون هل ان الله بحاجة الى عبادتنا؟ فيجيبهم القرآن: انتم الفقراء الى الله وعبادته تتكامل ارواحكم.

ولكن هذا الكلام لا يحدد من سعة المفهوم من الآية في جهاتها المختلفة، لأن قضية استغناء الله واحتياجنا هي الاساس في حل الكثير من المشكلات.

وعلى أي حال فان الفقر نافذ الى اعماق ذوات البشر اجمعين بل وكل الموجودات، ولا تقتصر الحاجة اليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل ان وجودها يحتاج الى فيضه في كل لحظة وأن (ان تَوَقَّف لحظة تهدمت الهياكل).

أجل، إنَّ الغني في عالم الوجود هو ذاته المقدسة، ولما كان البشر - وهم تحفة عالم الخلق - بحاجة اليه في كل وجودهم فان حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج الى بيان، ولذا فان الآية تضيف في ذيلها: ﴿وَاللَّهُ مُوَالِيُ الْغَنِيِّ الْحَمِيدُ﴾ وبملاحظة ان التعبير اعلاه يدل على الحصر - وفق القواعد الادبية - فان مفهومه ليس إلا هذا، وهو إنَّ الغني المطلق هو الذات المقدسة لله سبحانه، ولو قسّمنا البشر الى (فقير) و (غني) فان هذا امر نسبي غير حقيقي.

وبتعبير آخر، ان الموجودات كلها عبارة عن الفقر والحاجة، وان ذات الله المقدسة عبارة عن الغنى والاستغناء، وهذا هو اول الكلام وآخره.

هو لا يحتاج - اذن - الى عبادتنا وطاعتنا ابدأ، كما لا يحتاج الى مدح وثناء، بل ان طاعتنا وعبادتنا له ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من احتياجنا اليه

١ - تفسير الفخر الرازي، وتفسير روح المعاني: في ذيل آية البحث.

وسبب لتكاملنا المعنوي والروحي ، حيث اننا كلما اقتربنا من منبع النور فانا نزداد نوراً ، وكلما اقتربنا من المصدر الفياض ذاك فانا نستفيد اكثر ، وبتمثيل ناقص اننا كالنباتات والاشجار التي تستقبل نور الشمس دون ان تحتاج اليها الشمس .

ان فهم هذه الحقيقة يقدم للبشر درس التوحيد حتى لا يخضعوا إلا إليه ولا يُطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدوا يد الحاجة اليه لأنه (غني وكريم ورحيم وودود) .

ان الانتباه الى هذه الحقيقة له الاثر البالغ في تربية الانسان ، فمن جهة يخرج من حالة الغرور وعبادة النفس ، ومن جهة اخرى يحرره من جميع القيود ويجعله غنياً عن سواه ، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا يضيع في عالم الاسباب ، وسينظر الى مسبب الاسباب على الدوام .

وهنا لابد من الالتفات الى امرين :

الاول : ان الله هنا (في الآية) قد وُصف بـ (الحميد) بعد وصفه بـ (الغني) ، وكما اشرنا ان هذا التعبير قد تكرر في عشر آيات مما يدل على وجود نقطة مهمة فيها - هي كما يحتمل - : ان الكثير من الاغنياء يتصفون بصفات ذميمة نظير الكبر والغرور والحرص والبخل ، حتى لو كان لدى احد اخوانهم نعمة واحدة ولديهم (٩٩) نعمة فانهم سيصرون على ان يسلبوه نعجته ، الى حد يتبادر من لفظ (الغني) لدى الكثير من الازهان معنى الظلم والكبر والبخل ، في حين ان الله رحيم في غناه وعفو وغفور ، ولذا هو أهل لكل مدح وثناء .

أجل ، ان (الغني) الوحيد المُبْرَأ من كل عيب ونقص وذو الفضل واللطف والرحمة هي ذاته المقدسة .

الثاني: هو أنَّ المخاطبين في الآية هم البشر فقط ﴿يا أيها الناس﴾ فلماذا لم تذكر الموجودات الاخرى في حين انها فقيرة الى الله ايضاً؟
قال الكثير من المفسرين بأنَّ ذلك ناشئ من الحجم الواسع لحاجة الانسان، فكلما كان الموجود أكمل فانه أكثر احتياجاً في مسيرته ويزداد شعوراً بالحاجة كما هو الحال في الاحتياج المادي، فالطير يقنع بشيء من الماء والحب والعش البسيط في حين لا تشبع روح الانسان بألوان الطعام واللباس والبيوت والقصور^(١)!



والآية الثانية خلال بحثها عن (الانفاق في سبيل الله) وبخل البعض في هذا الطريق ورجوع بخل البخلاء على انفسهم لأنهم محرومون من فيض الله ورحمته اللامحدودة تقول: ﴿والله الغني وانتم الفقراء﴾.

قد يكون هذا التعبير من أجل رفع التصور بأنَّ الله تعالى عندما يدعو الناس الى الانفاق في سبيل الله فانه محتاج الى انفاقهم، أو أنَّ هذه الجملة تتنافى مع الجملة التي وردت في آيات سابقة حيث تقول: ﴿ولا يسئلكم أموالكم﴾.

تنطق الآية بأنَّ الله غني على الاطلاق والجميع محتاجون اليه، فعندما يأمرهم - اذن - بالانفاق فليس ذلك لحاجته، بل لانهم هم المحتاجون، ويصلون الى الكمال عن هذا الطريق ويتقربون الى ذلك الوجود اللامحدود.

١ - انتبه بعض المفسرين الى هذه النقطة ايضاً وهي ان ذكر (الفقراء) بصورة معرفة (مع ان الخبر يكون نكرة عادة فلو كان معرفة لما احتاج المخاطب الى الخبر) هو للتنبيه والتذكير، اي ان المخاطب نفسه يعلم بانه فقير الى الله وهذا تذكير ليس إلا، وقد جاء في علم البلاغة ايضاً ان المخاطب العالم الذي لا يعمل بعلمه يعتبر جاهلاً وينذر عن طريق الاخبار (تأمل جيداً).

صحيح أن بداية الآية ترتبط بـ (الفقر والغنى الماليين) وتنظر إلى الاتفاق في سبيل الله، غير أن الإطلاق في ذيل الآية يعطي مفهوماً واسعاً، ففي الوقت الذي تعرّف الله سبحانه بالغنى المطلق فإنها تعتبر البشر محتاجين في كل وجودهم، وقد نفذ الفقر إلى أعماق ذواتهم ولهذا يمكن استخدامه للاستدلال في هذا البحث.

على أي حال فإن من الملفت أنه هو الذي تفضل بالهبات كلها ووهبها للعباد ثم يطلب منهم أن ينفقوا في سبيل الله، وهذه مقدمة لهبات أكبر. ولا ينحصر هذا في قضية الاتفاق فحسب، بل يجري في كل التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم.

وقد جاء هذا المضمون في آيات عديدة منها ما تضمنته الآية (٤٧) من سورة سبأ حيث نقرأ:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ كما جاء في الآية (٦) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.



والآية الثالثة والاختيرة من بحثنا تذكر هذا المضمون (الفقر العام للموجودات وغنى الله المطلق) في حلة جديدة وجميلة وتقول: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وكل يوم هو في شأن ومنح مواهب جديدة ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. وبملاحظة الفعل المضارع يسأل والذي يدل على الاستمرار، وملاحظة ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السماء

والارض (وباحتمال قوي يشمل كل الموجودات العاقلة وغير العاقلة، والتعبير بـ (من) الذي يستعمل للعاقل هو للتغليب) وملاحظة ان الآية لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فيدل ذلك على شمولية الآية، وسيكون مفهوم الآية هو أن كل الموجودات في عالم الخليفة تستمد الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرة، فيض الوجود ومتعلقاته).

وليس هذا الطلب من ذات ممكن الوجود في حالة الحدوث فحسب، بل في البقاء ايضاً يكون محتاجاً الى واجب الوجود في كل لحظة ويطلب منه الوجود .

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً في تفسير (روح البيان) و (روح المعاني) حيث جاء فيهما (.. قاطبة ما يحتاجون اليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر احوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال وبلسان الحال فانهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم من العناية الالهية من العلائق لم يشموا رائحة الوجود أصلاً فهم في كل آن مستمرّون على الاستدعاء والسؤال) ^(١) من هنا يتضح ان اعتقاد البعض بأنّ السؤال يرتبط بـ (الرزق) او (الرحمة الالهية) او (متطلبات الدين والدنيا) أو (العلم بعاقبة العمل وصلاح النفس وفسادها) فقط لا دليل عليه وإنّ اندرجت في مفهوم الآية الواسع .



ايضاحات

١- برهان الوجود والامكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القابلة للفهم ، حيث يمكن بيانه بلسان عامة الناس ، وكذلك بتعابير واصطلاحات فلسفية خاصة ، وبتعبير بسيط عندما نرجع الى وجودنا نجد أنَّ وجودنا برمته في حالة احتياج ولا يلبي الاحتياج من الداخل ولذلك يجب رفع اليدين الى خارج انفسنا، وكما يقول المثل (من كان اغنى فهو اكثر احتياجاً) فكلما تضاعفت قوة الانسان في الظاهر (ماديا او معنوياً) توسعت دائرة احتياجاته ، فالطير في الصحراء يكتفي بقليل من الماء والحب وعش مؤلف من بعض الاوراق، في حين تحتاج حياة سلطان مقتدر الى الآلاف وهكذا في الحياة العلمية لمحقق كبير بالنسبة لطالب مبتدىء .

وبملاحظة هذا الاحتياج وبألهام باطني يدرك الانسان ان لهذا العالم مُبدئاً غنياً اليه يتجه الجميع لقضاء حوائجهم وهو الذي نطلق عليه (الله) تبارك وتعالى .

اما في العبارات الفلسفية وبحوث المتكلمين فإنَّ الوجود يقسم الى قسمين : (ممكن) و (واجب) .

فواجب الوجود يكون وجوده من ذاته ، وذاته المقدسة لا تحتاج اطلاقاً، في حين لا يملك الممكن في ذاته شيئاً فهو محتاج .

وبهذا يُعد احتياج الممكن الى العلة من القضايا البديهية والاولية ولا تحتاج الى اقامة البرهان ، ومن يتردد في هذا الامر فانه يعود الى عدم الفهم الجيد لمفهوم الممكن .

ثم يُطرح هذا السؤال : ما العلة في احتياج الممكن الى العلة ؟ هل هي وجودها او أنها قضية الحدوث ؟ أي هل أن الاشياء تحتاج الى العلة بسبب كونها حادثة لا من كونها انها موجودة ؟ أو أنَّ الملاك الاصل هو (الامكان) وبناء على هذا الدليل فان الاحتياج الى العلة يجب ان لا يبحث في أصل وجود الشيء او في حدوثه، بل العلة الاساسية هي الامكان .

لاريب أن الاجابة الصحيحة والدقيقة هي الاجابة الثالثة ، لاننا اذا - بحثنا عن معنى الامكان وجدنا أن الاحتياج الى العلة متحقق فيه ، لان - (الممكن) وجود (غير اقتضائي) أي أن ذاته لا تقتضي الوجود ولا العدم .
وبملاحظة هذا الاستواء الذاتي يكون في وجوده وعدمه بحاجة الى عامل .

ولذا فان الفلاسفة يقولون بأنَّ حاجة الممكن اولية .

يُستنتج من ذلك أنَّ حاجة الممكن الى واجب الوجود لا تقتصر على ابتداء الوجود فحسب، بل هي ثابتة في مراحل البقاء كلها لثبوت الامكان في حق الممكن دائماً لذا فان الحاجة الى العلة أمر باقٍ وثابت .

وللمثال على ذلك فاننا حينما نمسك القلم ونحركه على قرطاس نجد أن حركة القلم تحتاج الى محرك من الخارج ويتمثل في اصابعنا، فما دامت الحركة في اليد والاصابع فان القلم يتحرك كذلك، ويتوقف بتوقفها .

وأوضح من ذلك ما يوجد في افعال ارواحنا، فحينما نعزم على العمل ببرنامج ما نجد ان الارادة والعزم - وهما من فعل الروح - يرتبطان بها ويختفيان حال انقطاع هذا الارتباط .

اننا مرتبطون بوجود الله كذلك وهذا الوجود الارتباطي لا يستقر لحظة

واحدة بدون ذلك .

ويقول الشاعر:

لم اسلم النفس للاسقام تبلغها ألا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة لعل مسقمها يوماً يداويها
قد يقال : اننا نشاهد البناء باقياً بعد موت بانيه فكيف اذن تستغني
الافعال عن الفاعل في بقائها ؟

فنقول : ان ذلك يحصل بسبب حلول علة محل علة اخرى ، ففي البداية
تقوم يد البناء الماهر بوضع لبنة على لبنة اخرى ثم يبقى البناء مستقراً بفضل
جاذبية الارض وعوامل الالتصاق من جص وأسمنت .

وباختصار ، ان وجود (الممكن) وجود ارتباطي ولا يستمر دون
الاتكال على وجود مستقل ، وعليه فان تعريف معنى الوجود الارتباطي كافٍ
في التعرف على الوجود المستقل دون الحاجة الى بحوث واسعة في « الدور
والتسلسل » (تأمل جيداً) .

يُستبطن في مفهوم الوجود الارتباطي والتبعي معنى الاستناد الى
واجب الوجود فهل للوجود الارتباطي معنى دون الوجود المستقل ؟



٢- برهان الغنى والفقر في الروايات الاسلامية

نقرأ في دعاء الامام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة - وهو من أعمق وأثرى
الادعية الواردة عن المعصومين (عليهم السلام) - خاصة في بحث التوحيد اذ
يقول (عليه السلام) :

(كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما

ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟^(١).

ونقرأ في موضع آخر من الدعاء نفسه :

(إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا اكون فقيراً في فقري؟!).

ونجد في حديث نبوي : (الفقر فخري وبه افتخر)^(٢).

ان احد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتي تجاه

الله سبحانه وهو الداعي الى الفخر، وليس الفقر هنا بمعنى ضنك المعيشة

والافتقار الى المخلوق وهو مما تدمه الروايات ، كالحديث الذي ينص :

(كاد الفقر أن يكون كفراً)^(٣).

ولذا نقرأ عنه (عليه السلام) في حديث آخر : (اللهم اغني بالافتقار اليك ولا تفقرني

بالاستغناء عنك)^(٤).

كانت لقلبي أهواء مفرغة فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي

تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك ياديني ودنيائي



١ - يستفاد من هذه الجملة في (برهان الصديقين) ايضاً فيشار اليها في بحثه انشاء الله .

٢ - بحار الانوار : ٦٩ / ٥٥ ، وتفسير روح البيان : ٧ / ٣٣٤ .

٣ - بحار الانوار : ٦٩ / ٣٠ .

٤ - سفينة البحار : ٢ / ٣٧٨ ، وتفسير روح البيان : ٧ / ٣٣٤ .

(٣)

برهان العلة والمعلول

تمهيد :

لا شك ان العالم الذي نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات ، والعلية هي من اوضح القوانين في هذا العالم .

كما لا شك في اننا والارض التي نعيش عليها لم نكن موجودين بصورة دائمة بل اننا معلولون لعلة اخرى ، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات ان تستمر بلا نهاية وتبقى في حالة التسلسل ؟ وبعبارة اخرى أ تكون كل علة معلولة لعلة اخرى ولا تنتهي في موضع ما ؟

انها قضية لا يتقبلها اي وجدان ، فكيف تتبدل اصفار نضعها الى مالا نهاية الى رقم ما ؟ (المقصود من الصفر هو الوجود الذي لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من علته) ، وكيف يمكن ان يصطف الفقراء - والمعوزون الى مالا نهاية ثم يحصل منهم وجود غني ؟ !

يجب الاذعان - اذن - الى ان هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي بوجود ، وهذا الوجود هو علة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته ، وبتعبير أدق هو عين الوجود اللامتناهي وواجب الوجود .

إنه أوضح دليل على اثبات الوجود الازلي والابدي لله سبحانه .
والملاحظ ان الاستدلالات الاخرى لاثبات وجود الله تنتهي كذلك ببرهان (العلة والمعلول) وبدونه تكون ناقصة .

بعد هذا التمهيد نصغي خاشعين الى الآيات القرآنية التالية :

١ - ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ سورة الطور - ٣٥ .

٢ - ﴿ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ سورة الطور - ٣٦ .

٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الطور- ٤٣.

شرح المفردات :

(خلقوا) من (الخلق) ويعني في الاصل : التقدير المباشر، وبما ان التقدير عند ايجاد شيء غير موجود في الماضي، وبدون اصل ومادة يكون تقديرًا في جميع الجهات . اطلقت هذه المفردة على الابداع والايجاد .

كما تستعمل هذه الكلمة في عملية ايجاد شيء من شيء آخر نظيره :
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ - سورة النحل : ٤.

من البديهي ان (الخلق) بمعنى (الابداع والايجاد بعد العدم) مختص بالله ، ولذا ينفي عن غيره حيث يقول تعالى :

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ - سورة النحل : ١٧ .

في حين يصدق المعنى الثاني (وهو ايجاد شيء من شيء آخر والتقدير له) . فيما سوى الله تعالى . والآية ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ - سورة (المؤمنون) : ١٤ ناظرة الى هذا المعنى .

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الكذب ايضاً، ولعل ذلك لما يوجد الانسان حين الكذب من شيء غير موجود .

وقد ذكروا لـ (الخلق) اصلين في مقاييس اللغة احدهما : التقدير وثانيهما : الليونة والنعومة ، ولذا يطلق على الصخرة الملساء (الصخرة الخلقاء) كما يطلق فعل (خَلَقَ) على الاشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الازمنة عليها .

اما (الاخلاق) والتي تعني الصفات والسجايا الانسانية الثابتة فانها مشتقة من المعنى الاول وهو التقدير (لأنها تحدد ابعاد الشخصية والروح

الانسانية وقدرها).

جمع الآيات وتفسيرها:

استجواب عجيب!

لقد جاءت الآيات المذكورة اعلاه ضمن تسع آيات في سورة (الطور)،
ووردت في نطاق (١١) سؤال على صورة الاستفهام الاستنكاري.
وهذه الآيات تضع الانسان امام مجموعة من الاسئلة المتسلسلة
العجيبة ثم تسدّ طريق الفرار عليه كي يدعن للحق.

وتتابع هذه الاسئلة الاحد عشر ثلاثة اهداف مهمة هي:

اثبات التوحيد، المعاد، ورسالة نبي الاسلام، غير أن الاساس فيها
يتمحور حول توحيد الخالق المعبود.

الآية الاولى من الآيات الثلاث التي تقدمت تقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ
شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾.

وبعبارة اخرى: إنَّ كلَّ انسان لاشك في أنه مخلوق وحادث ولا يخرج
من ثلاث حالات: اما مخلوق من دون علة او هو علة وجوده أو أن علة هو
الوجود الازلي والابدي وهو الله سبحانه.

وبما ان الاحتمالين الاول والثاني لا يتوافقان مع العقل والوجدان
فلاحتمال الثالث هو الثابت حتماً، ولذا ذكر الاحتمالين الاول والثاني
بصيغة «الاستفهام الاستنكاري»، وحينما ينفيهما العقل والوجدان، يثبت
الاحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الاستدلال الشهير بـ(علة والمعلول) حيث يعرض في
جملتين قصيرتين ومركّزتين ذات معنى واسع.

وقد يبرز هنا احتمال رابع وهو ان يكون الانسان معلولاً لعلّة اخرى وهذه العلة معلولة لعلّة اخرى وهكذا تستمر هذه السلسلة الى ما لا نهاية . وهذا الاحتمال يبرز لدى الفلاسفة عادة وليس لعامة الناس ، ولعل الآيّة لم تذكره لهذا السبب .

على أيّ حال فان هذا الاحتمال واضح البطلان ايضاً ، لاستحالة (تسلسل العلل والمعلولات) منطقياً ووجداناً ، وسيأتي ايضاح ذلك باذن الله .

وقد ذكر الكثير من المفسرين تفسيرات اخرى للآية ، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفسيرات متعددة ، حيث يقولون بأنّ المراد هو أن البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر ونهي وثواب وعقاب ، ويعتبرونها نظير الآية (١١٥) من سورة (المؤمنون) .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ ^(١) .

ولكن بملاحظة ذيل الآية يضحّل هذا الاحتمال تماماً لأنه تعالى يقول : ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ، وهذا التعبير يدل على أن الجملة الاولى ناظرة الى سبب الخلقة وعلة ظهور الانسان لا الغاية من خلقه ، وبعبارة اخرى ان الآية تلاحظ العلة الفاعلية لا الغائية .



الآية الثانية تتوجه الى خلق السماوات وتعيد استدلال العلة والمعلول هذا في مورد خلق السماوات والارض وتقول :

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

١ - تفسير مجمع البيان ، تفسير الفخر الرازي ، تفسير القرطبي ، تفسير الميزان ، تفسير روح المعاني وتفسير روح البيان ، حيث ذكروا هذا المعنى كمعنى رئيس في الآية او كاحتمال .

ويعني هذا ان السماوات والارض حادثة دون شك لتعرضها الى الحوادث باستمرار وحدوث انواع التغييرات عليها وكل شيء معرض للتغير لا يمكن أن يكون أزماًياً .

في هذه الحالة يجري الحديث عن خالق السموات والارض فهل هي خلقت نفسها ؟ او لا خالق لها ابدأ وقد وجدت صدفة ؟ ام أن خالقها هو البشر ؟ وبما أن الاجابة عن هذه الاسئلة بالنفي ، يعلم ان لها خالقاً ليس مخلوقاً بل هو أزلي أبدي .

والملاحظ أن من بين هذه الاحتمالات يتوجه الاستفهام الانكاري الى احتمال خالقية الانسان للسموات والارضين فقط الاحتمالات الاخرى في الآيات السابقة، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة والبلاغة .

، من هنا فان الآيتين اعلاه أقامتا برهان العلة والمعلول في الآفاق والانفس ، وعليه فان الآية الثانية تشهد كذلك على ان الحديث يدور حول العلة الفاعلية لا الغائية .

في الختام تشير هذه الآية الى هذه الحقيقة وهي ان القضايا في هذا الصدد واضحة ، ولكن العيب هو أنهم لا يستعدون للايمان واليقين ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

أجل ، إنّ الحق بيّن، بيد أنهم معاندون وأعداء للحق .
وفي الحقيقة فان هذه الجملة تشابه ماورد في الآية (٤) من سورة الجاثية :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، وتشابه ما ورد في الآية (٢٠) من سورة الذاريات .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وواضح أن أولئك لو كانوا موقنين لما احتاجوا إلى الآيات ، وعليه فإن الحديث يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنهم على استعداد لقبوله .
 وذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود هو أن أولئك لا يقين لهم بأنهم خالقو السماوات والارض ، بل يعتقدون بأن الله هو الخالق ، نظير ما جاء في الآية (٢٥) من سورة لقمان ﴿ وَلَسُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾^(١) .

بيد أن هذا التفسير يبدو بعيداً .

والاضعف من هذا الاحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون أن معنى الآية هو : « انهم لا يقين لهم بما يقولون وهو ان الله خالق السماوات والارض » اي اليقين الذي يدعوهم إلى العبودية والاطاعة .

ويتضح خطأ هذا التفسير من ان الآيات هذه لم تطرح قضية خلق الله للسماوات والارض ، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة اشارة إليها ؟^(٢) .

واخيراً تقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للاستدلال :

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

انه في الحقيقة استدلال على توحيد المعبود ، أي عندما يكون هو الخالق للعالم فإن العبادة يجب ان تقتصر عليه ايضاً لا على غيره ، كالاصنام والشمس والقمر والنجوم وغيرها .

وكما اسلفنا فان هناك سبعة اسئلة اخرى اضافة إلى هذه الاسئلة الثلاثة الواردة على صورة الاستفهام الانكاري في آيات ثلاث ترتبط بقضية النبوة

١ - اقر الزمخشري هذا التفسير في الكشاف وقد احتمله الفخر الرازي وجمع آخر من المفسرين .
 ٢ - جاءت عبارة ﴿ وَلَسُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ في سورة العنكبوت : ٦١ ، سورة الزمر : ٢٨ ، سورة الزخرف : ٩ و ٨٧ ، سورة لقمان ٢٥ .

وامور اخرى لا حاجة لذكرها في هذا البحث التوحيدي^(١).

* * *

ايضاحات

برهان العلة والمعلول في الفلسفة والكلام

يعدّ هذا البرهان من أقدم وأشهر الاستدلالات على اثبات وجود الله ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم ارسطو الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا حيث كانوا يستندون اليه، وكما اشرنا من قبل فان اغلب الادلة على التوحيد لا تتم حتى تستند الى برهان العلية . ولكي تتوضح قواعد هذا الاستدلال ، ينبغي ملاحظة عدة امور:

١- تعريف اصل العلية

(العلية) هي العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون احدهما تبعاً للآخر، ومن يرى ان علاقة العلية عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فان هذا التعريف يكون ناقصاً، فصحيح ان المعلول يحدث بعد علته ولكن ذلك لا يكفي لتوضيح مفهوم العلية ، بل لابد أن يكون هذا الامر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثاني الى الوجود الاول .

٢- شمولية قانون العلية وسعة تطبيقاتها

طبقاً لما يقوله بعض المحققين ، كان قانون العلة والمعلول أول قضية شغلت الفكر البشري من بين القضايا الفلسفية سبقاً وقدماً ودفعت البشر

١- للمزيد من الايضاح راجع التفسير الامثل (تفسير نمونه) : ٢٢- ٤٥٢ .

للتفكير من أجل اكتشاف الغاز الوجود ، وأهم دافع للتفكير لدى الانسان الذي يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون (العلة والمعلول العام) الذي يثبت أن لكل حادثة علة وهو السبب في تبادر مفهوم (لماذا) في الذهن البشري ، ولو لم يتعرف الذهن البشري على مفهوم العلة والمعلول العام ولم يذعن لقانون العلية لم يكن ليخطر في ذهنه مفهوم (لماذا)؟^(١).

هذه الـ (لماذا) هي الاساس لكل العلوم والافكار البشرية والتي دفعت الانسان للبحث عن الجذور والنتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة .
وبعبارة اخرى ، ان جميع العلوم البشرية انعكاس لقانون العلية، ولو سلب هذا القانون من البشر فان هذه العلوم سوف تفقد محتوياتها كلها .
وكذلك لو فقدنا قانون (العلية) فان (الفلسفة) ايضاً سوف تتزعزع بكل فروعها ، وعليه فان العلوم والافكار والفلسفة مبنية على هذا القانون .

٣- جذور معرفة قانون العلية

كيف توصل الانسان الى قانون العلية ؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد أن نرجع الى الوراء لنستقريء حياتنا في الصغر، عندما ينضج لدينا العقل وتكتمل قابلية التمييز فينا ، فالطفل يمد يده الى النار فيحس بألم الاحتراق ، وعندما يعيد هذا العمل ويحدث فيه الاحساس نفسه يتيقن شيئاً فشيئاً بوجود علاقة بين أمرين (مس النار والشعور بألم الاحتراق) .

وهكذا حينما يعطش ويشرب الماء فانه يشعر بالراحة وزوال العطش ويتكرر هذا العمل حتى يتيقن بوجود علاقة بينهما ، وعندما تتكرر هذه

التجارب في مجالات كثيرة وموضوعات مختلفة يتيقن بأن لكلّ حادثة علة وبهذا يكتشف قانون العلية بشكله الساذج البسيط، وبامتداد عمره وبالتجارب التي يمر بها سواء على صعيد الحياة الاعتيادية أو على صعيد العلوم والافكار - سيدرك سعة هذا القانون وقوته اكثر فاكثرا (كما يصل الى هذا المبدأ وهو أنّ لكلّ حادثة علّة عن طريق الفلسفة) .

نحن لا نقول بان تعاقب حادثين يعني العلية بل نقول انّ القضية لابد من تكرارها حتى يتضح وجود علاقة بينهما، وأن الثاني تابع للأول .

والظاهر أن القائلين بأنّ قانون العلية تجريبي لا يقولون غير هذا، وهو أن الانسان يتوصل الى الجذور والاصول عن طريق التجربة والحس ومن ثم يكتشف علاقة العلية من خلال (التحليل العقلي) ، وهو في الحقيقة يرتّب مقدمة من (الحس) واخرى من (العقل) وذلك لان القوانين الكلية توجد في العقل بصورة بديهية، ودور الحس هو ادراك الموضوعات المتناثرة ثم يقوم العقل بجمعها فيتوصل الى النتائج .

ويتصور البعض انّ مبدأ العلية - وهو علم حصولي - يستحصل من العلم الحضورى (النفس) بالنسبة الى (افعال النفس) .

وفي ايضاح ذلك يقولون أن الروح الانسانية تحسّ بامور في اعماقها تابعة لها وقائمة بها كالتصور والافكار والارادات والقرارات .. هذه كلها افعال الروح الانسانية ومعلولة لها، ومن خلال العلاقة بين هذه الافعال والروح يمكن ان نكتشف قانون العلية ، ثم يستندون في ذلك الى قول لابن سينا حيث يقول : « فانا مالم نشبت وجود الاسباب لمسيبات من الامور باثبات ان لوجودها تعلقاً بما يتقدمها في الوجود ، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق، وأن ههنا سبباً ما ، وأما الحس فلا يؤدي إلّا الى الموافاة وليس إذا

توافى شيثان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر...^(١).

ولا شك في أن هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأن هذه التحليلات بشأن الروح وفعالها هي من اختصاص الفلاسفة لا عموم الناس ، في حين أن عامة الناس يعرفون قانون العلية حتى الاطفال منهم ، ولا شك في أن ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسية كما اسلفنا ، غير ان العقل مالم يحلل هذه التجارب ومالم يجعل من القضايا الجزئية امراً عاماً ، فنحن لا ندرك (قانون العلية) ، وعليه فان الاساس في معرفة هذا القانون هو التجربة اضافة الى العقل ، ولعل ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره ، بيد انا لا ننكر ان الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلية من خلال الافعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحس .

كما ان ثمة طريق استدلال واضح يوصل الى هذا الامر ، وهو أننا لو أنكرنا قانون العلية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء ، وسوف ينشأ كل شيء من أي شيء ، بل يجب رفض مناهج الاستدلالات العقلية ايضاً . وللوصول الى نتيجة منطقية - مثلاً - يجب أن لا نستفيد من أدلة خاصة ، بل اننا نصل من كل مقدمة الى اية نتيجة نتوخاها ، وهذا مالا يتقبله أي عاقل قطعاً . ينبغي اذن أن ندعن بعلاقة العلية في الخارج وفي الامور العقلية .

٤ - اقسام العلة

العلة لها مفهوم واسع واقسام عديدة :

العلة التامة وتعني ان الشيء اذا وجد فان معلوله سوف يوجد مباشرة .
والعلة الناقصة وتعني ان الشيء يحتاج - في وصوله الى المعلول -

انضمام امور اخرى ، كما تقسم العلة الى (العلة الفاعلية) و (الغائية) و (المادية) و (الصورية) وهذه تقسيمات مشهورة يمكن ايضاها بمثال بسيط :

لو لاحظنا ملابسنا التي نرتديها لوجدناها لكي توجد يجب توفر المادة (كالقطن والصوف) ثم تحويلها الى قماش مناسب ثم تباشرها يد الخياط لخياطته ، ومن الاكيد ان الخياط يصنع اللباس لهدف خاص وهو الانتفاع منه .

تعتبر المادة الاصلية هي (العلة المادية) والصورة التي اعطيت لها هي (العلة الصورية) والذي جعلها على صورة اللباس هو (العلة الفاعلية) والدافع لهذا الشيء هو (العلة الغائية) .

ومن المعلوم اننا استندنا في برهان (العلة والمعلول) الذي نتابعه على العلة الفاعلية وخاصة العلة التامة .



ايضاح برهان العلية

بعد اتضاح هذه المقدمات نرجع الى اصل برهان العلية .

ان برهان العلة والمعلول في الحقيقة مبني على اساسين هما :

١ - ان العالم الذي نعيش فيه (حادث) و (ممكن الوجود) .

٢ - كل موجود حادث وممكن الوجود يجب أن ينتهي الى واجب

الوجود ، وبعبارة اخرى يجب ان تنتهي الوجودات الارتباطية الى الوجود المستقل .

وقد اسلفنا بما فيه الكفاية عن المقدمة الاولى وهي حدوث العالم ،

يبقى أن نثبت الآن المقدمة الثانية :

إنها قضية واضحة وحتى الماديون والمنكرون لوجود الله يقرّون بها، بيد أنهم يقولون: إنّ (المادة) لها وجود ازلي وابدّي ومستقل بالذات، لكن هذا الكلام باطل استناداً إلى الأدلة التي تثبت استحالة ازلية المادة وابديتها وقد اشرنا إلى ذلك.

ولتوضيح هذه المقدمة من الأفضل أن نقول: مع الاقرار بأن العالم حادث فإن خمسة طرق نواجهها ولا سادس لها:

فأما أن يوجد العالم بدون علة، أو أن يكون هو علة لوجوده، أو أن يكون معلوله علة له، أو أن يكون العالم معلولاً لعلة وهي معلولة لعلة أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.

أو أن نقر بأن كل هذه الموجودات الحادثة مستندة إلى موجود ازلي ابدّي فوق المادة، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي أخيراً بـ (واجب الوجود).

الفرضية الأولى وهي حدوث العالم بدون علة وتسمى بفرضية (الصدفة) باطلة، لأن الحادث إن لم يحتاج إلى علة فإن كل موجود يجب أن يوجد في كل زمان وأي ظرف. في حين نرى بوضوح أن الأمر ليس كذلك، حيث يحتاج كل حادث لحدوثه إلى توفر الشرائط والظروف الخاصة. وهكذا بطلان الفرضية الثانية (أن يكون الشيء نفسه علة لوجوده) هو أمر بديهي لأن العلة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان الشيء علة لنفسه فلا بد أن يكون موجوداً قبل وجوده مما يستلزم اجتماع (الوجود) و (العدم) وهو ما يطلق عليه بالمصطلح العلمي (الدور).

وهكذا بطلان الفرضية الثالثة حيث يكون معلول الشيء علة لوجوده، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح.

وأما بطلان الفرضية الرابعة التي تعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات الى مالا نهاية فإنه بحاجة الى ايضاح :

(التسلسل) يعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات الى مالا نهاية وهذا باطل عقلاً لأن كل معلول يحتاج الى علة ، ولو استمرت هذه السلسلة الى مالا نهاية ولم تنته بواجب الوجود فإنه يعني ان مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة ، في حين أن مالا نهاية من الفقراء والمحتاجين محتاجون حتماً .

فلو تراكمت مالا نهاية من الظلمات لا تتحول الى (نور) ، ومالا نهاية من (الجهل) لا يكون (علماً) ، ومالا نهاية من (الاصفار) لا يكون (رقماً) .
لا بد اذن من انتهاء سلسلة العلل والمعلولات الى موجود يحتاج شيئاً آخر .. وجود مستقل وغني ، وجوده من ذاته ، وبعبارة أصح أن يكون عين الوجود والوجود المطلق .

ومما ذكر نستنتج ان وجود الممكنات والحوادث في العالم لا بد ان ينتهي بوجود واجب أزلي نسميه (الله) سبحانه وتعالى .

(٤)

برهان الصدّيقين

تمهيد :

برهان الصديقين من ادلة اثبات وجود الله باستلهاام من القرآن الكريم والروايات، والذي اهتم به العلماء والفلاسفة الاسلاميون، وكما يبدو من اسمه أنه ليس هو دليلاً عاماً بل يختص بالذين يحظون بمعلومات وفهم اوسع في العقيدة والفلسفة، ولهم قسط وافر من الذوق ودقة الملاحظة .

دليل يتصف بالتعقيد قليلاً بيد انه لطيف وجميل ومرتب للروح .

ومحور هذا الدليل إننا بدلاً من دراسة المخلوقات من أجل معرفة الله ، نتوجه للتدبر في ذاته المقدسة للوصول الى ذاته ، وكما يقتضيه الدعاء (يا من دلّ على ذاته بذاته) نتخذ منه تعالى طريقاً للوصول اليه ، وكل ما في هذا البرهان من تعقيد وظرافة ناشئ عن كيفية امكان اتحاد الدليل والادعاء .

القضية هي أن في هذا العالم وجوداً فنبادر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق نصل الى أن أصل الوجود يجب أن يكون واجباً .

هذه اشارة سريعة ونقرّ بعدم كفايتها ونوكل التفصيل بشأنها الى

المستقبل ونعود الآن الى القرآن ونصغي خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سورة فصلت - ٥٣ .

٢ - ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة آل عمران - ١٨ .

٣ - ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ سورة البروج - ٢٠ .

٥ - ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة الحديد - ٣ .

٦ - ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(١) سورة النور - ٣٥.

شرح المفردات :

(شهيد) مشتق من (شهود) وهو في الاصل - كما يقول الراغب في المفردات - بمعنى (الحضور المقرون بالمشاهدة) سواء كان ذلك بالعين الباصرة او بعين القلب ، وقد يعني (الحضور) مجرداً عن مفهوم المشاهدة بَيِّدَ أن استعمال (شهود) بمعنى الحضور، و (الشهادة) بمعنى الحضور المقرون بالمشاهدة أولى .

وقد وردت في (مقاييس اللغة) ثلاثة اصول في معنى (الشهادة) هي : الحضور والعلم والاعلام للآخرين ، واطلاق (شهيد) على من يقتل في طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه ، أو بسبب حضوره في ساحة الجهاد ، أو بسبب مشاهدة النعم العظيمة التي أعدّها الله له ، أو بسبب حضوره بين يدي الله .

وقد جاء في كتاب العين أن (الشَّهْد) يعني (العسل) قبل استخراجهِ من الشمع وهو المعنى الذي اتخذه صاحب الكتاب الاصل الاول لهذه المادة ، فهل يرى ذلك هو الاصل اللغوي ؟ وفي هذه الحالة ماهو وجه العلاقة بما نحن فيه ؟ انه لم يذكر توضيحاً لذلك ^(٢) .

(محيط) ومصدرها (الأحاطة) وتعني الضم ويستفاد من بعض الكتب

اللغوية بان الاحاطة على نوعين :

١ - هناك آيات قرآنية اخرى تحمل نفس هذا المضمون من جملتها سورة الحج : الاية ١٧ وسورة سبأ : الاية ٤٧ وسورة المجادلة : الاية ٦ وسورة البروج : الاية ٩ وسورة النساء : الاية ٣٣ وسورة الاحزاب : الاية

احدهما تكون في الاجسام ولذا يطلق على البناء المحيط
بمكان (حائط) وثانيهما (الاحاطة المعنوية) وتعني الحفظ والحراسة او
العلم والاطلاع على شيء ما .

وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الامتناع من شيء ، وكأن الانسان
محاط من كل جهة لئلا يصل الى ذلك الشيء ، وكلمة (الاحتياط) تستعمل
في المجالات التي يحاول الانسان فيها ان يعمل عملاً يصونه من الخطأ
والاشتباه والمعصية والمخالفة .

وقد ورد في (مقاييس اللغة) ان الاصل في هذه المفردة هو من
مادة (حو ط) ويعني دوران شيء حول شيء آخر .

كما ان كلمة (محيط) يمكن ان تكون بمعنى الاحاطة الوجودية او
احاطة القدرة والعلم^(١) .

(نور) يعني الاشعة المنتشرة التي تعين العين على النظر وهو على
نوعين :

مادي وهو النور الذي تبصره العيون المجردة ، ومعنوي وهو النور الذي
تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن ، وقد جاء اطلاق (نائرة) على الفتنة
وذلك لانتشارها واتساعها .

والاقرب أن هذه المفردة تعني في أصلها الضياء المحسوس ، ثم
استعملت في الامور المعنوية كالايمان والعلم والعقل والقرآن حتى ذات الله
المقدسة .

(نار) هي من هذا الاصل ايضاً ويقتربان في كثير من الموارد .

وكلمة (منارة) تعني الموضع المتخذ لاشعال الشموع ، او لاجل نشر

١ - التحقيق في كلمات القرآن ، المفردات ، مقاييس اللغة ، ولسان العرب .

نور المعنويات الذي يبثه (الاذان) الى مختلف الجهات .
(نور) ويطلق على براعم الاشجار وخاصة البيض منها لما فيها من نور
خاص منذ ظهورها .

جمع الآيات وتفسيرها :

القرآن وبرهان الصديقين^(١) .

تقول آية البحث الاولى بعد الاشارة الى الآيات التي تري الناس آيات
الله في الآفاق وفي الانفس والتي هي آيات دالة على حقانية وجود الله :
﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

يمكن ان تكون كلمة (شهيد) هنا بمعنى الشاهد أو الحاضر والمراقب،
أو تعني كلا المعنيين وذلك لصدقهما في الله سبحانه ، والآية المذكورة اعلاه
مطلقة من هذه الجهة .

واستناداً الى هذا التفسير يكفي لاثبات ذاته المقدسة ان يكون شاهداً
وحاضراً في كل مكان ، فكل موجود ممكن نجد الى جانبه ذات واجب
الوجود ، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً ، وكل ما وقع عليه نظرنا
وجدنا وجهه فيه ، ونحس بخضوع العظماء لعظمته ، وهو مصداق حديث
امير المؤمنين (عليه السلام) : (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه)^(٢) .

وفي تفسير الميزان أن (شهيد) تعني (مشهود) وبذلك يكون معنى الآية :

١ - قال البعض : إن تسمية هذا البرهان بـ (برهان الصديقين) لأن صديق هو صيغة مبالغة ويعني كثير
الصدق . صحيح ان الادلة الاخرى التي اوردناها لاثبات وجود الله صادقة بيد ان هذا البرهان اشد صدقاً
نظراً الى أننا نصل في البرهان من ذات الله سبحانه وتعالى الى الله ولا نسمع لغيره في هذا الطريق .
٢ - يعتقد الكثير من المفسرين بان الباء في (بربك) زائدة وتفيد التاكيد ، وقد حلت (ربك) محل الفاعل ،
وجملة (على كل شيء شهيد) هي بدل منه والجملة تعني (او لم يكفهم ان ربك على كل شيء شهيد) .

« أو لم يكف في تبين الحق كون ربك مشهوداً على كل شيء اذ ما من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته اليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الاشياء »^(١).

ونتيجة هذا التفسير هو اثبات وجود الله من الآية اعلاه ايضاً، ولكن عن طريق برهان الغنى والفقر.

يقول الفخر الرازي: « أولم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها، الدالة على التوحيد والتنزيه ... »^(٢) (وعلى هذا فالآية ناظرة الى اثبات وجود الله عن طريق برهان النظم).

ويرى بعض المفسرين ان الآية ناظرة الى قضية اثبات المعاد حيث يقولون:

« أو لم يكف بربك أنه شاهد على كل شيء . مما يفعله العبد وفي هذا كفاية لمحكمة يوم الجزاء »^(٣).

ويعتقد البعض الآخر ان الآية ناظرة الى حقانية القرآن الكريم ، نبوة الرسل ويقولون: « أو لم يكف ربك شاهداً ان القرآن من عند الله »^(٤)

ويبدو أن التفاسير الثلاثة الاولى من بين التفاسير الخمسة هذه والتي ترى ان الآية ناظرة الى قضية التوحيد واثبات وجود الله هي اكثر صحة ، ويبدو التفسير الاول منها اكثر انسجاماً مع معاني الالفاظ الواردة في الآية، وبذلك يكون شاهداً على (برهان الصديقين).

ونتهي هذا الكلام بحديث معتبر للامام الصادق (عليه السلام).

١ - تفسير الميزان: ج ١٧، ص ٤٠٥.

٢ - تفسير الفخر الرازي: ج ٢٧، ص ١٤٠.

٣ - تفسير القرطبي: ج ٨، ص ٥٨١٩.

٤ - راجع مجمع البيان: ج ٩، ص ٢٠.

عن منصور بن حازم قال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : إني ناظرت قوماً فقلت لهم : إن الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يُعرفون بالله ، فقال : رحمك الله ^(١) .

ومن الطبيعي ان هذا الكلام لا يتنافى ابداً مع استخدام برهان النظم وأدلة التوحيد وعظمة الله في موجودات العالم ، وفي الحقيقة فان برهان النظم في مستوى وهذا البرهان (برهان الصديقين) هو في مستوى أعلى وأرفع .

بزوغ الشمس دليل عليها :

في الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة الله سبحانه على وحدانيته ثم شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول : ﴿ شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم ﴾ وتضيف : ان ذلك يكون مع قيام الله سبحانه بالعدل وادارة العالم على محور العدل ﴿ قائماً بالقسط ﴾ .

وبما أن القيام بالقسط والعدل يحتاج الى أصليين هما : القدرة والعلم لكي تتحدد موازين العدل بالعلم اولاً وتطبق بالقدرة ثانياً ، اضافت الآية في ذيلها ﴿ لا اله الا هو العزيز الحكيم ﴾ .

والمراد من شهادة الملائكة وأولو العلم واضح ، ولكن ما هو المراد من شهادة الله ؟ هناك خلاف بين المفسرين ، حيث اعتقد البعض ان المراد هو الشهادة (الفعلية) و (القولية) أي أنه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته في عالم الوجود وفي الآفاق وفي الانفس من جهة ، وبأنزال آيات التوحيد في الكتب السماوية من جهة اخرى .

في حين ذكر البعض الآخر الشهادة القولية وحدها، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية، بيد أن مفهوم الآية يتضمن- بالتأكيد- شهادة أعلى وارفح من هذه، بل هي أهم مصداق للشهادة وهي أن ذاته شاهدة على ذاته كمصداق لما ورد: (يا من دل على ذاته بذاته) انه سبحانه افضل دليل على وجوده وهو الهدف الذي يقصده برهان الصديقين .

ولا مانع من اجتماع المعاني الثلاثة (الشهادة الذاتية والفعلية والقولية) في مفهوم الآية .

وقد استنتج البعض من عبارة (قائماً بالقسط) بأن آيات العدل والنظم والتقدير في عالم المخلوقات هي مصداق بين لشهادته سبحانه وتعالى على وحدانيته، وهو استدلال جيد (ولا ضير في انفصال الملائكة عن (اولو العلم) كما يشير اليه تفسير الميزان بهذا المعنى)، كما لا يمنع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلناه .

وكما اشير من قبل فإن القائم بالعدل يحتاج الى العلم والقدرة، وهاتان الصفتان موجودتان في ذاته المقدسة واتصاف الباري بـ (العزيز الحكيم) في ذيل الآية اشارة الى هذا المعنى الدقيق .



احاطة الوجود الالهي :

الآية الثالثة - بعد الاشارة الى الجيوش الجرارة التي واجهت انبياء الله وحاربتهم وذكر نموذجين متميزين احدهما في العصور القديمة وهم (قوم ثمود) و ثانيهما في العصور المتأخرة وهم (قوم فرعون) : ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ .

التعبير بـ (في) - ويستعمل عادة لبيان الظرف والمظروف - تعبير جميل وفيه اشارة الى ان الكفار غارقون في تكذيب الحقائق . والمراد من الكفار هم الكفار المعاندون في عصر النبي الاكرم (ﷺ) الذين كانوا ينكرون وحدانية الله سبحانه ونبوة رسول الاسلام (ﷺ) والمعاد كذلك ، ولا يستبعد ان تشمل الآية هؤلاء جميعاً ، لأن قوم فرعون وثمود الذين ذكروا من قبل كانوا كذلك ، كما أن استعمال (تكذيب) على صورة نكرة والذي يدل في مثل هذه الحوادث على الاهمية والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى .

ثم تقول الآية ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ .

التعبير بـ (ورائهم) اشارة الى أنهم محاطون من كل جهة ، والله محيط من كل جهة وجانب ، وقد وقع كلام بين المفسرين بشأن المراد من (الاحاطة الالهية) حيث احتمل البعض انها احاطة الله العلمية على اعمالهم ، واعتقد البعض الآخر انها احاطة القدرة حيث الجميع في قبضته ، وليس لهم القدرة على الفرار من عقابه ، وذهب البعض الآخر الى انها الاحاطة العلمية ، واحاطة القدرة معاً .

بيد أن مفهوم الآية أوسع مما ذكر حيث يشمل احاطته الوجودية ايضاً ، نعم ، لله تعالى احاطة وجودية لجميع الممكنات والكائنات ، وليست هذه الاحاطة - طبعاً - من قبيل احاطة الظرف بالمظروف (كأحاطة الحائط للبيت) وليست من قبيل احاطة الكل بالجزء ، بل هي (الاحاطة القيومية) ، أي أنه سبحانه وجود مستقل وقائم بالذات والموجودات الاخرى قائمة به وتابعة له .

وهذا المعنى يفتح الطريق امام برهان الصديقين في مسألة اثبات وجود الله ، وسنقدم شرحاً لذلك في المستقبل .

أنت الأول والآخر

تقول الآية الرابعة - وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات الله سبحانه بشكل عميق وواسع :- ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَمَوْبِ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ان هذه الصفات الخمس التي اجتمعت في الآية بيان جلي لذاته المقدسة اللامتناهية .

هو (الاول) اي هو الازلي دون أن تكون له بداية ، وهو (الآخر) أي الابدی الذي لا نهاية له ، وهو (الظاهر) أي البين دون ان يكون خافياً على احد ، وهو (الباطن) أي أن ذاته ليست ظاهرة لأحد (لعدم قدرة الموجودات المحدودة كالانسان على ادراك الحقيقة اللامتناهية) دون أن يكون محجوباً عن عباده .

ولذا فانه سبحانه عالم بكل شيء لانه موجود في البداية، وسوف يبقى حتى النهاية وحاضر في ظاهر العالم وباطنه .

وهناك تفسيرات متعددة ذكرها المفسرون في تفسير الصفات الاربع : (الاول) و (الآخر) و (الظاهر) و (الباطن) الا أنها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآية .

فتارة قالوا : انه الاول قبل وجود أي شيء وهو الآخر بعد هلاك كل شيء ، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن ادراك باطن ذاته .

وتارة قالوا : هو الأول ببرّه حيث هدانا، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبة ، والظاهر بأحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن في ستر عيوب العباد عند المعصية (الاول ببرّه اذ هداك والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر

بأحسانه وتوفيقه اذا أطعته، والباطن بستره اذا عصيته ^(١) وقد ورد أن النبي (ﷺ) كان يقول في دعائه : (اللهم أنت الاول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) ^(٢). على أي حال فان الآية اعلاه اضافة الى اثباتها - خلافاً لما تعتقده الصوفية - استقلالية الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق تبين هذه الحقيقة وهي أن ذاته المقدسة غير متناهية ومطلقة، اي هو وجود بلا عدم، ولو أننا تدبرنا حقيقة الوجود جيداً ونزهناه من العدم فسوف نصل الى ذاته المقدسة، وهذا جوهر برهان الصديقين وروحه.

ومن البديهي أن الموجود المحدود يكون موضعه إما في البداية أو النهاية، وإما في ظاهر الاشياء او باطنها، واتصاف الله سبحانه بانه الاول والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه.

هو نور العالم

في الآية الخامسة والاخيرة نقرأ في جملة قصيرة وغزيرة المعنى :
﴿الله نور السموات والارض﴾.

ويعقب هذه العبارة تشبيه جميل وجذاب لهذا النور الالهي بشكل ميداناً واسعاً لبحوث المفسرين الاعلام للقرآن، وبما ان الشاهد في هذا البحث هو العبارة الاولى، فأنا نشرع بتبيانها وشرحها :

من الطرق الهامة في تفهيم الحقائق المعقدة هو استعمال التشبيهات البليغة بغية تقريب الحقائق العلمية الى الذهن بضرب الامثلة الحسية، وهنا

١ - مجمع البيان، تفسير الميزان، تفسير الفخر الرازي، روح البيان.

٢ - تفسير القرطبي: ٩ / ٦٤٠٦.

قد استفيد من هذه الطريقة (وأن كانت الامثلة بشأن الله تعالى ناقصة لعدم وجود مثيل لذاته) ولأدراك حقيقة هذا المثال لابد من التدبر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته ، ولاريب في أن النور من اجمل الموجودات المادية والطفها وأكثرها بركة ، وتنتشر منه البركات والجمال في عالم المادة . فنور الشمس منبع الحياة والسر في بقاء الموجودات الحية والعنصر الفاعل في نمو النبات والزهور وجميع الاحياء .

النور هو المصدر الاساس للطاقات، نظير حركة الرياح ، وهطول الامطار، والعنصر الاساس في وجود المحروقات (البترول والفحم الحجري) ولو تبدل نور الشمس الى ظلام فسوف تتوقف كل حركة في العالم .

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها، هذا وان حركة الامواج والذرات الضوئية هي أسرع الحركات المتصورة في عالم المادة، حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) في الثانية، وهذا يعني أن النور يدور حول الارض سبع مرات كلمح البصر .

واخيراً فأن نور الشمس افضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف انواع الجراثيم الضارة وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية، وبملاحظة هذه الخصائص التي يتصف بها النور المحسوس يتضح عمق تشبيه ذات الله المقدسة بالنور .

نعم، إن وجوده تعالى هو النور الذي يظهر الوجودات ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية، يصدر كل جمال في العالم، وكل حركة نحو الكمال تنبع من وجوده المقدس ، وكل هداية تتحقق برعايته .

هو الذي يرفع الموانع عن طريق عبادته . وهو القائد للانسان في طريق الكمال والقرب لذاته ، وبكلمة واحدة كل ما في العالم قائم بذاته المقدسة .

والآن يطرح هذا السؤال نفسه : هل النور الذي يُظهر الأشياء يحتاج الى مظهر؟ وهل الموجودات التي يُظهرها النور تكون اكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفة له ؟

وبكلمة واحدة : ماهي الوسيلة التي يمكن مشاهدة النور بها غير النور نفسه ؟ وهذا هو الاساس في برهان الصديقين .

وقد ذكر المفسرون عدة احتمالات في تفسير هذه الآية لا تتنافى فيما بينها نظير الموارد الكثيرة الاخرى ويمكن الجمع بينها ، أي ان كل مفسر منهم لاحظ - في الحقيقة - الآية من زاوية معينة .

وقد قال الكثير بأن جملة ﴿الله نور السموات والارض﴾ تعني (المنور للسموات والارض) .

وقد فسرها البعض الآخر بـ (الهادي لمن في السموات والارض) تبعاً للرواية التي وردت عن الامام الرضا (عليه السلام) في هذا الشأن حيث قال :
(هادٍ لأهل الارض) أو (هادٍ لأهل السموات و هادٍ لأهل الارض)^(١) .

وفسرها البعض الآخر بمعنى الطاهر المنزه من كل عيب في جميع السماوات والارض .

وقُسِّرت البعض بمعنى التدبير لشؤون السماوات والارض .

وقُسِّرت بمعنى الاضاءة بواسطة الشمس والقمر والنجوم، وبواسطة الانبياء والملائكة والعلماء والمفكرين .

وقُسِّرت بمعنى المنظم للعالم العلوي والسفلي .

وقُسِّرت البعض بمعنى المفيض بالجمال على الكونين .

وقُسِّرت بمعنى خالق السموات والارض .

وكما اسلفنا فإن هذه المعاني موجودة في آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، بل إن الآية تنطق بما هو أعلى وأوسع ، حيث أن النور نير ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا يحتاج إلى مظهر آخر ، لأن الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء :

« كفى بك جهلاً بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث في الوديان بنور الشمع ، واعلم بأن الكون طراً من شعاع الحق » .



إيضاحات

١ - برهان الصديقين في الروايات الإسلامية والادعية :

هناك طريق آخر لمعرفة ذات الله المقدسة أقصر وأدق من البحث في موجودات العالم ، وهو معرفة الذات المقدسة بذاتها ، أي الوصول منه إليه ، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع في الروايات الإسلامية وادعية المعصومين ويشكل هذا المضمون جوهر برهان الصديقين .

ولا ندعي أن التعرف على ذاته عن طريق الموجودات في العالم غير ممكن ، كما لا ندعي بأن الآيات التي (في الآفاق والانس) ليست علائم على علمه وقدرته وعظمته فإن هذا المعنى جلي في القرآن كله ، ولكن نقول إن ثمة طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث في أصل الوجود والوصول إليه عن طريق ذاته المقدسة ، وهذا الطريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين غالباً ، فمثلاً :

١ - نقرأ في دعاء الصباح الشهير (يا من دل على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة

مخلوقاته) .

٢ - ونقرأ في دعاء ابي حمزة الثمالي المعروف (بك عرفتك وانت دللتني عليك).

٣ - وقد ورد في دعاء عرفة ايضاً (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك)؟!.

٤ - وورد في الدعاء نفسه (متى غبت - حتى تحتاج الى دليل يدل عليك، ومتى بعدت - حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً).

٥ - وقد ورد في حديث ان أحد اصحاب الامام الصادق (عليه السلام) واسمه منصور بن حازم قال له : اني دخلت في مناظره - مع جماعة وقلت لهم : (ان الله أجل وأكرم من ان يُعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله)، فقال له الامام الصادق (عليه السلام) مصداًقاً اياه : (رحمك الله) ^(١).

٦ - وقد ورد في حديث عن الامام امير المؤمنين قوله (اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، واولي الامر بالامر بالمعروف والعدل والاحسان) ^(٢).

٧ - وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما سأله أحدهم : بم عرفت ربك؟ فاجاب (بما عرّفني نفسه) ^(٣).

اجل ، انه معرّف ذاته (شروق الشمس دليل على الشمس) وذاته المقدسة دليل ذاته دون الحاجة الى معرّف ، وخفاؤه على البعض بسبب شدة ظهوره ، كالنور الذي لا يقدر الانسان على النظر اليه لو تجاوز حدّه . وكما قيل :
نور وجهك الحاجب عن ظهورك .



١ - اصول الكافي : ج ١ ، ص ٨٦ باب (انه لا يعرف إلا به) الحديث ١ .
٢ - اصول الكافي : ج ١ ، ص ٨٥ ، باب (انه لا يعرف إلا به) الحديث ٢ .
٣ - المصدر نفسه : الحديث ٢ .

٢- ايضاح برهان الصديقيين

من المناسب ان نفصل هذا البرهان كما يراه الفلاسفة الاسلاميون، وبالرغم من تعقيد البحث فانا سوف نبينه قدر الامكان بتعبيرات واضحة دون استعمال الاصطلاحات الفلسفية .

يجب قبل كل شيء ان يُنتبه الى ان مزايا برهان الصديقيين تتمثل في عدم التطرق الى الدور والتسلسل او معرفة المؤثر من خلال الاثر، ومن المخلوق الى الخالق، ومن الممكن الى الواجب في اثبات وجود الله ، بل هو تحليل للوجود نفسه وحقيقة الوجود ، وبذلك نصل اليه من ذاته ، وهذا هو المهم (وان لوحظ وجود خلط في عبارات البعض بين هذا الاستدلال واستدلال الوجوب والامكان وبرهان العلة والمعلول- كما بيناه في السابق- ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر)^(١) .

وقد ذكرت تعاريف مختلفة لبرهان الصديقيين (اولاً تقرير صدر المتألهين في الاسفار، ثم المحقق السبزواري في حاشية الاسفار، ثم المرحوم العلامة الطباطبائي في نهاية الحكمة ثم الآخرون في كتب اخرى) والبيان الاوضح والانسب دون الرجوع الى استعمال برهان الوجوب والامكان، والعلة والمعلول ولا يستند الى مسألة الدور والتسلسل أن يقال:

أن حقيقة الوجود هي (العينية) في الخارج ، وبتعبير آخر هي (الواقعية) وعدم قبول العدم ، لان كل شيء لا يتقبل ضده ، وبما ان (العدم) ضد (الوجود) فحقيقة الوجود - اذن - ترفض العدم .

من هنا نستنتج ان (الوجود) ذاتاً هو (واجب الوجود) اي ازلي ابدى،

١- راجع نهاية الحكمة: ص ٢٦٨ وشرح مختصر المنظومة: ص ٨ و ٩ للشهيد المطهري .

وبتعبير آخر ان التدبر في حقيقة (الوجود) يرشدنا الى ان (العدم) لا ينفذ اليه ابداً، وكل مالا يطاله العدم فانه واجب الوجود (تأمل جيداً).

واما عبارة صدر المتألهين - وهو من السابقين الى هذا الاستدلال - فيقول : (وأعلم ان الطرق الى الله كثيرة لانه ذو فضائل وجهات كثيرة، « ولكل جهة هو مولئها » لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض، وأشد البراهين وأشرفها اليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق الى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل (الصديقين) الذين يستشهدون به (تعالى) عليه، ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله، واحداً بعد واحد . وغير هؤلاء (كالمتكلمين ، والطبيعيين وغيرهم) يتوسلون الى معرفته (تعالى) وصفاته بواسطة اعتبار أمر آخر غيره (كالامكان للمهية ، والحدوث للخلق ، والحركة للجسم ، أو غير ذلك) وهي ايضاً دلائل على ذاته، وشواهد على صفاته، لكن هذا المنهج أحكم وأشرف .

وقد اشير في الكتاب الالهي الى تلك الطرق بقوله (تعالى) : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ والى هذه الطريقة بقوله (تعالى) : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم يضيف : وذلك لأن الربانيين ينظرون الى الوجود، ويحققونه ويعلمون أنه أصل كل شيء، ثم يصلون بالنظر اليه الى أنه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود، وأما الامكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فانما تلحقه لا لأجل حقيقته بما هي حقيقته، بل لأجل نقائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته^(١) .

١ - الاسفار: ج ٨ ص ١٣ و ١٤ (بتلخيص يسير)، كما ورد نظير هذا المعنى في حاشية الاسفار للمحقق السبزواري ج ٨ ص ١٤ (ط بيروت).

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقي نجد أنه لا يجتمع مع العدم ابداً، ولا يسمح للعدم أن يتطرق اليه وذلك لان الوجود والعدم متقابلان، وهكذا اذا لاحظنا العدم فانا نجده يطرد الوجود عن ذاته، وعليه فان حقيقة الوجود واجبة الوجود والعدم ممتنع الوجود.

والاشكال المهم الذي يتبادر الى الذهن والذي بادر صدر المتألهين للاجابة عنه في الاسفار هو أن كل موجود - وفق هذا الاستدلال - يجب أن يكون واجب الوجود، لأن هذا الاستدلال يجري في كل مورد في حين نرى ان الممكنات حادثة وليست ازلية ولا ابدية ولا واجبة الوجود.

الاجابة، لابد من الالتفات الى هذه النقطة وهي ان الوجودات الممكنة ليست وجودات اصيلة، بل هي وجودات محدودة ومصحوبة بالعدم وهذا العدم ناشيء من محدوديتها، وما يقال: ان الوجودات الممكنة تتركب من شيئين فانه يعني ان الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها، وعليه فان الوجود الممكن ليس وجوداً اصيلاً وحقيقياً، لان حقيقية الوجود هي عين الواقعية ولا سبيل لاي قيد أو شرط ونقصان اليها، ولهذا يكون الوجود الاصيل واجب الوجود حتماً.

ونقر - طبعاً - بان الوصول الى حقيقة هذا الاستدلال - بالرغم من هذه الايضاحات - يحتاج الى رياضة فكرية ودقة وتعمق كبير (تأمل جيداً).



(٥)

الطريق
الباطني لمعرفة الله
«الفطرة»

تمهيد :

(الادراكات العقلية) - كما نعلم - تشكل جزءاً من المضمون الروحي لدى الانسان ، أي أن الانسان لا يصل الى كل شيء عن طريق الدليل العقلي ، بل إن المتطلبات والمكتسبات الفطرية الغريزية تشكل جزءاً مهماً من المحتوى الروحي فيه ، حتى ان الاساس في الكثير من الادلة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية ، في حين تنشأ المتطلبات والمكتسبات في الحيوانات عن طريق الغريزة فقط .

وعليه فان الذين قاموا بتحديد الانسان بالبعد العقلي لم يعرفوا تمام الابعاد الوجودية للانسان في الحقيقة .

ومن المتفق عليه أن طريق الباطن طريق مهم في مسألة (معرفة الله) التي لها طرق لا تحصى ، والانسان هنا يسلك اقصر الطرق ، فبدلاً من (المعرفة) يصل الى (الوجدان) ، ومن (التفكير) الى (الرؤية) ، بدلاً من اعداد (المقدمات) يصل الى ذبيها .

انه طريق عظيم ، مثير ومريح .

وقد اعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعابير جميلة .

بعد هذا التمهيد نصغي خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الروم - ٣٠ .

٢ - ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ سورة الروم - ٣٣.

٣ - ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ سورة العنكبوت - ٦٥.

٤ - ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ غَاصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ سورة يونس - ٢٢ و ٢٣.

٥ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ سورة الزخرف - ٩.

٦ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَتَى يُوفَكُونَ﴾ سورة الزخرف :- ٨٧.

٧ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَتَى يُوفَكُونَ﴾ سورة العنكبوت - ٦١.

٨ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سورة يونس - ٣١.

٩ - ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ سورة المؤمنون - ٨٤ - ٨٩.

١٠ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ سورة الاعراف - ١٧٢.

شرح المفردات :

(فطرة) من (فَطَر) وتعني - كما أسلفنا - الشق طولاً ثم اطلق على كل شيء، والشق ربما يكون للهدم وربما للاصلاح ولذا يستعمل للمعنيين .
وبما أن (الخلق) بمثابة شق ستار العدم المظلم، يكون احد المعاني المهمة لهذه المفردة هو الايجاد والخلق ولنفس السبب يعطي معنى الابداع والاختراع ايضاً .

كما يطلق لفظ (الأفطار) على هدم الصيام لهذا الامر حيث ينشق الصيام (وهو فعل متصل ومستمر) بالاكل ونظائره .
كما يستعمل هذا اللفظ في نمو النباتات ايضاً وذلك لانشقاق الارض وخروج النباتات منها، كما يطلق على عملية استخراج اللبن من الضرع بأصبعين ، فكأنه ينشق ويخرج منه اللبن .

نقل عن ابن عباس قوله : لم اعرف معنى (فاطر السموات والارض) جيداً حتى جاء اليّ رجلان عربيان يتنازعان على بئر، فقال احدهما لاثبات ملكيته :

انا فطرتها بمعنى (انا حفرتها) ، هنا ادركت أن (فطرة) تعني الايجاد والابتداء في الشيء .

ويطلق على الحبوب التي تظهر في وجوه البنين والبنات اسم (تقاير)

او (نفاطير)^(١).

واعتبار بعض اللغويين مفردة (فطرة) بمعنى الدين والشرع انما هو لوجودها في خلقه الانسان كما سيأتي .



جمع الآيات وتفسيرها

الخلق الثابت والراسخ

الآية الاولى التي تصرح بأن (الدين) امر فطري وتخاطب النبي (ﷺ) : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾^(٢).

ومن أجل التعليل او التشجيع على هذا الامر تقول الآية بعد ذلك : ﴿ فِطَرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(٣).

وبما أن من المسلّمات وجود الانسجام بين (التشريع) و (التكوين) حيث لا يمكن وجود أمر متأصل في خلق الانسان غير منسجم مع سلوكه يمكن ان يكون هذا التعبير دليلاً على وجوب العمل باصل التوحيد ونفي كل شرك .

وللمزيد من التاكيد تقول الآية بعد ذلك : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ .

وهذا يعني ان ما يتجذّر في اعماق الوجود الانساني يستمر كأصل ثابت وراسخ- وكما سيتوضح لنا في الايضاحات- فان هذه الجملة لها معنى غزير

١ - لسان العرب ، مفردات الراغب ، نهاية ابن الاثير ، ومجمع البحرين .

٢ - (حنيف) من (حنف) ويعني كل ميل او انحراف وجاء بمعنى الميل من الضلال الى الصديق ، ومن الباطل الى الحق والتعبير بـ (وجه) هنا كناية عن الذات ، لان الوجه اهم عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامة كحاسة البصر والسمع والذوق والشم .

٣ - توجد اقوال كثيرة حول تعليل النصب في (فطرة الله) ومنها انها بتقدير (اتبع) و (الزم) .

وأعجازي حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجريها المفكرون الى ان العلاقات الدينية في التاريخ هي من أشد العلاقات الانسانية تجذراً وستبقى راسخة .

يُبد أن فئة جاهلة وغافلة تقوم بافساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك، ولذا يؤكد القرآن على المحافظة عليها بذكر كلمة (حنيفاً)^(١) .

وللمزيد من التأكيد تضيف الآية ﴿ ذَلِك الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

كلمة (قيم) من (قيام) واستقامة بمعنى الثابت والراسخ والمستقيم كما جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش في الانسان^(٢) .

وبما أن الكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة ويبتلون بأنواع من عبادة الاصنام ، تقول الآية في ذيلها ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ الجدير بالذكر على ان الفطرة التي جاءت في الآية لا تشمل التوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع اصوله وفروعه وسنتطرق اليها في التوضيحات انشاء الله تعالى .

عند مواجهة الأزمات :

في الآيات الثانية والثالثة والرابعة التي يدور البحث حولها (وبتعابير مختلفة) اشارة الى قضية عامة وهي أن الانسان حينما يواجه الصعاب والبلاء الشديد ويعجز عن استخدام الوسائل الطبيعية يلجأ الى فطرته الاصلية فيشرق في اعماق قلبه نور المعرفة الالهية بعد اختفائه ، ويتذكر مبدأ العلم والقدرة الذي لا نظير له والذي يسهل عليه حلّ المشكلات كلها .

تقول الآية في موضع : ﴿ واذا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ .

١ - يقول بعض المفسرين بان (لا) في ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ نافية وتعطي معنى النهي (مجمع البيان والميزان وتفسير ابي الفتوح الرازي) ولكن كما قلنا فان النفي انسب واجمل (فتأمل جيداً) .

٢ - مفردات الراغب وكتب لغوية اخرى .

ولكن بعد سكون الاعاصير وهبوب رياح الرحمة ، فان مجموعة منهم يشركون ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاتَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرَّقَ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وفي موضع آخر يذكر هذا المعنى مقرونا بذكر مصداق واضح عن الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية : ﴿ فَاذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ وأحاطت بهم الامواج العظيمة والاعاصير المخيفة وامتلأت قلوبهم رعباً وهلعاً « دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقد أشارت آية اخرى الى اخطار البحر هذه ، بصورة جميلة أخرى حيث تقول بأن الله هو الذي يُسِيرُكُمْ في الصحاري والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرككم الرياح الطيبة الهادئة الى اهدافكم والجميع يغمرهم الفرح والسرور ، وفجأة تهبّ الأعاصير ويهيج البحر وتأتي الامواج من كل جهة نحو الراكبين في السفينة حتى يروا الموت باعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذكرون الله فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على ان يكونوا شاكرين له اذا نجاهم من الهلاك (شكراً مصحوباً بالمعرفة) :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئنِ انْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

ولكن هؤلاء عندما ينجيهم الله من الاخطار الموحشة ويوصلهم الى ساحل الامان ينسون عهدهم مع الله فيشرعون مرة اخرى بالظلم بدون حق فيسلكون طريق الشرك وهو من اعظم الظلم ويظلمون الذين تحت ايديهم مغرورين بالنعمة التي هم فيها : ﴿ فَلَمَّا انْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

كما يلاحظ هذا المعنى في آيتين اخريين ، ففي موضع تقول الآية :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾^(١) وفي موضع آخر تقول الآية : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴾^(٢).

هذه الآيات الخمس مع انها تقصد حقيقة واحدة، بيد أن كل آية تتمتع بخصوصية ولطافة ولحن خاص، ففي آية ذكر لأنواع الاضرار والمشكلات والاذى وهذه تشمل انواع الامراض والبلاء والقحط والآفات والمشكلات . وفي آية اخرى اشارة الى اخطار البحر فقط (من قبيل الاعاصير والامواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة فيه والضلال عن الطريق وامثالها) .

وفي آية اخرى تركيز على اخطار الاعاصير والامواج .
وفي آية اخرى حديث عن سير، الانسان في طريق الشرك بعد ذلك .
وفي آية اخرى ذكر لطريق البغي والظلم الذي له مفهوم اوسع من الشرك .

وفي آية اخرى اشارة الى انهم يعتبرون المشكلات ناشئة من الله اما النعم فانها منهم ، ونقرأ في آية انهم يشركون باجمعهم وتذكر آية اخرى فئة منهم وذلك لاختلاف المجتمعات البشرية فبعضها من الفئة الاولى وبعضها من الفئة الثانية .

وتقول آية اخرى انهم يعاهدون الله عند البلاء عهداً ينسونه عند استقرار الاوضاع، وفي آية اخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من الله تعالى .

١ - سورة الزمر: الآية ٤٩ .

٢ - سورة يونس: الآية ١٢ .

وتقول آية أخرى: انهم اذا اصابهم شيء من الضرر (التعبير بـ «مس» فيه اشارة الى هذا المعنى)، ولكن في آية أخرى انهم عندما ينتابهم اليأس من الحياة يقبلون على الله، ولعل هذا الاختلاف اشارة الى مختلف افراد البشر حيث يكون البعض من القسم الاول والبعض الآخر من القسم الثاني وقد ذكرت كلمة (الاخلاص) في الكثير من الآيات، حيث تشير الى رفض كل معبود سوى الله الواحد وتدلّ على انهم حين الدعة والراحة يعبدون الله ايضاً، ولكنهم يعبدون معه انداداً له وهي التي ينسونها وتختفي عند ظهور الامواج العاتية او الاعاصير الموحشة، ويغمر نور التوحيد والوحدانية قلوبهم ويضيء وجودهم.

وجاء في تفسير (روح البيان) ان عبدة الاوثان في الرحلات البحرية (التي كانت مفعمة بالاعطار دائماً وكانت اشد في العصور القديمة لعدم تيسر الادوات اللازمة) كانوا يحملون الاصنام معهم وعند حدوث الاعاصير العاتية يلقون بها في البحر ويصرخون يارب يارب!!^(١).

والأعجب انهم كانوا يسمعون من النبي (ﷺ) جميع الادلة المنطقية، الناصعة، لكنهم لم يؤمنوا، في حين كانوا يقبلون على الله بكل وجودهم عندما تهاجمهم الاحداث العاصفة، وهذا مما يشير الى ان طريق الفطرة أوضح وأيسر للكثير من الناس من الطرق الاخرى.

وجدير ذكره ان القرآن الكريم يحذّر الذين يستجيبون لنداء الفطرة عند المشكلات وينسونه عند ارتفاعها، ويلفت انظارهم ببيان جميل بقوله ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا

لَكُمْ وَكَيْلًا ﴿^(١) .

هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر للبر؟ ! أم ان الله مقتدر في البحر ولا قدرة له في البر؟ ! انه قادر بأمر واحد للارض ان تفتح فاها بزلزالتها لتبلع مدنكم ولا يبقى من خرائبها شيئاً^(٢) .

وقد حدث مراراً أن تهب الاعاصير وتحمل الحصى والرمال الى السماء وتلقيها في نقاط اخرى ، وقد تطمر تحتها قافلة بأكملها

الله الذي يأمر الامواج في البحار - اذن - قادر على أن يتخذ من الاعاصير والزلازل في الصحارى جنوداً يهلك بهم الفاسدين

ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول :

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ قَيَّرَ سِلَّ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾^(٣) .

أي أنكم تظنون أن هذه هي رحلتكم البحرية الاخيرة ؟ انه خطأ كبير .

إقرار المشركين :

وتتضمن الآية الخامسة حتى التاسعة من آيات البحث حديثاً عن هذا

المضمون :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وأيضاً: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

وايضاً: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ

١ - سورة الاسراء : الآية ٦٨ .

٢ - قبل عدة سنوات وقع زلزال في شمال افريقيا وفيه ابتلعت الارض قرية كاملة ولم يعثروا حتى على خرائبها !

٣ - سورة الاسراء : الآية ٦٩ .

يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فيقولون الله ۞ .
ولو انهم - عبدة الاوثان - سألوا عن خلق كل فرد من المخلوقات وتدبير
امورها فانهم يقرّون بأن الله وحده هو الخالق والمدبّر!!
ان هذه الآيات القرآنية وامثالها^(١) من التعابير الحية عن التوحيد
الفطري ، ومن الممكن ان تكون هذه الاجابة المتناسقة نتيجة للاستدلال
العقلي ايضاً وذلك عن طريق برهان النظم ، ولكن بملاحظة ان المشركين
العرب اناس اميون ويعيدون عن العلم والفكر والاستدلال ، فان هذا التناسق
في الاجابة يدل على انها كانت تنبع من فطرتهم وهم في ذلك سواء وبدون
استثناء ، وإلا فان الاستدلالات العقلية مهما كانت واضحة فانها لا يمكن أن
تكون شاملة وعامة الى هذه الدرجة وخاصة بين جماعة بعيدة عن العلم
والفكر.

من هنا فأتينا نعتقد ان الآيات الخمس أو امثالها تشكل ادلة على التوحيد
الفطري .

ولذا يقول صاحب تفسير (روح البيان) في ذيل الآية ٩ من سورة
الزخرف :

«وفي الآية اشارة الى ان في جبلة الانسان معرفة لله مركوزة»^(٢) .

وفي تفسير (الفخر الرازي) في ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف عرض
لهذا المضمون على صورة سؤال وجواب فيقول (ظن قوم أن هذه الآية
وامثالها في القرآن تدلّ على أن القوم مضطرون الى الاعتراف بوجود الاله
للعالم ، وقوم إبراهيم قالوا : ﴿وانا لنفي شك مما تدعوننا اليه ۞ فيقال لهم : لانسلم
ان قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الاله ، والدليل على قولنا ، قوله تعالى :

١ - الآية ٦٣ من سورة العنكبوت ، والآية ٢٥ سورة لقمان ، والآية ٣٨ سورة الزمر .

٢ - روح البيان: ج ٨ ، ص ٣٥٣ ، وفي ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف ايضاً اشارة الى هذا المعنى ايضاً .

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر﴾ فالقراءة بفتح التاء في علمت تدل على ان فرعون كان عارفاً بالله، وأما قوم ابراهيم حيث قالوا: ﴿وانا لفي شك مما تدعوننا اليه﴾ فهو مصروف الى اثبات القيامة واثبات التكاليف واثبات النبوة^(١).

وفي التعبير بـ (لقد علمت) اشارة واضحة الى هذا المعنى.

والطريف أن آيتين من هذه الآيات تذكran في النهاية بعد أخذ الاقرار من الكفار والمشركين بأن الله هو الخالق للانس والارض والسموات ﴿فأنى تؤفكون﴾^(٢).

وبناء الجملة للمجهول إشارة الى أن ذواتهم تسير في طريق الفطرة، غير أن اسباباً خارجية وهي (شياطين الجن والانس)، وأسباباً داخلية وهي (أهواء النفس والعصبية الجاهلية) تحرفهم عن الحق رغم تجذره في اعماق فطرتهم. في حين جاء التعبير في موضع آخر بـ ﴿فأنى تُسحرون﴾ بصيغة المبني للمجهول، وهي عبارة تطلق على من يتبع امراً دون ارادة.

ويوجد احتمال آخر في تفسير هذه الآيات وهو أنهم كانوا يقولون بأن رسول الاسلام (ﷺ) يريد أن يحرفنا عن طريق الحق أو أنه ساحر قد سحرنا. فرد عليهم القرآن: مع أنكم تقولون بأن الله هو خالق السماء والارض والشمس والقمر والبشر، وهو المدبر لهذا الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم الى عبادته ونبذ عبادة غيره؟ أي عقل يحكم بهذا؟!!

إن الكثير من المفسرين ومنهم (الطبرسي في مجمع البيان والعلامة

١- التفسير الكبير: ج ٨، ص ٣٩٩ وج ٢٧، ص ٢٣٣.

٢- تؤفكون مشتق من (الإفك) ويعني الارجاع والحرف ولذا يطلق (الافك) على الكذب ايضاً كما تطلق (المؤفكات) على الرياح المعارضة.

الطباطبائي في الميزان والفخر الرازي في التفسير الكبير والآلوسي في روح المعاني والقرطبي في تفسيره) اختاروا التفسير الاول وإن لم يبعد التفسير الثاني عن مفهوم الآية .



عهد عالم الذر

الآية العاشرة والاخيرة في هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد الفطري ولا نظير لها في الآيات القرآنية الاخرى ، وبسبب المحتوى المعقد لهذه الآية دارت أحاديث مطولة بين العلماء والمفسرين والمتكلمين وارباب الحديث ، نورد - بصورة اجمالية - آراءهم المختلفة ثم رأينا المختار بعد الفراغ من تفسيرها .

تقول الآية الكريمة : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا جميعاً : ﴿بلى شهدنا﴾ وتُضيف الآية بأنَّ الله تعالى فعل ذلك لثلا يقولوا يوم القيامة إنا غفلنا عن هذا الأمر (وهو التوحيد ومعرفة الله) ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أو يتشبثوا بحجة (التقليد) بدلاً عن حجة (الغفلة) وتقولوا : ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة اجمالية ، منها :

- ١ - أنَّ الله تعالى أظهر جميع ذرية آدم الى يوم القيامة في مرحلة من الخلق .
- ٢ - أنَّ الله سبحانه أشهدهم على أنفسهم وأخذ الاقرار منهم بربوبيته .
- ٣ - استهدف أخذ الإقرار والاعتراف والشهادة أمرين :

اولاً: عدم السماح للمشركين لإدعاء الغفلة والجهل عن حقيقة التوحيد

ووحداية الله يوم القيامة .

وثانياً: منعهم من اتخاذ التقليد لأبائهم ذريعة لارتكاب المعاصي .

وأهم سؤال يُطرح هو: متى وقع هذا (الظهور)؟ وبأيّة صورة تم ذلك؟
ومالمراد من (عالم الذر)؟ وكيف تحقق هذا الأمر؟ هناك ستة أقوال على الأقل
للإجابة عن هذا السؤال، وقد أيد كل واحد منها جماعة من المفكرين
الاسلاميين:

١ - طريق المحدثين وأهل الظاهر حيث يقولون: أنّ المراد هو ماورد في بعض
الاحاديث من أنّ ذرية آدم بأجمعهم قد خرجوا من ظهره على شكل ذرات
دقيقة وملؤا الفضاء وكانت تتمتع بالعقل والاحساس والقدرة على النطق،
فخاطبهم الله عز وجل وسألهم: (أست بربكم؟) فقالوا جميعاً: (بلى)؛ وبذلك
أخذ العهد الأول على التوحيد. وكان بنو الانسان بأنفسهم شاهدين على
ذلك^(١).

٢ - المراد من عالم الذر وتفسير الآية اعلاه هو الذرات الاولى لوجود الانسان
أي النطفة التي انتقلت من ظهور الآباء الى ارحام الأمهات وتبدلت في
المراحل الجنينية الى صورة انسان كامل تدريجياً وقد اعطاها الله عز وجل في
ذلك الحال القوى والقابليات المختلفة كي تدرك حقيقة التوحيد ومنهاج
الحق، وقد جعل هذه الفطرة التوحيدية ملتزمة بوجوده .

يذهب الى هذا التفسير جمع من المفسرين كصاحب تفسير (المنار)
(في ظلال القرآن) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسرين^(٢).

١ - يقول العلامة المجلسي في شرح أصول الكافي (مرآة العقول) عن هذه الحقيقة: (طريقة المحدثين
والمشهورين فانهم يقولون نؤمن بظاهرها ولا نخوض فيها، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل) الجزء ٧، ص
٣٨ والفخر الرازي ينسب ذلك الى المفسرين والمحدثين (الجزء ١٥، ص ٤٦).

٢ - تفسير المنار: ج ٩، ص ٢٨٧ (تعبيره ينسجم مع القول الخامس)، في ظلال القرآن ج ٣، ص ٦٧١.

بهذا يكون (عالم الذر) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القال ؛ ولهذا الامر شواهد ونظائر كثيرة وردت في كلمات العرب وغيرهم ؛ كما ينقل السيد المرتضى في كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول : « سَل الأرض من شَقَّ انهارك وغرس اشجارك وجنى ثمارك ؟ فإن لم تُجبك حواراً أجابتك اعتباراً » .

هذا القول يشابه ما ذكره جمع من المفسرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعمّان موجودات العالم حتى الجمادات ايضاً .

٣ - المراد من (عالم الذر) هو (عالم الأرواح) ويعني ذلك أنَّ الله عز وجل خلق في البداية ارواح البشر قبل اجسادهم ، وخاطبها وأخذ الإقرار منها على وحدانيته .

وقد استخلص هذا التفسير من بعض الروايات كما سنشير اليه .

والجدير ذكره أنَّ كلمة (ذرية) في آية البحث مشتقة من (ذر) وهي تعني ذرات الغبار الدقيقة ، أو النمل الدقيق أو أجزاء النطفة أو من (ذرو) ويعني التفريق أو من (ذؤه) ويعني الخلق .

بناءً على ذلك لانسلم بأن الاصل في (ذرية) هو (ذر) بمعنى الاجزاء الدقيقة (فتأمل جيداً) .

٤ - إنَّ هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين الله عز وجل بواسطة الانبياء وبلسان القال حيث استمع جمع من البشر الى ادلة التوحيد - بعد ولادتهم واكتمال عقولهم - من الانبياء واستجابوا لها وقالوا (بلى) .

فإن قيل إنَّ ذرية مشتقة من (ذر) وتعني الاجسام الصغيرة جداً فلا تنسجم مع هذا المعنى ، فيرد اصحاب هذا القول : بأنَّ أحد المعاني المعروفة لـ (ذرية) هو الابناء - صغاراً وكباراً - وأنَّ اطلاق (ذرية) على العقلاء والبالغين في

القرآن الكريم ليس بالقليل .

وقد ذكر السيد المرتضى (رحمته الله) هذا التفسير - في بعض كلماته - على شكل احتمال في ايضاح الآية المذكورة ، كما أنّ أبا الفتوح الرازي قد أورد هذا التفسير كأ احتمال في تفسيره اضافة الى وجود اشارة الى ذلك في تفسير الفخر الرازي في ذيل الآية ^(١).

٥ - ان هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل ، فكل انسان يقرّ بعد اكتمال عقله ومشاهدته لآيات الله في الآفاق والأنفس بوحداية الله بلسان حاله ، وكأن الله عز وجل يسألهم بإراءة هذه الآيات «ألست بربكم» ؟ فيجيئون بلسان الحال : «بلى» ، وأما الحديث بلسان القول فإن له شواهد ونظائر كثيرة .

وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسي (رحمته الله) في التبيان عن البلخي والرماني ^(٢).

٦ - وهو التفسير الذي اختاره العلامة الطباطبائي (رحمته الله) في (الميزان) : بعد أن ذهب الى استحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابقاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد اخذ الله منهم العهد على وحدانيته ثم اعادهم الى حالتهم السابقة كي يجتازوا مسيرتهم الطبيعية ، وبذلك يأتون الى الدنيا مرتين فقال: وأثبت بقوله : «إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء» ^(٣)، وقوله «وما أمرنا الاّ واحدة كلمح بالبصر» ^(٤). ان هذا الوجود التدريجي للأشياء ومنها الإنسان هو امر من الله يفيضه على الشيء ويلقيه اليه بكلمة

١ - تفسير أبي الفتوح الرازي : ج ٥ ، ص ٣٢٦ .

٢ - تفسير التبيان : ج ٥ ، ص ٢٧ (وفي تفسير المنار تعبير يقرب من هذا المعنى ج ٩ ، ص ٣٨٦) .

٣ - سورة يس : الآية ٨٣ .

٤ - سورة القمر : الآية ٥٠ .

(كن) إفاضة دفعية والقاء غير تدريجي ، فلوجود هذه الاشياء وجهان ، وجه الى الدنيا وحكمه ان يحصل بالخروج من القوة الى الفعل تدريجاً ، ومن العدم الى الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثم لايزال يتكامل حتى يفنى ويرجع الى ربه ، ووجه الى الله سبحانه وهو بحسب هذا الوجه امور تدريجية وكل مالها فهو لها في اول وجودها من غير أن تحتل قوة تسوقها الى الفعل ... وبعبارة اخرى : ان الموجودات لها نوعان من الوجود ، الاول : الوجود الجمعي عند الله تعالى والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالملكوت ، والآخر : الوجودات المتناثرة التي تظهر تدريجياً بمرور الزمان .

وبهذا تكون حياة الانسان في الدنيا مسبقة بحياة انسانية اخرى لا يكون فيها أحد محجوباً عن الله تعالى ، وقد شاهده هناك كل موجود بالشهود الباطني وأقرّ بربوبيته .

ثم يضيف (ره) : لو دققنا في الآيات الآتية الذكر لرأينا أنها تشير الى هذا المعنى .

بعد اتضاح التفاسير الستة بصورة اجمالية نشرع بنقدها ودراستها :

القول الاول هو اضعف الاقوال لدى الكثير من المحققين ، ووجهوا اليه أغلب الاشكالات ، حيث اشكل عليه الطبرسي في (مجمع البيان) والسيد المرتضى - كما نقله العلامة المجلسي في مرآة العقول - كما ان الفخر الرازي أورد (١٢) اشكالات على هذا القول ! غير أن بعضها ليس جديراً بالاهتمام وبعضها مكرر أو قابل للاندماج مع غيره ، وبصورة عامة تتوجه خمسة اشكالات الى هذا القول :

أ - إنَّ هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة (بني آدم) أبداً ، وكذلك مع ضمائر الجمع في الآية ، وكلها تتحدث عن بني آدم لا آدم نفسه . كما لا يتطابق مع لفظة « ظهور » جمع « ظهر » ، والخلاصة هي أن الآية تقول : ان « الذرية » ظهرت من ظهور « بني آدم » لا من ظهر « آدم » ، في حين أن الروايات تدور حول

نفس آدم .

ب - لو صح أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا النسيان العام دليل على استبعاد هذا التفسير، لأن المستفاد من الآيات القرآنية هو أن البشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمني بين عالم الذر والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

ج - لو سلمنا - فرضاً - بأن هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الذر، ولكن النتيجة هي عليه هذا العهد، لأنه يكون مؤثراً حينما يتذكره الناس، أما ما ينساه كافة البشر فانه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجة وسد باب الاعذار.

د - يستفاد من الآية ١١ من سورة المؤمن ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أن للبشر موتتين وحياتين (حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثم يموتون ثم يحيون يوم القيامة) في حين يكون لهم - وفق هذا التفسير - أكثر من موتتين وحياتين: (موت وحياة في عالم الذر وموتان وحياتان آخران).

هـ - يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأننا نعلم بأن التناسخ ليس إلا حلول روح واحدة في جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإن الروح الاولى تعلقت أولاً بالذرات الدقيقة جداً والتي خرجت من ظهر آدم ثم خرجت لتتعلق بالاجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ.

ويطлан التناسخ هو من المسلمات في الدين، ولذا فإن الشيخ المفيد في كتابه (جواب المسائل السرويه) عندما يذكر التفسير اعلاه مقروناً ببعض الروايات يضيف: هذه اخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحق

والباطل^(١).

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسرين الطبرسي (رحمته الله)^(٢).
وسنلاحظ بإذن الله لدى مطالعة اخبار عالم الذر أن الاخبار الدالة على
هذا التفسير معارضة باخبار اخرى.



وأما القول الثاني الذي يتحدث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية
الخاصة لمعرفة الله في عالم الرحم فإنه اقل الأقوال إشكالاً، والاشكال الوحيد
الذي اوردوه عليه هو أن ظاهر الآية المبحوث عنها هو أن السؤال والجواب
جاء بلسان القائل لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً الى ان
جملة (أخذ) دليل على أن هذا الامر قد أخذ في الماضي، في حين أن فطرة
التوحيد للجنة هي أمر مستمر ويتحقق في كل زمان، والأشكالان يمكن
الاجابة عليهما وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع
القرينة، وقد كثر ذلك في اللغة العربية نثراً وشعراً و...، والاشكالات المهمة
التي ترد على التفسير الاول قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضي
قد يستعمل في الاستمرار ايضاً، وهذا - طبعاً - يحتاج الى قرينة ايضاً، وهذه
القرينة موجودة في موضوع البحث^(٣).

اما التفسير الثالث القائل بأن المراد هو: سؤال الارواح فإنه لا ينسجم مع

١ - مرآة العقول: الجزء ٧، ص ٤١.

٢ - مجمع البيان: ج ٤، ص ٤٩٧.

٣ - شوهدت هذه العبارة كثيراً في الآيات القرآنية: «انه كان عليماً قديراً» (فاطر: ٤٤)، «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً» (الشورى: ٥١)، «بل كان الله بما تعملون خبيراً» (الفتح: ١١) «وكان الله عزيزاً حكيماً» (الفتح: ١٩).

آية البحث ابدأ، لأن الآية تتحدث عن أخذ الذرية من ظهور بني آدم ولا يرتبط هذا بقضية الارواح .

واما التفسير الرابع القائل بأن السؤال والجواب كان بهذا اللسان الطبيعي ويرتبط بمجموعة من البشر قد سُئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الانبياء عن مسألة التوحيد واجابوا بالإيجاب عليه ، فإن عليه اشكالات رئيسة منها :
إن الآية تتحدث عن جميع البشر لا مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أولاً ثم كفروا ، مضافاً الى أن ظاهر الآية هو كون السؤال من قِبَلِ الله لا من قبل الانبياء .

ولا يصح ما يظنه بعض من ان جملة (إنما اشرك آبائنا من قبل) دليل على أن الآية تقصد المجموعة التي أشرك آبائها ، لأن الآية تذكر عذرين غير موجَّهين للكفار ، الاول هو الغفلة والثاني التقليد للآباء المشركين .
ويمكن أن يكون كل عذر لمجموعة خاصة وأنها معطوفان بكلمة (أو) .

وأما التفسير الخامس فإنه يشابه التفسير الثاني من جهات مع وجود فارق وهو: أن التفسير الثاني يتحدث عن الفطرة القلبية ، بينما يتحدث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإن هذا التفسير قد مال اليه كثير من المفسرين الاعلام .

وأما التفسير السادس الذي ورد في (الميزان) فإنه يواجه إشكالين كبيرين ، الاول : هو اثبات عالمين (عالم جمعي وعالم تفصيلي) ولا دليل واضح لهما حسب ماورد من البيان والثاني : ان تطبيق الآية على هذا العالم (بافتراض ثبوته) يبدو بعيداً جداً ولا يسلم اصل القضية وفرعها من الايراد .

حصيلة البحث عن عالم الذر

نصل مما ذكر الى هذه النتيجة وهي : أن التفسير الثاني والخامس - بعد الدراسة الدقيقة - هما اقل التفاسير إشكالاً، واما الاشكال الوارد في أنه يخالف الظاهر في بعض الجهات فإنه يمكن التغاضي عنه مع توفر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك في اللغة العربية وغيرها، ولذا فإن الكثير من المفسرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد اختاروهما، كما تتضمن الروايات اشارات واضحة الى هذا المضمون وسيأتي ذلك في البحث المقبل باذن الله . وباختصار: إن اغلب المحققين يعتقدون بأن هذا السؤال والجواب الإلهي قد تم مع جميع البشر وبلسان الحال لا القول، أو عن طريق الاستعداد الفطري المودع في الجنين أو عن طريق الاستعداد العقلي الذي اوجده فيهم بعد البلوغ والكمال العقلي، احدهما يتحدث عن الفطرة القلبية (دون الحاجة الى استدلال) والثاني يتحدث عن الفطرة العقلية التي تعتبر معرفة الله من البديهيات العقلية، حيث أن دلائله من الوضوح ما يجعل كافة البشر يدركون ذلك. صحيح أن مجموعة من البشر ينكرون ذلك بلسان القول ويؤيدون المادية، ولكننا حينما نحلل كلامهم نراهم يجعلون للمادة والطبيعة نوعاً من العقل والاحساس، وبعبارة أخرى انهم اطلقوا كلمة (الطبيعة) على (الله)، ونعتقد أن الإشارة الى الفطرة القلبية هي الانسب (فتأمل جيداً).

ايضاحات

١ - (عالم الذر) في الروايات الاسلامية :

إنَّ المصادر الاسلامية (السنيّة والشيعية) تتضمن روايات جمّة عن (عالم الذر) تبدو وكأنها روايات متواترة، فمثلاً يتضمن تفسير نور الثقلين (٣٠) رواية، وتفسير البرهان (٣٧) رواية ولعلها تتجاوز الاربعين في مجموعها (مع حذف المكررات)، كما يتضمن تفسير (الذر المنثور) روايات عديدة، مما يشير الى أن مضامين الروايات لا تنحصر في مذهب اسلامي خاص.

غير أن كثيراً منها منقولة عن راوٍ واحد ولذا يشملها حكم الخبر الواحد (يلاحظ أن كثيراً منها مروي عن زرارة، وعدداً منها عن ابي بصير، وبعضاً منها عن جابر، كما تلاحظ روايات عن عبد الله بن سنان وصالح بن سهل) وبهذا ينخفض كثيراً العدد الواقعي للروايات.

هذا وإن مضامين هذه الروايات متباينة تماماً فبعضها يتفق مع التفسير الثاني القائل بأن هذا العهد عهد فطري ويرجع الى ايداع المعرفة الفطرية في الانسان نظير الرواية التي ينقلها عبد الله بن سنان عن الامام الصادق (عليه السلام): «قال: سألته عن قول الله عز وجل (فطرة الله التي فطر الناس عليها) ماتلك الفطرة؟، قال: هي الاسلام، فطرهم الله حين اخذ ميثاقهم على التوحيد، قال (أأست بربكم) وفيه المؤمن والكافر»^(١).

وكما تلاحظ فإن الحديث يتضمن بياناً عن الارتباط الوثيق بين آية (الفطرة) وآية (عالم الذر)، وقد روى زرارة هذا المعنى بعبارة اخرى عن الامام الصادق (عليه السلام)، فإنه عندما سأل الامام (عليه السلام) عن تفسير الآية (واذ اخذ ربك...)

اجابه (عليه السلام): «ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف، ويذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر احد من خالقه ومن رازقه؟»^(١).

في حين ان بعضاً آخر من الروايات يتفق مع التفسير الاول حيث تذكر أن ذرية آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرات، وقد أخذ الله هذا العهد منهم بلسان القال، كالروايات التي وردت في تفسير البرهان المرقمة ب: ٣، ٤، ٨، ١١، ٢٩ (وقد روى زرارة هذه الروايات عن الامام الباقر (عليه السلام) وهي - في الحقيقة - رواية واحدة).

وقد ورد هذا المعنى في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس بطرق متعددة ولكن يطول ذكرها وهي ذات مضمون واحد في الحقيقة وتتلخص في حديث واحد عن ابن عباس وليس عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله)، وفي كتب اخرى نقل هذا المعنى بطرق اخرى.

والاشكال المهم الذي يرد على هذه الاحاديث هو أنها مخالفة لظاهر وصريح كتاب الله لأنها تقول بأجمعها: أن ذرية آدم خرجت من ظهر آدم على صورة ذرات، في حين يقول القرآن الكريم بان الذرات هذه خرجت من ظهور بني آدم ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾.

واضافة الى ذلك فإن ثمة اشكالات عديدة اخرى ترد على مضامين هذه الاحاديث تمت الاشارة اليها وتجعلها في المجموع في عداد الاحاديث الضعيفة.

والمجموعة الثالثة من الاحاديث مبهمة وتلائم التفاسير المختلفة، مثل الحديث الذي يرويه ابو بصير عن الامام الصادق (عليه السلام) حيث سأله: كيف اجابوا وهم ذر؟! فقال (عليه السلام): «جعل الله فيهم ما اذا سألهم اجابوه، يعني في

الميثاق»^(١).

وهناك مجموعة رابعة من الاحاديث تقول بأن هذا السؤال والجواب قد جريا مع ارواح البشر، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط، كرواية المفضل بن عمر عن الامام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «قال الله عز وجل لجمع ارواح (بني آدم) ألسن بربكم؟ قالوا: بلى»^(٢).

كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أن الله سبحانه اوقف الارواح البشرية في ذلك اليوم على نفس الهيئة التي تخلق عليها وأخذ منها العهد^(٣). بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السند في كثير منها، لا يمكن الاعتماد عليها كمستمسك معتبر ابداء، والافضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك في مثل هذه الموارد الحكم بشأنها ونندع العلم بها الى اهلها^(٤).

نبقى والآية اعلاه ومايستفاد منها بمعونة القرائن المختلفة. وكما اشرنا فإن التفسير الثاني - كما يبدو - هو الأنسب من بين التفاسير الستة المذكورة للآية، وهو التفسير الذي يعتبر عالم الذر منسجماً مع فطرة المعرفة الالهية والاسلام، وعليه فإن ذرات النطفة منذ خروجها من ظهور الآباء واستقرارها في ارحام الأمهات تكون قد استقر فيها نور المعرفة والتوحيد والقانون الالهي على صورة قابلية ذاتية.

١ - تفسير البرهان: ج ٢، ص ٤٩، الحديث ٢٢.

٢ - تفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٩، الحديث ٢٠.

٣ - تفسير الدر المنثور: ج ٣ ص ١٤٢.

٤ - للمزيد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الذر يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية: بحار الانوار: ٣ / ٢٧٧، مرآة العقول: ٧ / ٣٦، تفسير البرهان: ٢ / ٤٦، تفسير نور الثقلين: ٢ / ٩٣، وتفسير الدر المنثور: ٣ / ١٤١، ومابعدها.

٢- فطرة العقل أم القلب ؟

الحصيلة من كلمات العلماء في بحث فطرية المعرفة الالهية هي أنهم سلكوا طريقين ، فبعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الاستدلال العقلي الواضح ، وهو أن كل انسان بعد اكتمال عقله وملاحظته لنظام عالم الوجود وبعض الاسرار في الخلق ينتقل الى هذه الحقيقة فوراً وهي استحالة نشوء هذا النظام البديع ذي الاسرار العجيبة من مبدأ فاقد للعقل والاحساس ، وعليه فإن الفطرة تعني : (العقل الفطري) الذي يكفيه استدلال واضح للوصول الى الحقيقة ولا يحتاج الى استاذ أو معلم ، كما يحكم الانسان بأن (الكل اكبر من الجزء) حيث ادركه باستدلال عقلي واضح وهكذا عندما يقول بأن (المساويين لشيء متساويان) .

من هنا نلاحظ ان علماء المنطق يقسمون بديهيات المنطق الى ستة اقسام :

الاوليات ، المشاهدات ، التجريبيات ، المتواترات ، الحدسيات ، الفطريات ، وقالوا في تعريف (الفطريات) : بأنها القضايا التي لا يصدق بها العقل بمجرد تصورهما بل يحتاج الى حد أوسط وهو حاضر لدى الذهن دائماً . وللفطرة معنى آخر وهو اصح وافضل في البحوث المعنية وهو : ادراك الحقائق من دون الحاجة الى أي استدلال (معقد أو بسيط) ويتفهمها بوضوح ويتقبلها ، فهو حينما يشاهد - مثلاً - باقة من الورد الجميل ذات عطر زكي يقر بجمالها ، دونما حاجة الى اقامة الدليل ابدأ ، ويقول بأنها جميلة حقاً ولا تحتاج الى دليل .

والفهم الفطري في مجال المعرفة الالهية من هذا القبيل ، فالانسان حينما يتدبر من اعماق روحه يبصر نور الحق ويسمع نداءه بقلبه ، يدعوه الى

مبدأ العلم والقدرة التي لامثيل لها في عالم الوجود ، مبدأ هو الكمال المطلق ومطلق الكمال ، وهو في هذا الفهم الوجداني - كما في جمال الورد - لا يشعر بحاجة الى اقامة الدليل .



٣- شواهد حيّة على فطرية الايمان بالله

ربّما يقال بأن هذه كلها ادعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الالهية ، فمن الممكن أن ادعي بأنني اشعر بهذا الاحساس في قلبي أي من أعماق روحي ، ولكن كيف اقنع شخصاً يرفض هذا الكلام ؟ لدينا شواهد كثيرة بإمكانها اثبات فطرية المعرفة الالهية بشكل واضح جداً ، بنحو يفهم المنكرين ، ويمكن تلخيصها في اقسام خمسة :

أ- القضايا التاريخية :

إن القضايا التاريخية التي تمت دراستها من قِبَل اقدم المؤرخين في العالم تدل على عدم وجود دين لدى الاقوام السابقة ، بل كان كل قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه ، ولو اقررنا بحالات الاستثناء النادرة في هذا الأمر ، فإن هذه القضية لاتضر بالاصل العام الذي يحكم بأن المجتمعات البشرية كلها كانت دائماً على طريق عبادة الله (كل قاعدة كلية لها استثناءات نادرة) .

المؤرخ الغربي الشهير (ويل دورانت) في كتابه (تاريخ الحضارة) يُقر بهذه الحقيقة بعد الاشارة الى بعض الموارد في الالحاد الديني ويقول : «الى جانب هذه القضايا التي ذكرناها فان الالحاد الديني من الحالات النادرة ، وهذا

الاعتقاد القديم بأن الدين حالة بشرية عامة يتطابق مع الحقيقة...» .
«تعتبر هذه القضية من القضايا التاريخية والنفسية الأساسية لدى
الفيلسوف ، فهو لا يدعن بأن الأديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت الى هذه
الحقيقة وهي أن الدين كان مع التاريخ منذ اقدم العصور»^(١) .
ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن : «أين تكمن التقوى التي لا تفارق قلب
الانسان ابداً؟»^(٢) .

كما يقول في كتابه (دروس التاريخ) وبتعبير ساخط ومتألم : «للدين مائة
روح ، كلما تقتله فإنه يسترجع الحياة مرة اخرى !»^(٣) .
ولو كان الايمان بالله والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل
الآخرين لما كان عاماً وشاملاً بهذا الحجم ولما استمر طيلة التاريخ . وهذا
افضل دليل على أنه امر فطري .

ب - الآثار التاريخية :

إن الآثار المتبقية من العصور التي سبقت التاريخ (أي ما قبل اختراع
الخط وكتابة احوال الانسان) تدل على أن البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون
بالدين ويؤمنون بالله والمعاد والحياة بعد الموت ، بدليل أنهم كانوا يدفنون
الاشياء التي يحبونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت ! كما أن تحنيط
اجساد الاموات حفظاً لها من الاندثار ، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقى
ازماناً متمادية دليل على ايمان الاسلاف بالمبدأ والمعاد .
صحيح أن هذه الاعمال تدل على اقتران ايمانهم الديني بخرافات كثيرة

١ - تاريخ الحضارة - ويل دورانت : ج ١ ، ص ٨٧ .

٢ - تاريخ الحضارة - ويل دورانت : ج ١ ص ٨٩ .

٣ - الفطرة للشهيد المطهري : ص ١٥٣ .

إلا أنها دليل على أن الايمان الديني في المراحل التي سبقت التاريخ لا يمكن انكاره .

جـ- الدراسات النفسية ومكتشفات علماء النفس :

إن الابعاد الروحية للانسان وميوله الاساسية هي ايضاً دليل واضح على فطرية العقائد الدينية . وهي اربعة ميول سامية واصيلة عبر عنها بعض علماء النفس بأنها الابعاد الاربعة لروح الانسان وتشمل : (١ - حب العلم ، ٢ - حب الجمال ، ٣ - حب الخير ، ٤ - حب الدين) وتمثل شاهداً حياً على هذا الامر^(١) .

وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة ابعاد هي (١ - مقولة البحث عن الحقيقة ، ٢ - مقولة الخير الاخلاقية ، ٣ - مقولة الجمال ، ٤ - مقولة الابداع ، ٥ - مقولة العشق والعبادة)^(٢) .

ويبدو أن مقولة الابداع لاتنفك عن مقولة البحث عن الحقيقة . على أي حال فإن حب العلم يوجد في الانسان ميلاً شديداً نحو العلم وفهم اسرار عالم الوجود ، وهذا الاحساس يشمل الامور المؤثرة وغيرها في حياته .

ونريد أن نعلم كيف كانت الدنيا قبل مليار عام وكيف ستكون بعد مليار عام ؟ دون أن تكون لهذه الامور في فهمها على الحياة الفردية والاجتماعية تأثيرات عملية ، فهذا الحس هو السبب في ظهور العلوم والمعارف . إنَّ الجمال الذي يشعر به كل انسان في اعماقه هو الذي يدفعه الى الابداع وهو المصدر الاساس لكل الفنون .

١ - راجع مقالة (كونتاييم) في كتاب (الحس الديني أو البعد الرابع لروح الانسان) .

٢ - كتاب الفطرة للشهيد المطهري : ص ٦٤ .

وإنَّ حب الخير هو السبب في ظهور الاخلاق والالتزام في الانسان تجاه المبادئ من قبيل العدل ، الحرية ، الصدق ، وامثالها ، ومن الممكن أن لا يلتزم كثير بهذه المبادئ عملياً غير أنه لا ريب في ارتياح قلوبهم لها .

البعد الرابع لروح الانسان والمعبر عنه احياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدس والالهي هو الذي يدفع الانسان نحو الدين ، وهو يؤمن بوجود ذلك المبدى العظيم بدون حاجة الى دليل خاص ، ويمكن أن يقترب هذا الايمان الديني بالوان من الخرافات وينتهي بعبادة الاصنام والشمس والقمر ، غير أن بحثنا يدور حول الاساس فيه .

د - فشل الدعاية ضد الدين :

نحن نعلم بأن الدعايات أشدَّ شُنت ضد الدين في القرون الاخيرة وخاصة في الغرب ولانظير لها سعة واستخداماً للاجهزة المختلفة .

وكانت بداياتها في مرحلة النهضة العلمية في اوربا (رنسانس) وفيها تحررت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطفئ التيار المعارض للدين (كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذ في اوربا) الى درجة تُطرح فيها الافكار الملحدة في كل مكان واستغلوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاص لرفض الاسس الدينية كلها حتى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة ، وانعزل رجال الدين في اوربا واصبح الايمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية في عداد الخرافات .

وغدا من المسلمات لدى كثير منهم أنَّ البشرية مرت بمراحل أربع هي (مرحلة الاساطير ، مرحلة الدين ، مرحلة الفلسفة ، ومرحلة العلم) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقرض في مرحلة سابقة !

والعجيب أن كتب علم الاجتماع الحديثة التي تمثل الصورة المتكاملة لعلم الاجتماع السائد انذاك تفترض هذه القضية من المسلمات ، وهي أن للدين عاملاً طبيعياً يتردد بين الجهل والخوف والمتطلبات الاجتماعية والامور الاقتصادية ، فهناك اختلاف بصددها !

صحيح أن السلطة الدينية الحاكمة (أي الكنيسة) في القرون الوسطى هي التي يجب أن تدفع الغرامة بسبب تعديها وظلمها وتعاملها السيئ مع الناس بصورة عامة وعلماء الطبيعة بصورة خاصة ، اضافة الى اهتمام الكنيسة بالشكليات وبالامور التي لا تستحق الاهتمام ونسيان طبقات المجتمع ، لكن العيب في هذا الأمر هو أن الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب في العالم كلها .

وقد دخل (الشيوعيون) كغيرهم الميدان ليقضوا على الدين بكل ما يمتلكون من قوة ، وسخّروا جميع الاجهزة الاعلامية وافكار فلاسفتهم من اجل ذلك وسعّوا سعيهم لاثهار الدين وكأنه افيون الشعوب !

بيد أننا نشهد ان هذه التيارات العاتية ضد الدين لم توفق لاجتثاث الجذور الدينية المغروسة في القلوب والقضاء على النشاط الديني ، وها نحن اليوم نرى بأم اعيننا تفتح الاحاسيس الدينية من جديد حتى أنها انتشرت بصورة واسعة في البلدان الشيوعية ، والاخبار التي تتناقلها وسائل الاعلام تحكي عن الرعب المتزايد الذي يعيشه الحكام في هذه المناطق ازاء الميول الدينية وخاصة الاسلامية ، كما نلاحظ في الاقطار الشيوعية - التي تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء على الدين - ظهور حركات تطالب بانتشار الدين .

هذه الحقائق تدل بصورة واضحة على تجذر الدين في اعماق (الفطرة) البشرية ، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الاعلامية المعارضة العاتية

ولولاها لانقرض تماماً.

هـ- التجارب الشخصية في الأزمات:

إنَّ أغلب الناس جرَّبوا هذه الحقيقة وهي : أن الانسان حينما يواجه مشكلات قاتلة ، وشدائد الحياة الصعبة ، ويبتلى بدَوَّامات البلاء وحينما توَّصد بوجهه الابواب ويبلغ السيل الزبى ، ففي هذه اللحظات المضطربة يورق أمل في اعماق روحه ، يتوجه الى المبدأ القادر على حل المشكلات كلها فيتعلق به ويستمد العون منه .

ولا يستثنى من ذلك حتى الاشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية في الظروف الاعتيادية ، حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرضهم للأمراض الخطرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الالهية .

نعم ، في زوايا قلب الانسان واعماق روحه نداء لطيف مليء بالرحمة وقوي وبيّن يدعو الى الحقيقة الكبرى ، وهي (الله) القادر والمتعالى والعالم ، ويحثنا يدور حول الايمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها .

و- شهادة العلماء على فطرية الدين:

ليست قضية فطرة (معرفة الله) قضية مطروحة في القرآن الكريم والروايات الاسلامية فحسب ، بل إن كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها :

فمثلاً ، يقول اينشتاين في حديث طويل : « إن العقيدة والدين موجودان في الجميع دون استثناء... إني اسميه (الشعور الديني للخلق).. في هذا الدين

يشعر الانسان الصغير بآمال واهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر، إنه يرى وجوده كسجن، وكأنه يريد التحرر من سجن الجسم ليدرك الوجود كله كحقيقة واحدة»^(١).

ويقول العالم الشهير باسكال :

«للقب ادلة لا يدركها العقل»^(٢).

ويقول ويليم جيمز :

«إنني أقر تماماً بأن القلب هو المصدر للحياة الدينية ، كما أقر بأن القواعد الفلسفية تشابه موضوعاً مترجماً كتب نصه بلغة أخرى»^(٣).

ويقول ماكس مولر :

«لقد خضع اسلافنا لله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتى على اطلاق اسم على الله»^(٤).

وهو القائل في موضع آخر: «خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأن الدين ظهر اولاً بعبادة الطبيعة والاشياء والاصنام ثم وصل الى عبادة الله الواحد . فلقد أثبت علم الآثار بأن عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ اقدم الأيام»^(٥).

ويقول المؤرخ الشهير (بلوتارك):

«لو لاحظتم العالم فإنكم ستجدون اماكن كثيرة لاعمران فيها ولاعلم وصناعة وسياسة ودولة ، ولكنكم لاتجدون موضعاً ليس فيه الله»^(٦).

١ - العالم الذي اراه : (بتلخيص) ص ٥٣ .

٢ - مسيرة الحكمة في اوربا : ٢ / ١٤ .

٣ - المصدر السابق : ص ٣٢١ .

٤ - (مقدمة الدعاء) : ص ٣١ .

٥ - الفطرة للشهيد المطهري : ص ١٤٨ .

٦ - (مقدمة الدعاء) : ص ٣١ .

ويقول صموئيل كينغ في كتاب (علم الاجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحالة والمبشرون (المسيحيون) الاوائل بذكر اسماء مجموعات لاتدين بدين أو مذهب، ولكن أقوالهم - كما عُلِمَ فيما بعد - لم يكن لها اساس من الصحة فاحكامهم ناشئة فقط من ظنهم بأن اديان اولئك يجب أن تشابه ديننا»^(١).

ونختم هذا البحث بكلام لـ (ويل دورانت) المؤرخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم نتصور للاديان جذوراً في عصر ما قبل التاريخ، فإننا لا يمكن ان نتعرف على حقيقتها في التاريخ»^(٢).



٤- الفطرة في الروايات الاسلامية:

إن قضية فطرية التوحيد في العبادة بشكل خاص، أو الدين والمذهب بصورة عامة، امر فطري ذو انعكاس كبير في الروايات الاسلامية بالرغم من اختلاف التعبير فيها، ففي بعضها عرض لقضية التوحيد وتوحيد العبادة كأمر فطري كما في الحديث الاتي، حيث سأل احد اصحاب الامام الصادق (عليه السلام) - وهو علاء بن فضيل - عن الآية الكريمة «فَطَرَهُ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» فاجاب (عليه السلام): «التوحيد»^(٣).

كما ورد هذا المضمون في احاديث عديدة اخرى^(٤).

١- علم الاجتماع لصموئيل كينغ: ص ١٩١.

٢- تاريخ الحضارة: ١ / ٨٨.

٣- بحار الانوار: ٣ / ٢٧٧ الحديث ٤.

٤- المصدر نفسه: الحديث ٥، ٦، ٨، ١٠.

وفي القسم الآخر من هذه الاحاديث اعتُبرت (معرفة الله) امراً فطرياً، كالحديث الذي يرويه زرارة عن الامام الباقر (عليه السلام) حينما سأله عن تفسير الآية «حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ»: «أهي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله؟ قال (عليه السلام): فطرهم الله على المعرفة» ... وقال: قال رسول الله (عليه السلام): كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله عزوجل خالقه^(١).

وقد ورد هذا المضمون ايضاً في احاديث اخرى^(٢).

وبعض الروايات تعرّف (الاصول الاسلامية) كلها امراً فطرياً، كما نقرأ في الحديث النبوي الشريف «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»^(٣).

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنية هذا الحديث بكثرة وهو من الاحاديث الشهيرة جداً.

ويلاحظ نظير هذا المضمون في روايات اخرى وفيها تأكيد على قضية التوحيد ونبوة الرسول الاكرم (عليه السلام) وولاية علي (عليه السلام)^(٤).

وختاماً فإن بعض الروايات تؤكد على قضية الولاية، كما نقرأ الحديث الذي يرويه ابو بصير عن الامام الباقر (عليه السلام) في آية البحث حيث عبّر عن المقصود في الآية بأنه «الولاية»^(٥).

وواضح أن هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها أبداً، فالاصول الدينية - في الحقيقة - توجد في الفطرة البشرية بصورة مركزة، غير ان بعض الروايات تشير اليها كلها وبعضها الآخر يشير الى

١ - بحار الانوار: ٣ / ٢٧٩ الحديث ١١.

٢ - بحار الانوار: ٣ / ٢٧٩، الحديث ١٢، ١٣.

٣ - غوالي اللآلي: (طبقاً لبحار الانوار: ٣ / ٢٨١، الحديث ٢٢).

٤ - بحار الانوار: ٢ / ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، الحديث ٣، ٩، ١٨.

٥ - المصدر السابق: الحديث ٢.

قسم منها.

وفي الحقيقة فإن فطرة التوحيد لا يمكن ان تنفصل عن اصول العقيدة لأن الله الحكيم لم يخلق العباد عبثاً، ومن البديهي أنه وضع تكاليف ومناهج لتكامل العباد يجب ابلاغها عن طريق الرسل، ويحفظها اوصياؤهم، وتنفذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومة الاسلامية وتظهر نتائجها في عالم الآخرة. وباختصار فإن في متناولنا روايات كثيرة حول فطرية التوحيد والاسلام وللمزيد يمكن مراجعة مصادر اخرى.

مثل تفسير البرهان الجزء ٢، صفحة ٤٦ وما بعدها.

مرآة العقول الجزء ٧، صفحة ٥٤ وما بعدها.

تفسير نور الثقلين الجزء ٤، صفحة ١٨١ وما بعدها.

تفسير الدر المنثور الجزء ٣، صفحة ١٤٢ وما بعدها.

بحار الانوار الجزء ٣، صفحة ٢٧٦ وما بعدها.



وحدانية الذات المقدّسة

«أهم أصل في معرفة الله»

تمهيد :

توصلنا فيما سبق من ابحاث الى اثبات وجود الله سبحانه من طرق مختلفة (خمسة ادلة عقلية رئيسة) اضافة الى طريق الفطرة الذاتية .

الآن وبعد الايمان بأصل وجوده فإن البحث يدور حول معرفته ، والموضوع المهم فيه هو بحث التوحيد والوحدانية ، لأنه من جهة يعتبر أصلاً لبقية الصفات . ومن جهة اخرى يشكل الاساس في كل الاديان السماوية خصوصاً القرآن حتى أن اغلب ماتضمنه هذه الكتب السماوية بصدد وجود الله تدور حول محور هذا البحث ، الى الحد الذي ظن فيه بعض بأن القرآن لا يتحدث عن (أصل وجود الله) بل إنه يتحدث عن توحيده والاستدلال على ذلك ، وهذا الكلام مبالغ فيه .

ومن جهة ثالثة تُستمد جميع العقائد الاسلامية والاحكام والقوانين والامور الاجتماعية والاخلاقية والعبادية من هذا الأصل ، لذلك اولى القرآن الكريم اهتمامه الخاص لقضية (التوحيد والشرك) وعكس القرآن برمته النظرية الاسلامية بهذا الصدد ، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حَظِي بهذه الدرجة من الاهتمام في القرآن الكريم مثلما حظي بها ذلك الموضوع . كما أن قضية التوحيد ومحاربة الشرك لم تكن محوراً اساسياً في حركة الرسول الاكرم (ﷺ) فحسب ، بل وفي حركة سائر الانبياء (عليهم السلام) .

بهذا التمهيد نطلع اولاً على عِظَم معصية الشرك في القرآن المجيد ، ثم نذكر الادلة القرآنية المختلفة على اثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك .

في البداية نُصغي خاشعين الآيات الآتية :

١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء - ٤٨.

٢ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء - ١١٦.

٣ - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الزمر - ٦٥.

٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ﴾ سورة لقمان - ١٣..

٥ - ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي

مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ سورة الحج - ٣١.

٦ - ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَنْ لَتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ سورة الانعام - ١٥١.

٧ - ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ﴾ سورة المائدة - ٧٢.

٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَذَا..﴾ سورة التوبة - ٢٨.

٩ - ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وَرَسُولُهُ...﴾ سورة التوبة - ٣.

١٠ - ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ

مُشْرِكٌ..﴾ سورة النور - ٣.

١١ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ

مَآبٌ﴾ سورة الرعد - ٣٦.

١٢ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

١٣ - ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ سورة الانبياء - ١٠٨.

١٤ - ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ...﴾ سورة الممتحنة - ٤.

شرح المفردات :

(شرك) : ذكر لها في مقاييس اللغة معنيان : الاول : هو التعاون والمقارنة والشركة ويقابله الانفراد .

والثاني : هو الشيء المستقيم والممتد .

والمعروف من مشتقات هذه المفردة هو المعنى الاول ، وللمعنى الثاني مصطلحات خاصة منها (شراك) للحداء ، و(شرك) الطرق الضيقة المستقيمة التي تتفرع من الطريق العام أو بمعنى القسم الاوسط من الطريق المستقيم ، كما يعني الفخ الذي ينصبه الصياد .

ويُصرّ بعض اللغويين على ارجاع المعنيين الى المعنى الاول ، إلا أنه لا يخلو من تكلف ، كما لا دليل يدعو للاصرار على ذلك^(٢) .

١ - هود - ٢٥ ، ٢٦ ، جاء هذا المضمون في آيات قرآنية أخرى مثل هود : ٢ ، الاسراء : ٢٣ ، يس : ٦٠ ، فصلت : ١٤ ، اضافة الى آيات عديدة أخرى ذات عبارات مختلفة تتعلق بأهمية التوحيد وقبح الشرك بجميع صورته واشكاله ، لوجمعت وفسرت لتألف منها كتاب كبير ، وما ورد اعلاه هي النماذج المهمة منها .

٢ - راجع كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ، صحيح أن اغلب الكلمات المشتركة ترجع الى مصدر

وقد استعمل (الشرك) في القرآن الكريم عادة بمعنى الاعتقاد بوجود ند لله سبحانه والتوافق على وجود المثل والشريك في الذات أو الصفات أو الخلق والتدبير أو المماثل له في العبودية .

يقول الراغب في المفردات : الشرك في الدين ضربان :

أحدهما : الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى وذلك اعظم كفر. والثاني : الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق^(١).

(واحد) مشتق من (وحدة) ويعني في الاصل - كما يقول الراغب في المفردات - : الشيء الذي لاجزاء له ، ثم اتسع استعماله حتى اخذ يطلق على كل شيء يتصف بالوحدانية . ويضيف :

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه : ١ - ما كان واحد في الجنس أو في النوع كقولنا الانسان والفرس واحد في الجنس وزيد وعمرو واحد في النوع ٢ - ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث الحلقة كقولك شخص واحد وإما من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة ٣ - ما كان واحداً لعدم نظيره ٤ - ما كان واحداً لامتناع التجزي ٥ - لمبدأ العدد كقولك واحد اثنان ٦ - لمبدأ الخط كقولك النقطة الواحدة وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزي ولا التكثر^(٢).

«واحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد ، غير أن الأحد إنما يطلق

واحد ولكن لا يمكن القول أن ذلك يصدق في جميع الموارد، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم احداهم بالآخرى.

١ - مفردات الراغب : ص ٢٦١ مادة شرك، لسان العرب، التحقيق، مقاييس اللغة، جمهرة اللغة وكتب أخرى.

٢ - مفردات الراغب : ص ٥٥١ مادة واحد. لسان العرب، التحقيق مقاييس اللغة، جمهرة اللغة وكتب أخرى.

على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهنياً ولذلك لا يقبل العد، ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانٍ وثالثٌ إمّا خارجاً أو ذهنياً [ك] قولك: ماجاءني من القوم أحد، فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ماجاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر...»^(١).

واحتمل بعض أن (أحد) يقابل المركب و (واحد) يقابل المتعدد، غير أن المستفاد من موارد الاستعمال في القرآن انهما بمعنى واحد، وسنفصل ذلك في المستقبل بإذن الله.

جمع الآيات وتفسيرها:

الذنب الذي لا يُغفر

تصرّح آية البحث الأولى بأن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر حيث تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ومفهوم هذه العبارة هو أن جميع الذنوب الكبيرة والمظالم والجرائم والقبائح لو وضعت في كفة ميزان ووضع الشرك في الكفة الأخرى لرجحت كفة الشرك.

ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

ويعتقد بعض المفسرين أن الآية نزلت في اليهود (بقريئة الآيات اللاحقة) حيث اتحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقدسون اصنامهم ويعتقدون - في الوقت ذاته - أنهم من أهل النجاة!

ولو سلمنا بشأن النزول هذا فإنه لا يضيق دائرة مفهومها ، وقال بعض : إن الآية نزلت في جمع من المشركين (كوحشي قاتل حمزة عم النبي ، وأمثاله) وقد ندموا على فعلهم بعد مدة وكتبوا الى رسول الله (ﷺ) : «إنا قد ندمنا على الذي صنعناه وليس يمنعنا عن الاسلام إلا اذا سمعناك تقول وأنت بمكة : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...﴾ وقد دعونا مع الله الهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه لاتبعناك فنزلت الآية : ﴿أَلَا مَن تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ ، فبعث بهما رسول الله (ﷺ) الى وحشي وأصحابه ، فلما قرؤوهما كتبوا اليه : إن هذا شرط شديد نخاف أن لانعمل عملاً صالحاً فلا نكون من اهل هذه الآية فنزلت : «إن الله لا يغفر... فبعث بها إليهم فقرؤوها فبعثوا اليه : إنا نخاف أن لانكون من أهل مشيئته فنزلت : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، فبعث بها إليهم فلما قرؤوها دخل هو وأصحابه في الاسلام ورجعوا الى رسول الله (ﷺ) فقبل منهم...»^(١).

على أي حال فإن الآية كما يقول كثير من المفسرين - هي احدى الآيات القرآنية التي تبعث روح الأمل حيث تقول : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِإِيمَانِهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ لَا يُيَاسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، ولكن اذا خرج بلا ايمان أي في حالة شرك فإنه لا سبيل له الى النجاة .



الآية الثانية تتحدث عن مضمون الآية السابقة ذاته مع فارق هو أنها تقول في ذيلها : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ والكلام في الآية السابقة

دار حول الإثم العظيم وأما هنا فهو يدور حول الضلال البعيد ، وهذان امران متلازمان إذ ان الذنب كلما كان اعظم فإنه يبعّد الانسان اكثر ويزيده ضلالا .
والآية السابقة لاحظت الجانب العلمي والعقائدي من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له ، ومن الأكيد أن هذه الآثار تنشأ من تلك الجذور .



الآية الثالثة تحمل أوضح التعابير وأقساها عن عاقبة الشرك والانحراف عن التوحيد حيث تخاطب النبي (ﷺ) : ﴿لَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

ومن الثابت أن رسول الاسلام (ﷺ) وكل نبي من الانبياء (عليه السلام) لم يسلكوا - لعصمتهم - طريق الشرك ابداً ، إلا أن الآية ومن أجل بيان اهمية المسألة ولكي يحسب الآخرون حسابهم قامت ببيان اخطار الشرك بهذه الدرجة من الحزم .

واستناداً الى هذه الآية فلو أفنى الانسان حياته في العبادة وعبودية الله ومارس الاعمال الصالحة ولكنه أشرك في آخر عمره لحظة واحدة ومات بتلك الحالة فإن اعماله سوف تُحبط ، فالشرك بمنزلة صاعقة محرقة تلتهم حصيلة عمره وتصيّرهُ رماداً . وكما اشار القرآن الكريم في الآية ١٨ من سورة ابراهيم الى أنه رماد اشتدت به ريح عاصف .

(ليحبطن) من (حبط) وأصله (حَبَطَ) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلاً حتى ينتفخ فيمرض ثم يموت ، ثم استعمل في الاعمال الكثيرة ذات المظهر الجميل ولكن باطنها فاسد وتؤول الى الفناء ^(١) .

وقد جاء نظير ذلك في (لسان العرب) و (مصباح اللغة) ، غير أن لسان العرب ذكر أن احد معاني (إحباط) هو جفاف ماء البئر وعدم توقفه . وفي (مقاييس اللغة) أن الاصل في معناه هو (البطلان) أو (الآثم) كما أن (حبط) يطلق كذلك على الجرح بعد شفائه . على أي حال فإن هذه المفردة في آية البحث والكثير من الآيات والروايات تعني إبادة ثواب الاعمال الصالحة وزوال آثارها الايجابية . وهناك ابحاث حول حقيقة حبط الاعمال وكيفيته ولكن لامجال لبيانها .



أعظم الظلم

نقرأ في الآية الرابعة تعبيراً مهولاً حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يعظ ابنه بقوله ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . ولقمان وإن لم يكن نبياً - كما هو المشهور - إلا أنه كان رجلاً حكيماً ومفكراً لله وقد أيد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه في عرض كلام الله عز وجل ، وبالتأكيد أن مثل هذا الرجل بعلمه وحكمته واحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه ابنه فإنه يقدم له اخلص النصائح والمواعظ . النصيحة الاولى من النصائح العشر التي ينقلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لأبنه هي النصيحة بالاحتراز المطلق من الشرك ، مما يدل على أن الاساس في بناء الفرد والاصلاحات الفردية والاجتماعية والاخلاقية كلها ، هو مقارعة الشرك بكل اشكاله وصوره ، وسيكون لنا كلام - بإذن الله - في بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا .

وقد احتمل بعض أن ابن لقمان كان مشركاً فنهاه ابوه ولكن - كما يقول

بعض المفسرين :- يمكن ان يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهمية القضية نظير ما ورد في الآية السابقة من تحذير الهي للأنبياء .

والتعبير بـ (ظلم عظيم) ذو مضمون كبير ، فالظلم في الاصل يعني كل انحراف عن الحق ووضع الشيء في غير محله ، وأسوأ انواع الظلم هو الظلم الذي يكون بحق الله ، عباده ونفسه ، وهكذا الشرك .

فأي ظلم وانحراف أشد من جعلهم موجودات لاقيمة لها بمستوى خالق السماوات والارض وجميع الموجودات ؟ وأي ظلم اشد على عباد الله من انحرفهم عن جادة التوحيد النوارنية الى ظلمات الشرك ؟ وأي ظلم اشد على النفس من أن يوجب الانسان ناراً ليحرق فيها حصيلة اعماله الصالحة ويحولها الى رماد ؟ !



السقوط الموحش

تصرح الآية الخامسة بعد أن أمرت المسلمين بأن يكونوا موحدين غير مشركين ومن خلال تشبيه ذي معنى كبير : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(١) .

وقد شبهت الآية (الايمان) بـ (السماء العالية) و(الشرك) بـ (السقوط من هذه السماء) [لاحظوا أن (خرّ) كما يقول اللغويون : يعني السقوط المقرون بضجة وليس المجرد منها !] .

وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكتنف بخطرین عظیمین هما :

١ - تخطف من (خطف) وهو الاستلاب بسرعة و(سحيق) من (سحق) وهو طحن الشيء وقد تعطي هذه المفردة معنى (الملايس البالية) أو (المكان البعيد) والآخر هو الأنسب في مورد الآية من غيره .

أن الساقط إما يكون فريسة للطيور الكاسرة أو يتلاشى في مكان بعيد عن الماء والناس .

وهذه العبارات الموحشة توضح أبعاد الشرك الواسعة .

وهذه الطيور في الحقيقة هي الصفات القبيحة الباطنية أو الفئات المنحرفة في الخارج والتي تنصب الكمين لمن ينحرف عن جادة التوحيد ، و(الريح) هي تلك الشياطين الذين تعبّر عنهم الآية (٨٣) من سورة مريم : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أُزَاقًا﴾ حيث تذهب إلى المشركين وتضع حلقات في رقابهم وتسحبهم إلى كل جانب ، أو انها الاعاصير الاجتماعية العاتية والفتن السياسية والفكرية والاخلاقية التي لا يصمد امامها إلا من ثبتت قدماء في طريق التوحيد .



في الآية السادسة يؤمر النبي (ﷺ) بتبيان المحرمات للناس وفي مقدمتها الشرك حيث تقول : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾^(١) .

ثم تذكر اوامر الهية عشرة عرفت بـ (أوامر النبي العشرة) ؛ وأولها هو الدعوة إلى التوحيد حيث تقول : ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ راجع التفسير الامثل للاطلاع على الشروح والاورام التسعة المتبقية في ذيل هذه الآيات .



١ - تعالوا من (علو) ويعني أن يقف شخص على مرتفع ثم يدعو الآخرين اليه (أي اصعدوا) ثم توسع استعماله وشمل كل دعوة (المنازل ٨ / ١٨٣) ومن الممكن أن يكون المراد في هذه الدعوات الالهية هو المعنى الاصلي حيث يريد النبي أن يصعد بالناس إلى مستوى ارفع واسمى .

الجنة محرمة على المشركين

الآية السابعة تشير بتعبير جديد الى خطر الشرك ، حيث تنقل عن السيد المسيح (عليه السلام) خطابه الى بني اسرائيل : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ .

في الجملة الاولى يلاحظ ذكر لفظ الجلالة كما يلاحظ تكرارها في الجملة الثانية ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ وهي تقتضي استعمال الضمير ، وذلك للتأكيد على اهمية المسألة .

وتضيف الآية في ذيلها : ﴿وَاللَّذَالِمِينَ مِنْ أَنْصَارِهِ﴾ .

وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجرأة في الدفاع عنهم يوم القيامة .



الله بريء من المشركين

نواجه في الآية الثامنة قضية جديدة بهذا الصدد حيث تخاطب المؤمنين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ثم تقول : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ .

وتتضمن الآية تأكيدات من عدة جهات :

الاول : أنها استعملت (إنما) والتي تدل على الحصر ، ومفهومها أن المشركين ليسوا إلا موجودات فاسدة ونجسة وفي ذلك اكبر تأكيد ومبالغة .
والثاني : أن (نَجَسٌ) يتضمن معنى المصدر ، أي أن المشركين هم عين

النجاسة ! كما يقال فلان عين العدل ، وهذا غاية في المبالغة ^(١) .

والثالث أنها لم تقل : «فلا يُدْخِلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» بل «فلا يقربوا»
بمعنى أن المشركين من القذارة ما يخشى على هذا المكان المقدس أن
يتعرض لها عند اقترابهم منه .!



في الآية التاسعة نلاحظ اشارة الى نقطة اخرى حيث نزلت - مع
مجموعة من الآيات في السنة التاسعة للهجرة - بصفتها اعلاناً عاماً ، وقد أمر
امير المؤمنين (عليه السلام) بتلاوتها على الناس في مواسم الحج «وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» ^(٢) .

والتعبير بالبراءة من قبل الله ورسوله من المشركين بوصفه اعلاناً عاماً
في أكثر ايام الحج حساسية دليل على النفور من المشركين وبيان لضخامة
معصية الشرك بأجلّ صورته .



ونلاحظ في الآية العاشرة تعبيراً جديداً ، حيث اعتبرت المشرك

١ - (نجس) مصدر و(نجس) صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب في المفردات :
النجاسة : القذارة وذلك ضربان : ضرب يدرك بالحاسة وضرب يدرك بالبصيرة (المفردات مادة نجس :
ص ٥٠٣) وفي مجمع البيان : كل مستقذر نجس يقال : رجل نجس وامراه نجس ، المجمع : ج ٥ ، ص
٢٠ .

٢ - فسر الكثير من المفسرين (يوم الحج الأكبر) بعيد الاضحى وهو أهم ايام الحج ، والروايات الواردة عن
ائمة اهل البيت (عليهم السلام) وابناء العامة تؤيد هذا المعنى ، في حين فسره منهم بيوم عرفة وبعضهم الآخر
بمجموع ايام الحج التي يطلق عليها (الحج الأكبر) وتقابل العمرة وهي (الحج الأصغر) ، وقد خصصها بعض
بسنة نزول الآية حيث شارك المسلمون والمشركون في مراسم الحج في تلك السنة ، وواضح أن التفسير
الاول هو الأرجح من هذه الاحتمالات الاربعة .

والمشركة في عرض الزاني وقال: «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك».

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعي وإلهي وهو حرمة الزواج من أهل الزنا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجي وهو أن القذر يتبع القذر دائماً، وكل نوع يطير مع نوعه فهو شاهد بليغ على قبح معصية الشرك، لأنها اعتبرت المشركين كالمملوثين بالزنا والفاقرين للقيم الخلقية والسجايا الانسانية.

والحديث الوارد عن النبي (ﷺ): «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص»^(١) وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين، وسيأتي شرحه بإذن الله.

من الواضح أن زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام، وأما الزواج باهل الزنا فإن بعضاً يرى بأنهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلاً ايضاً.

والاحاديث العديدة التي نقلت عن النبي (ﷺ) والامام الباقر (عليه السلام) والامام الصادق (عليه السلام) شاهد آخر على هذا المعنى.

وقد كتب بعض المفسرين في شأن نزول هذه الآية مايلي: أن رجلاً من المسلمين استأذن النبي (ﷺ) في أن يتزوج (ام مهزول) وهي إمرة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية^(٢).



١ - تفسير نور الثقلين: ج ٣، ص ٥٧١، الحديث ٢٠.

٢ - تفسير مجمع البيان: ج ٧، ص ١٢٥.

الآية الحادية عشرة بيّنت أهمية التوحيد وقبح الشرك ولكن بتعبير آخر، وتوجه امرأ إلى النبي (ﷺ) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾. والتعبير بـ (انما) الدالة على الحصر عادة دليل على أن دعوة النبي (ﷺ) تتلخص في قضية التوحيد ورفض الشرك^(١)، وهو الحق، لأن التوحيد قوام التعليمات السماوية كلها، كما أن الشرك هو اساس الوسواس الشيطانية كلها.

وتؤكد الآية في ذيلها تأكيداً مضاعفاً: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾.



الآية الثانية عشرة تتحدث عن النبي نوح (ﷺ) وهو أول الانبياء من اولي العزم حيث جعل الاساس في دعوته هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك، والملاحظ أن هذا التعبير ورد ايضاً عن الكثير من الانبياء (ﷺ) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وتضيف: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

وتكرار هذا الكلام من قبل الانبياء من لدن نوح وحتى رسول الاسلام الاكرم (ﷺ) دليل على أن السنام الاعلى في دعوة الانبياء (ﷺ) هو قضية التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية، ولذا نقرأ في الآية (٦٤) من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

وهذا أصل ثابت لم يتغير بمرور الزمان ولم يكن امرأ وقتياً، بل هو الجذر

١ - ولو افترضنا هذا الحصر حصراً اضافياً فإنه يدل ايضاً على أن العبودية كلها تتلخص في العبودية لله (فتأمل جيداً).

الاساس في الديانات السماوية كلها، وكل ما يتعرض له اهل الديانات المختلفة من مآسٍ، ناشيء من الانحراف عن هذا الاصل .

* * *

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير جديد عن هذا المعنى وتلخص دعوة الانبياء (عليه السلام) باستخدام الاداة (انما) الدالة على الحصر في قضية التوحيد حيث تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

* * *

تعلّموا مقارعة الشرك من النبي ابراهيم (٧)

الآية الرابعة عشرة تذكر هذا المضمون في قالب جميل آخر حيث تعرّف النبي ابراهيم (عليه السلام) المقدام والمكسر للاصنام بالقدوة في الدفاع عن قضية التوحيد ومحاربة الشرك محاربة لاهوادة فيها حيث قالت: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ثم تقدّم توضيحاً عن الاسوة الحسنة هذه بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وازافت- للتأكيد المضاعف - ﴿كُفَرْنَا بِكُمْ﴾

إنّ الكفر بالاشخاص يعني اعلان البراءة منهم ، لأن هذه المفردة (الكفر) ذات معان خمس حسب الروايات الاسلامية ، احدها كفر البراءة ، ولم تكتفِ بذلك بل اضافت : ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

وإن هذه التعابير (البراءة اولاً ثم اعلانها ثم الاعلان عن العداوة الدائمة) لشاهد صريح على صلابة الموحدين تجاه القذرين المتلوثين بالشرك وعبادة

الاوثان ، وحينما نلاحظ أن القرآن يذكر كلام النبي ابراهيم واتباعه كقدوة للمسلمين فإن ذلك يعني أن الاسلام لايعرف أية مهادنة بين التوحيد والشرك في أية مرحلة .

ومن التعمق في تعبير الآية تنكشف الاهمية البالغة لهذه القضية ، فالتعبير بـ (قومهم) دليل على أن غالبية القوم هم من عبدة الاصنام وأن الموحّدين قليلون ، ويبدو ان هذا الحوار جرى في (بابل) ، التي هي مركز عبدة الاصنام في ظل سلطة الطاغية (النمرود) ، ولم تعتمد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة الى مسايرة الوضع السائد ، ولم تعمل بالتقية تجاه المشركين في مسألة التوحيد .

فمن جانب تقول : (نحن بريؤون منكم).

ومن جانب آخر : (كفرنا بكم).

ومن جانب ثالث : (نتبرأ من أصنامكم).

ومن جهة رابعة : (انا نعتبركم اعداء لنا).

ومن جهة خامسة : (انا نكُنُّ لكم العدا).

وفي كل جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداينة هذه .

والفرق بين (العداوة) و(البغضاء) - كما هو المستفاد من كلمات اللغويين -

هو أن (العداوة) لها جانب عملي في الغالب ، أمّا (البغضاء) فلها جانب قلبي ، وإن استعمل كل منهما مكان الآخر .

وبهذا اعلنوا انهم بريؤون من الشرك بكل وجودهم وصامدون أمامه

مهما كانت الظروف ، وينبغي أن يكون ذلك اسوة حسنة لكل المؤمنين في العصور كلها .

و (الأسوة) تعني في الاصل - كما ورد في (مقاييس اللغة) : العلاج

والاصلاح ، ولذا يطلق على الطبيب (آسى).

و (أسى) تعني الغم والحزن ، ومن المحتمل أن يكون بسبب اقتران علاج المريض والجريح - عادة - بالغم والوجع ، ومن ثم استعملت بمعنى الإتياع والمتابعة نظراً لاستدعاء العلاج والاصلاح المتتابعين .

إلا أن الراغب في مفرداته يعبر عن المعنى الاصلي لـ (اسوة) قائلاً بالاتباع في الصالحات أو السيئات ^(١) .



يتضح من الآيات الاربعة عشرة هذه التي كثرت نظائرها في القرآن الكريم أن قضية التوحيد والشرك هي القضية المركزية والمهمة في منظور القرآن بشكل لا تجوز معه أية مداهنة أو ميل أو محاباة مع الشرك والمشركون ، ولابد من اجتثاث جذور الشرك بجميع صوره ، فإن تحقق ذلك عن طريق التعليم الثقافي والمنطق والاستدلال فهو وإلا فإن الواجب هو الحزم العملي تجاهه .

إنّ التوحيد رأس مال المؤمن والبضاعة المرموقة في سوق القيامة ، والشرك ذنب لا يغتفر ، والمشرک موجود قدر يجب التبرء منه كلياً حتى يعدل عن انحرافه ويعود الى الايمان .



١ - يعتقد البعض ان (أسى) يستعمل كفعل ناقص واوي ويائي ، فإن كان ناقصاً يائياً فإنه يعني الحزن والغم ، ولذا تطلق المأساة على الفاجعة العظيمة ، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يعني المعالجة والاصلاح .

ايضاحات

لماذا هذا الاهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك؟

نحن نعلم بصورة اجمالية إن للاسلام بل والديانات السماوية كلها حساسية غير اعتيادية تجاه الشرك ، غير أن الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير، ويمكن تقديم أربعة ادلة اساسية على هذه الحساسية والاهتمام بقضية التوحيد والشرك المصيرية :

١ - التوحيد هو الاساس لمعرفة صفات الله ولا يمكن ادراكها دون ملاحظة اصل التوحيد ، لأن وحدانيته - كما سيأتي توضيحها - تنشأ من لا محدوديته ، والوجود جامع لكل الكمالات وخالي من كل عيب ونقص ، والحقيقة أننا لو عرفناه بتوحيده الحقيقي فسوف نعرف صفاته كلها ، بيد أن الاعتقاد بالشرك هو الذي يصدنا عن ذلك .

٢ - فروع التوحيد تبلغ عالم الوجود ذات الله المقدسة ، حيث أن عالم الوجود واحد وهو متصل الاجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة الى دراسة اجزائه مجتمعة ، ولو تصورنا موجودات العالم كوجودات متفرقة فإننا سوف نخطأ كثيراً في معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا :

من أين تلقينا هذا الدرس ، وهو أن عالم الوجود كتلة واحدة ؟

الجواب : من وحدانية الله ، لأن وحدة الله دليل على وحدة العالم ، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾^(١) .

٣ - إن أهم العناصر التي تبعث على تطور العالم الانساني وتكامله هو وحدة

المجتمع البشري ، فالاختلاف والتفرق - كان وسيبقى - هو العامل على الدمار والضعف والتخلف ، في حين يشكل الاتحاد والوحدة الحجر الاساس للقوة والافتدار والعمران والبناء .

إنّ الايمان بالله بمثابة حلقة الوصل التي تؤلف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية .

إنّ سبب الانحراف عن اصل التوحيد والايمان جعل كل قبيلة عربية في زمن الجاهلية تعبد صنماً يختلف عن اصنام القبائل الاخرى وهم في غاية الضعف والمأساة ، فجاء الاسلام وحطم الاصنام وربط القلوب بحبل التوحيد في فترة قصيرة وصنع منها مجتمعاً قوياً ومتطوراً ذا حكومة امتدت لتشمل العالم فضلاً عن الجزيرة العربية .

٤ - التربية على الاخلاق والقيم الانسانية تتوفر في ظل التوحيد ايضاً لأن الاساس في الاخلاق الفاضلة هو الاخلاص وتنزيه القلب من الشرك ، والاساس هو جعل الدوافع العملية دوافع الهية فقط ، أي التحرك من اجله فقط والجهاد في سبيله والسير نحوه والاحتراز من أي دافع آخر .

فالتوحيد هو الذي يعلم الانسان درس الاخلاص في النية ، درس مقارعة كل رياء وشرك ، ومحاربة هوى النفس والجاه والدنيا والشيطان .

وبهذا نرى كلاً من التوحيد والشرك يترك تأثيره العميق على العقائد والاعمال والنيات والاخلاق في الفرد والمجتمع .

ولذا وجه الاسلام اهتماماته تجاه هذه القضية ، وهنا نختم البحث

بحديثين :

في حديث عن الرسول الاكرم (ﷺ) أنه قال لعبد الله بن مسعود : «يا بن مسعود : اياك أن تشرك بالله طرفة عين ، وإن نشرت بالمنشار أو قطعت ، أو سلبت

او احرقت بالنار»^(١).

وفي هذا الحديث الشريف تبرز الأهمية القصوى للتوحيد .

وفي حديث آخر عن الامام الصادق (عليه السلام): «ان بني امية اطلقوا للناس تعليم الايمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي اذا حملوهم عليه لم يعرفوه»^(٢).

وهذا الحديث شاهد واضح على أن الشرك يمكن أن يكون وسيلة هدامة سياسياً واجتماعياً بيد فئة ظالمة ، وفي المقابل يمكن أن يقوم الايمان بالتوحيد وفروعه باجتثاث جذور هؤلاء الظالمين .



دلائل التوحيد

نتطرق في بحث التوحيد لمهمتين :

الاولى : أن ذات الله لا تتركب من اجزاء (خارجية أو عقلية) . والثانية : هي أن ذاته

لا شبيه لها ولا مثيل ، لذا فهو واحد من كل جهة .

ونجد في القرآن ادلة في هذا المجال منها :

١ - بحار الانوار : الجزء ٧٤ ص ١٠٧ (طبعة بيروت) .

٢ - اصول الكافي : ج ٢ ، ص ١٥٥ الحديث ١ .

١- شهادة الفطرة

على وحدانية الله (عز وجل)

تمهيد :

ذكرنا في مستهلّ هذا الجزء وفي بحث « استخدام برهان الفطرة في مسألة معرفة الله » أنّ هذا البرهان يمكن أن يكون نافعا ومرشداً في البحث عن صفات الله ، بل وفي مسألة النبوة والمعاد ، ولهذا لنا عهد عملي مع هذا البرهان حيث نراجعته في اغلب المباحث .

في بحث وحدانية ذات الله وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً ، أي اننا وفي اعماق الروح والقلب لانسمع نداء وجوده فحسب بل لا يوجد في اعماق الروح نداء آخر .

فعندما تبلغ المشكلات والابتلاءات ذروتها وحينما توصل ابواب عالم الاسباب امامنا يقرع اسماعنا هدير التوحيد في اعماق وجودنا ويدعونا الى (المبدأ الواحد) ذي القدرة التي تفوق المشكلات وتتجاوز عالم الاسباب كله . وهناك آيات قرآنية عديدة تشير الى هذا المضمون ، وبما اننا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصلة في بحث (اثبات وجود الله) فسنشير اليها هنا باختصار ونستمع خاشعين الى عدد من الآيات :

١ - ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ

يُشْرِكُونَ﴾ سورة العنكبوت - ٦٥ .

٢ - ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ

مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ سورة الروم - ٣٣ .

٣ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ وَاتَّكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ
مَا تُشْرِكُونَ ﴿ سورة الانعام - ٤٠ ، ٤١ .

٤ - ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَالْيَهُ تَجْرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ
الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ النحل - ٥٣ ، ٥٤ .

٥ - ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا
مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ
أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الانعام - ٦٣ ، ٦٤ .

جمع الآيات وتفسيرها :

حينما يشرق نور التوحيد

بما أن تفسير الآية الاولى والثانية قد مرَّ في مفتاح الكتاب خلال بحث
الاستدلال على معرفة الله عن طريق الفطرة فإننا نذكرهما باختصار .

الآية الاولى تتحدث عن اشخاص يدعون الله سبحانه باخلاص عند
ركوب السفينة ، والآية الثانية تطرح القضية بصورة عامة وتحدث عن
اشخاص يدعون الله عند مواجهة ضنك الحياة وتحيط بهم امواج المشكلات
فيتركون الاصنام التي نحتوها ويلجؤون الى ظلال لطفه ، ولكن بعد اذافتهم
حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرة اخرى ، ومن الملاحظ أن
في الآيتين تركيزاً على الاخلاص والإنابة حيث يتمسك بهما اغلب الناس
عند هبوب اعاصير الاحداث اضافة الى التركيز على حالة الرجوع الى الشرك
لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه الاعاصير .

وبهذا يشير القرآن الكريم الى أن معرفة الله من مكنونات الفطرة
الانسانية وهكذا التوحيد في العبادة ، ويعتبر الشرك ظاهرة تنشأ من الحياة

المترفة والملاحظة السطحية والعابرة لعالم الاسباب ، وعند تغير الظروف الاعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الاسباب يقوم الانسان بقطع أمله منها وتبرز فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشة والغفلة .

إنَّ هذه الآيات تبُلِّغ بنداء الفطرة الى الغافلين من بني الانسان عن طريق واضح وتوصل الانسان الى حيث لا يوجد صخب عالم الاسباب ولا تنفرقه لذات الحياة ،

نعم في مثل هذه البيئة الطبيعية والهادئة يسمع فيها نداء الوجدان الذي يلقِّنه درس معرفة الله وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يضعف ويعجز عن بلوغ الاسماع حينما يمتليء الجو بصخب اللذات المادية وعالم الاسباب .

هذه الآيات الشريفة تمسك بيد الانسان تارة وتلقي به في وسط الامواج العاتية وتمسك بيده تارة اخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميدان الامراض المستعصية وطرق مسدودة تبعث اليأس في الحياة ، مكان تخمد فيه اصوات الشياطين من الجن والانس ويسمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط ، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت !



الآية الثالثة تخاطب المشركين وتدعوهم الى فطرة عبادة الواحد ، ويتعبير آخر تقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

والمراد من عذاب الله هو عذاب الدنيا والمراد من (أتتكم الساعة) هو ظهور أشرط الساعة (وهي علامات نهاية العالم الموحشة جداً وابتداء يوم القيامة) التي أخبر عنها القرآن الكريم في آيات عديدة واعتبرتها مقرونة

بالخوف والوحشة الشديدَين .

إنّ الكثير من المشركين - طبعاً - لم يؤمنوا بالقيامة وأشراط الساعة غير انهم كان بوسعهم تصديق نزول العذاب الالهي وذلك بملاحظة الآثار التي خلفتها الامم السابقة في اطراف الحجاز والجزيرة العربية ، وهذا هو أحد اساليب الفصاحة حيث يبين القائل قضية صادقة لا يتقبلها المخاطب مقترنة بما يقبله في عبارة واحدة كي يثبتا معا .

ولا ينتظر القرآن ليستمع اجابتهم عن هذا السؤال بل يجيب عنه بما ينبغي عليهم بيانه ويقول : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ ﴿وَتَتَسَوَّنَ مَاتَشْرِكُونَ﴾ .

وقد اسلفنا أن الكثير من المفسرين فسّر جملة (أرأيتم) بمعنى (أخبروني) ولكن الظاهر هو الاحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلازمه (المعنى الرئيس للجملة هو : هل شاهدتم ؟ هل فكرتم ؟) ^(١) .
على أي حال فإن القرآن يستفيد في هذه الآيات من أعمال المشركين أنفسهم ويحاججهم بها .



تلجأون اليه في كل شدة

الآية الرابعة تصب هذه القضية في قالب جميل آخر فتقول : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ، فماذا صنعت لكم الاصنام ومعبوداتكم المزيّفة ؟ وأي رزق بَسَطْتُهُ لَكُمْ وأية هدية وهبتها لكم ؟
هذه الاصنام التي تحتاج اليكم في صنعها وبقائها (حيث يجب أن

١ - الاولى تعني الرؤية بالعين المجردة والثانية تعني الرؤية القلبية .

تحتوها وتحافظوا عليها) أية بركة وموهبة وهبتها لكم ؟

وتضيف الآية : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ (تجأرون) من مادة (جُئِرَ)

وتعني في الاصل اصوات الوحوش والحيوانات في الصحارى دون اختيار منها حين التألم ، ثم استعملت كناية عن الانين والاستغاثة والصرخة التي تصدر من الانسان حينما يواجه المشكلات .

يقول الراغب في مفرداته :

من الواضح ان الانسان يرجع الى فطرته في هذه الحالة وتتكسر القيود والسلاسل المفتعلة وتنهار الابنية الوهمية ويبقى الانسان مع فطرته ، الانسان ووجدانه الصريح ويتجه صوب نقطة واحدة ، نعم نقطة واحدة نسميها (الله) عز وجل .

انتبهوا الى جملة (اليه تجترون) فهي تتضمن معنى الحصر والدلالة على

الوحدانية ، اي أنكم تتوسلون اليه فقط وتطلبون منه حل المشكلات .

وتضيف : ﴿ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ وفي

التعبير بـ (فريق) اشارة الى أن فريقاً آخر سيغير مسيرته بعد هذا الحادث حقاً ، وتبدأ صفحة جديدة في حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد في العبادة ، وهذا هو احد الحِكم في وجود الآفات والابتلاءات والافواج والآلام التي يكرها البشر وفيها ايقاظ لفريق وتربيتهم^(١) .

(ضُرٌّ) و (ضَرٌّ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض اللغويين ، ومفهومهما

هو كل ما ينافي النفع ، وقد فسر بعض الاول بمعنى سوء الحال ، والثاني بمعنى الضرر .

ويقول الراغب في المفردات :

١ - احتمال البعض من أن (من) في (فريق منكم) بيانية لاتبعيضية بعيد جداً ويخالف ماورد في الآية (٣٢) من سورة لقمان (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) راجع تفسير روح المعاني .

الضر: سوء الحال إما في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفة ، وإما في بدنه لمرض او نقص وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه .^(١)

على كل حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأمراض والنقائص والآلام .

وينبغي ملاحظة هذه النقطة وهي أن (الكشف) - كما جاء في لسان العرب - تعني رفع الحجاب عن الشيء المستور، ويلزمه ظهور ذلك الشيء ثم استعمل في رفع الغم والحزن والابتلاءات وكأن هذه الأمور تمثل حجباً على روح الإنسان وجسمه وتُرفع من قبل الإنسان وغيره .

النور الوهاج في الظلمات

في الآية الخامسة والاخيرة التي نبحثها نواجه محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن في اطار جديد وجميل حيث تقول : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ في هذه الحالة تنأى عنكم المعبودات المزيفة وتلجأون الى لطف الله وحده وتقولون : ﴿لَسِئْلُ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ .

والتعبير بـ «ظلمات البر والبحر» تعبير جميل يمكن أن يكون اشارة الى الظلام الظاهري الذي يحدث في الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المغبرة وعند ظهور السحب السوداء في السماء ، وهذا الظلام مرعب ومخيف وخاصة اذا كان في البحر والصحراء . أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية في الصحراء .

ويمكن أن يكون له - كما ذكر ذلك بعض المفسرين - معنى كنائي

فيشمل المشكلات والشدائد والآلام^(١).

كما يحتمل تضمن الآية الظلامين : الظلام الظاهري الذي يفرض الوحشة على الانسان والظلام المعنوي الموحش المؤلم ايضاً ، وعلى كل حال فإن هذه الآلام تحصل في الاسفار غالباً ، والآية تقصد هذا المعنى ايضاً .

والتعبير بـ «تضرعاً وخفية» تعبير جميل ايضاً لان (التضرع) يعني الدعاء والطلب الصريح واظهار التذلل^(٢) ، في حين تشير (خفية) الى الدعاء الكامن في اعماق القلب ، ويحتمل أن يقصد التعبيران الحالتين في الانسان ، حيث يدعو الله في قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات ، وعندما يُبتلى بمشكلات عويصة وكبيرة يقوم بتلفظ ما في قلبه ويتضرع الى الله ويلتمسه .

ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات الفئات المختلفة ، فبعضها تدعو الله جهاراً في مثل هذه الاحوال وبعضها تدعو خفياً وكأنها تشعر بالخجل امام الاصنام ! أو من الناس الذين عرفوا أنها تعبد الاصنام فلماذا لا تلجأ إلى الاصنام في المشكلات ؟ ! على كل حال فإنها ترجع الى فطرتها في مثل هذه الاحوال وتستضيء قلوبها بنور التوحيد وعبادة الواحد ، وترفض كل ماسواه وتنسى كل ما يذكرها به وتستيقن بأن الاصنام ليست اهلاً ، وعبادة الاصنام لا فائدة فيها ولا سبيل الا التوحيد .

في مثل هذه الاحوال تعاهد الله وتنذر وتتعهد بأنه اذا انجاها من هذه الشدائد والآلام واذاقها حلاوة اللطف والرحمة فإنها ستبقى شاكرة ومدينة ورهينة للطفه ، ولكنها بعد الخلاص من المضائق تنسى - في الغالب - كل عهودها وتعهداتها ، كما يشير الى ذلك ذيل الآية : ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ

١ - تفسير الميزان : ج ٧ ، ص ١٣٦ وتفسير في ظلال القرآن : ج ٣ ص ٢٦٩ .

٢ - الراغب : تضرع : اظهر الضراعة .

كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ»^(١).

وكما ذكرنا فإن هذه الحالة هي حالة اغلب المشركين ، وأما الفئة التي لها قابلية اكبر فإنها تتيقظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك .

من مجموع الآيات التي ذكرت تظهر هذه الحقيقة وهي : أن القرآن الكريم لا يعد غريزة المعرفة الالهية في الانسان امراً فطرياً وحسب بل يعتبر الايمان بوحدانيته من الامور الفطرية ايضاً ، وبما أن الفطرة الاصلية في الانسان تتعرض في الغالب الى حجاب الرسوم والعادات والافكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة فينبغي انتظار تلك الساعة التي تزول فيها هذه الحجب ، من هنا فإن القرآن يشير الى لحظات حساسة في حياة الانسان وذلك عندما تزول الحجب باعصار الاحداث ويبقى الانسان وفطرته وصريح وجدانه فيدعو حينئذ ربه لوحده ويزول عنه ماسواه ، ويدل هذا جيداً على أن عبادة الواحد والتوحيد مستودعة في اعماق روحه . وفي هذا المجال مرت بحوث تكميلية اخرى في اول الكتاب في بحث الفطرة والمعرفة الالهية .



(٢)

تناسُّق العالم دليل آخر

تمهيد :

من السبل التي سلكها علماء العقيدة والفلسفة للوصول الى وحدانية ذات الله المقدسة هي دراسة عالم الوجود الذي هو عبارة عن مجموعة متناسقة وكتلة مترابطة ، هذه الوحدة وهذا التناسق ينبثقان عن وحدانية الخالق ، ولذا أطلق على هذا الدليل (برهان الوحدة والتناسق) وقد يطرح هذا البرهان بصورة اخرى حيث يقال : اذا كانت هناك ارادتان تحكمان عالم الوجود ، ولو كان في عالم الخليفة تدبيران لظهر الفساد والانظام حتماً ، وبما أننا لانشهد لانظاماً ولا فساداً فيه ، كان ذلك دليلاً على وحدة الخالق والمدير والمدبر لعالم الخليفة ، ولذا أطلق على الاستدلال عنوان (برهان التمانع) .

من هنا فإن برهان (الوحدة والتناسق) و (برهان التمانع) متحدان جوهرياً ومحتوى ولكن لهما تعبيران ، وبعبارة ادق : أنهما ينظران الى قضية واحدة ولكن من زاويتين ، فنحن نصل تارة من طريق وحدة العالم الى وحدة المبدأ ، واخرى من طريق عدم الفساد الناشيء من الارادتين ، وفي الحقيقة إننا ننظر من الاعلى الى الأسفل تارة واخرى من الاسفل الى الاعلى .

وعلى كل حال فإنه من افضل دلائل التوحيد التي استندت اليها الآيات القرآنية .

بهذا التمهيد نرجع الى القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات

التالية :

١ - ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ

حَسْبِيَ ﴿ سورة الملك - ٣ ، ٤ .

٢ - ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ سورة الانبياء - ٢١ ، ٢٢ .

٣ - ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا

بَغْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ سورة المؤمنون ٩١ .

شرح المفردات :

(فُطُور) من (فَطُر) وهي في الاصل : الفتق ، وقد فسّره البعض كالراغب في المفردات بالشق طولاً ومن ثم اطلق على كل ابداع وايجاد وخلق ، لما فيه من انشقاق حجاب العدم وابداع الشيء وايجاده أو اختراعه كما يطلق هذا اللفظ على عملية استخراج الحليب من الغنم باصبعين ، وكذلك على هدم الصيام (وقد وردت ايضاحات اكثر حول ذلك في بداية هذا الجزء في بحث برهان الفطرة في موضوع معرفة الله) .

(إِلَهِ) يعني - كما يقول اللغويون - المعبود ، وقالوا باشتقاقه من (إِلاهه) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم في الهامش ^(١) .

وقد استعمل هذا المعنى في مواضع كثيرة من (القرآن الكريم) ، كما نقرأ في قصة بني اسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الاصنام فقالوا لموسى :

١ - مصباح اللغة : (أَلَهٌ ، لَهٌ ، آلِهَةٌ) على وزن (تعب) يعني (عبد عبادة) ، تَأَلَّه (تعبد) والاله : (المعبود) ، وقد ورد في (صاح اللغة) هذا المعنى مع فارق بسيط ، ويقول الراغب في المفردات (اله) : جعلوه اسماً لكل معبود لهم و (اله فلان ياله) : (عبد) ، ويقول صاحب (لسان العرب) : (الاله : كل ما اتخذ من دونه معبوداً) وفي (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (فظهر من هذه الكلمات ان الاله بمعنى العبادة) وقد ورد في (مجمع البحرين) : (الآلهة : الاصنام سُمّوا بذلك لاعتقادهم بأن العبادة تحق لها ، وجاء في كتاب (العين) للخليل بن احمد ايضاً (التأله : التعبد) وقد جاء هذا المعنى صريحاً في (قاموس اللغة) (وعلى ذلك فإن عقيدة اهل اللغة قاطبة هي أن الاله تعني المعبود) .

﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(١)

وقد جاء في قصة السامري ﴿وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً
لنُحْرَقَتْهُ﴾^(٢).

وباختصار فإن اهل اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسرين اعتبروا (اله) بمعنى المعبود وهو الغالب في موارد استعماله ، وحينما نلاحظ أن (اله) قد استعمل في بعض الحالات بمعنى الخالق أو المدبر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة - في بعض الحالات - بين هذه المعاني وبين المعبود ، ولا يكون الاستعمال في بعض الموارد دليلاً على الحقيقة ابداً ، وخاصة مع تصريح اللغويين على خلاف ذلك ، وموارد الاستعمال شاهدة على ذلك ايضاً .

ويمكن القول : ان جملة (لا اله إلا الله) لا تنسجم مع هذا المعنى وذلك لوجود معبودات غير الله الواحد بين العرب والاقوام الاخرى ، ولكن الاجابة على هذا السؤال واضحة لأن المراد هو المعبود الحق لا المعبودات بالباطل ، أي : لا معبود حقاً غير (الله) ، والاصنام ليست اهلاً للعبادة ، وقرائن هذا المعنى موجودة في هذه الجملة ، كقولنا : لا علم إلا مانفع .

هناك ملاحظة جديرة بالتدقيق وهي أن البعض اعتبر (اله) من (وله) وتعني (تحيّر) وفيها اشارة الى الذات التي تحيرت فيها العقول ، بيد أن المشهور بين اللغويين هو المعنى الاول أي أنه من مادة (آله) بمعنى العبادة . وقد توضح مما ذكرنا أن اصرار البعض على أن (اله) لا يعني (معبود) غير مقبول أبداً .

١ - سورة الاعراف : الآية ١٣٨ .

٢ - سورة طه : الآية ٩٧ ، وآيات كثيرة اخرى .

جمع الآيات وتفسيرها:

انظر جيداً، هل ترى خلاً:

تقول الآية الاولى بعد الاشارة الى خلق السماوات: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾.

إنَّ هذا العالم الواسع بكل ما يتضمنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومتربط ومتّحد ومنظم، وإنَّ وجود الاختلاف في اللون والشكل والوزن وسائر الكيفيات الظاهرية والباطنية أو الكمية أمر طبيعي جداً، ولكن الشيء الذي لا وجود له هو اللاتناسق واللاتظام والاختلال.

ولذا تقول الآية في ذيلها ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾؟ والمراد من ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ هو النظر الدقيق والعميق، والمخاطب في هذه الآية وإن كان هو النبي (ﷺ) ولكن من الواضح أن المراد هم البشر جميعاً، وتضيف الآية: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^(١).

بهذا يقوم القرآن الكريم وبتعابير مختلفة بدعوة البشر الى النظر في عالم الوجود ولا يكتفي بالدعوة بل يرغبهم ويحركهم ويحرضهم على هذا العمل، كي يعلموا أنهم لا يجدون خلاً أو نقصاً فيه، وعندما لا يرون ذلك فسوف يتعرفون على حقيقة توحيد المبدأ والوحدانية ويرددون جملة (لا اله إلا الله) قلباً ولساناً.

هناك نقطة جديدة بالاهتمام وهي أن (نفي الاختلاف) من بين

١ - (ارجع البصر) كناية عن النظر المتكرر والمقرون بالدقة والاهتمام، و(خاسيء) من (خسئاً) ويعني الانقباض والانغلاق المقرون بالذلة ويمكن أن يكون هنا كناية عن الحرمان والفشل، و(حسير) في (حسر) ويعني الضعف وافتقاد القدرة وتعني في الاصل: الاحتفاء، وبما أن الشيء اذا ضعف فإنه يتجرد عن قدرته وطاقته استعمل هذا اللفظ بمعنى الضعف.

الموجودات في العالم والذي ورد في الآية اعلاه يعنى حسب اعتقاد البعض :
نفي العيب والنقص ، وقد فسّره بعض بمعنى نفي عدم الانسجام ، وبعض
بنفي الاضطراب والتزعزع ، وبعض بنفي الاعوجاج ، وبعض بنفي التناقض ،
في حين ان الآية لها مفهوم واسع يشمل كل هذه المعاني (هذه المفردة مشتقة
من (فوت) لان المتفاوتين يفقد كل منهما الصفات المختصة بالآخر) .



ماذا لو كان في العالم الهان ؟

الآية الثانية تُعرض هذا المضمون في اطارٍ آخر وصورةٍ اخرى حيث
تقول : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾^(١) .

وفي التعبير بـ «من الأرض» اشارة لطيفة وهي انهم (أي المشركون) كانوا
يصنعون ألهتهم من الحجر والخشب والمعادن وهي موجودات ارضية ، فهل
بإمكان هذه الموجودات أن تكون خالقة للسموات الواسعة وأن تكون
الحاكمة والمدبرة والمديرة لها ؟ !

ثم تضيف الآية في مقام الاستدلال على بطلان عقيدتهم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا
آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

(فساد) يعني في الاصل - كما يقول الراغب في المفردات : خروج
الشيء عن حد الاعتدال كثيراً ام قليلاً ، في الروح أو الجسم أو الاشياء الاخرى
في العالم ويقابله (الصلاح) .

و (الفساد) هنا يعني الدمار والخراب والانظام والهرج والمرج

١ - لفظ (أم) في الآية - كما يقول جمع من المفسرين - منقطعة وتعني (بل) ، في حين اعتقد البعض بأنها
بمعنى هل الاستفهامية ، وبما أن المشركين لم يدّعوا أن الاصنام خالقة ، كان بمعنى الاستفهام الانكاري
اكثر مناسبة .

وتضيف الآية في آخرها - كاستنتاج - ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وخلاصة الاستدلال هي : لو تعدد المدير والمدبّر والخالق والحاكم والمتصرّف في هذا العالم فان العالم لا يمكن أن يتّسم بالنظام والتناسق ، وذلك لانتهاء التعدد في الآلهة الى تعدد التدبير والتصرف ، وبذلك يختل عالم الوجود ويتعرض للفساد والدمار حيث يريد كل واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وارادته .

وهنا يرد هذا الاشكال المعروف وهو : ما المانع من تعاضد الآلهة الحكمية فيما بينها لايجاد نظام واحد منسجم ؟ والاجابة على ذلك ستاتي في الايضاحات بإذن الله .



الآية الثالثة والاخيرة التي نبحثها تقدم هذا البرهان في اطار جديد حيث تقول : ﴿مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ .

ولو كان كذلك فإن كل اله ينفرد بمخلوقاته الخاصة ويفرض عليها تدبيره وتصرفه الخاص ، وسوف تكون الانظمة المختلفة والقوانين اللامنسجمة هي الحاكمة على العالم ، وسيكون هو السبب في انهيار الوحدة والتعادل في العالم ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ .

يكفي هذا لوحده دليلاً على اثبات وحدانيته تعالى حيث يتألف من المقدمتين المشار اليهما سالفاً وهما : إنّ عالم الوجود منظم ومتربط الاجزاء وتحكمه قوانين معيّنة (هذا من جهة) ولو كان في العالم خالقان ومدبران ومتصرفان لحصل الخلل وعمّت الفوضى نتيجة لتعدد مراكز القرار والتدبير

والتصرف (من جهة ثانية) .

والآية تشير في ذيلها الى امر آخر بقولها ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .
وهذا لوحده سبب آخر الى اختلال النظام في العالم واتصافه بالفوضى
وعدم الانسجام .

وهنا - ايضاً - يثار هذا الاشكال في الازهان وهو : أن هذه الآلهة الحكيمة
بامكانها أن تنسق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرض وحدة العالم الى
الاختلال وفقد النظام ، وسيأتي - كما اسلفنا - الجواب على هذا الاشكال في
الايضاحات .

وتستنتج الآية الكريمة اخيراً من هذين الدليلين حيث تقول في ذيلها :
﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ .



ايضاحات

١ - وحدة عالم الخلق من منظار علمي

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرقة :
الشمس ، القمر ، السماء ، النجوم الثابتة والمتحركة ، الانسان ، الحيوانات ،
انواع النباتات والعناصر المختلفة ، ولكن بعد شيء من الدقة والدراسة نجد أن
ذرات هذا العالم مترابطة ومتصلة الاجزاء حتى تبدو وكأنها شيء واحد ،
وكلما تعمقت دراستنا وتركزت ازددنا ايماناً بهذه الوحدة والاتحاد للأسباب
التالية :

١ - إن اجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها الى حد تكون فيه كأسرة
واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنها كانت في البداية شيئاً

واحداً متصل الاجزاء ثم انفصلت تدريجياً وبقيت مترابطة حتى بعد افتراقها .
وتقول الابحاث الفلكية في هذا المجال : إن مجموعتنا الشمسية غير
مستقلة ايضاً ، حيث أنها جزء من مجرة كبيرة تشكل مع المجرات الاخرى
مجموعة واحدة يعمل فيها قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة
الحلقات كما يعتقد العلماء بأن هذه المجرات كانت باجمعها شيئاً واحداً
متصلاً فانفصلت اجزاؤها تدريجاً .

٢ - الاجسام المختلفة والمتباينة تماماً تتركب - كما يبدو بالتحليل النهائي لها -
من عدد من العناصر المعينة وهي تلك - الموجودات البسيطة التي اكتشف
منها اكثر من (١٠٠) عنصر لحد الآن ، وهذه العناصر رغم اختلافها الشديد في
الظاهر نراها عند تحليلها الى اصغر اجزائه - أي الذرة - أنها متشابهة والفارق
فيها هو عدد الالكترونات والبروتونات .

٣ - من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرة هو الحاكم على العالم
الواسع أي المجموعات والمجرات ايضاً حيث تجمع قوة الجذب والطررد
هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الالكترونات في ذرة واحدة وفي
مدارات خاصة تدور حول النواة الاصلية دون ان تنفصل عن بعضها أو
تتجاذب فيما بينها .

٤ - الكائنات في الارض وإن بدت لنا متنوعة ، كما في الالوان التي نشاهدها
شديدة الاختلاف فيما بينها إلا أننا وبالتحليل النهائي نصل الى أن كل الالوان
ترجع الى امواج تختلف في شدة ذبذبتها وطول امواجها وقصرها .

٥ - إننا نسمع اصواتاً مختلفة تماماً ، ولكن علم الفيزياء الحديث يقول بأن هذه
الاصوات كلها ، الجميلة منها والقييحة ، الخفيفة والصاخبة ترجع الى مبدأ
واحد هو عبارة عن امواج خاصة تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها .

٦ - للاحياء انواع كثيرة جداً ، فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الانواع ،

والنباتات لها انواع تفوق ذلك ، غير أن علماء النبات والحيوان يقولون : أنها مركبة من مادة واحدة ، ومؤلفة من الخلايا التي يحكمها نظام واحد ، ولذا تجرب الادوية التي يراد معرفة درجة تأثيرها في الانسان على الحيوانات أولاً في الغالب .

٧ - توصل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة الى هذه النتيجة وهي : أن العناصر التي تتركب منها الكواكب السماوية تشابه الاجزاء التي تتركب منها كرتنا الارضية . وهذا يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الاجرام والنجوم في الكون .

٨ - القوانين المختلفة التي تحكم الكون مثل ، قانون الجاذبية ، وسرعة النور ، وقانون الحركة وامثالها توجد بنفسها في كل مكان وتتبع منهجاً واحداً ، ولذا فإن العلماء وباجراء تجارب على نموذج واحد أو عدة نماذج في الأرض يكتشفون قانوناً شاملاً يحكم عالم الوجود كله ، كما نجد أن « نيوتن » اكتشف قانون الجاذبية الساري في كل المجموعات والمجرات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة !

وباختصار ، كما قرأنا في الآية الاولى من آيات هذا القسم ، أننا لانرى اي اختلاف في خلق الرحمن ولا فطور أو خلل ، وكلما تقدم العلم والفكر البشري كلما تجلت عظمة هذه الآية وعمقها اكثر فاكثر ، وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم .



٢ - ايضاح برهان التمانع

إنَّ برهان التمانع الذي يعبر عنه بـ (برهان الممانعة) أو (برهان الوحدة والتناسق) يتألف من مقدمتين :

الاولى: الانسجام والوحدة والتناسق في عالم الخلق الذي تقدم بحثه .
 الثانية: اذا كانت القوى الحاكمة على هذا الكون قوتين أو اكثر فإن ذلك يؤدي الى حدوث الاختلاف والاختلال ، وبما اننا لا نلاحظ أي اختلال أو لاتعادل في هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه ، ندرك أنها تنشأ من مبدأ واحد وأنها مخلوقة ومدبرة ومنظمة من خالق واحد .

الآية الاولى من بين الآيات السابقة تشير في الحقيقة الى المقدمة الاولى ، والآية الثانية والثالثة تشيران الى المقدمة الثانية ، ولذا قد يطلق على هذا البرهان : (برهان الوحدة والتناسق) بالنظر الى المقدمة الاولى .

وقد يعبر عنه بـ (برهان التمانع) بالنظر الى المقدمة الثانية ، وبناء على ذلك فإنهما يرجعان الى دليل واحد ، غير أن النظر اليه يتم من زاويتين مختلفتين .

الاجابة عن سؤاليين

السؤال الاول:

إنَّ هذا السؤال يُطرح من قبل الكثير وهو أن تعدد المبدأ لا يكون سبباً لاختلال النظام دائماً فإننا نشاهد مجموعات تطبق برنامجاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها ، فلو افترضنا أن للعالم آلهة فإن التعدد هذا يكون منشأ للفساد في العالم حين وقوع النزاع فيما بينها ، ولكن اذا اقررنا أنها حكيمة وواعية فإنها تدبر امور الكون بنظام خاص وبتعاون فيما بينها حتماً .

الجواب:

هذا السؤال والاشكال وإن كان ملفتاً ابتداءً ولكنه يتضح بعد التدقيق أنه ناشيء من عدم ملاحظة مفهوم (التعدد).

وللتوضيح نقول : إننا عندما نقول آلهة متعددة فإنها تعني أنها ليست واحدة من كل جهة ، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنها تكون ذات وجود واحد ، وبعبارة أخرى : أينما وجد التعدد والاثنيانية وجب أن نقر بوجود اختلاف في الأمر ، وإلا فإن من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات .

ومن جهة أخرى يوجد (تناسب) و (سنخية) بين (الفعل) و (الفاعل) دائماً ، فكل فعل يكون من آثار فاعله ويتصف بلونه - شئنا أم أبينا - وبهذا يستحيل أن يصدر إعلان من فاعلين ثم يكونان واحداً من جميع الجهات ، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساويين من حيث الادارة والعمل ، واختلافهما في الوجود يترك اثره على ارادتهما وعملهما حتماً .

النتيجة هي انه لايمكن أن يصدر نظام واحد وخال من الاثنيانية من مبدأ متعدد .

وأما مايقال عن الاعمال الجماعية فلا بد أن نلتفت الى أن هذه الاعمال وإن اتصفت بنظام نسبي إلا أنها لا تتصف بنظام حقيقي ومطلق حيث يتنازل المتشاورون عن بعض آرائهم ورغباتهم للتعاون فيما بينهم لا أن رغباتهم وآراءهم واحدة دائماً ، اضافة الى أن الانظمة القائمة على الشورى قليلاً ماتعمل بصورة متفقة ، بل أنها تتبع النسبة الغالبة عادة وهذا دليل على صحة ماندعيه .

اضافة الى أن هذه الغالبية لاتكون اشخاصاً ثابتين دائماً بل متغيرين ، فتارة تكون الغالبية من سبعة أشخاص هذه الاربعة المعيّنة ، وتارة احد هؤلاء مع ثلاثة آخرين ، وبما أن الغالبية متغيرة لايمكن اذن ان تكون اعمالها واحدة . بهذه الأدلة الثلاث تتصف هذه الانظمة القائمة على الشورى بشيء من اللاتعادل ولكنها بسبب القناعة بالنظام النسبي يقال أنها منظمة ! لكننا لا نرى

في عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وانسجاماً كاملاً وتاماً .
 وبعبارة أخرى : لو افترضنا وجود مبدأين للكون فإنهما إما متساويان من
 جميع الجهات (فهما اذن واحد) أو مختلفان ومتباينان من جميع الجهات
 (حينئذ يكون خلقهما وتدبيرهما متقابلين) ولو كانا متشابهين من بعض
 الجهات ومختلفين في البعض الآخر فإن هذا الاختلاف والتمايز سوف يترك
 اثره على افعالهما لأن الفعل انعكاس لوجود الفاعل وظل وجوده .
 السؤال الثاني :

ويطرح هنا سؤال ثان بملاحظة جملة (ولعلا بعضهم على بعض) التي
 جاءت في الآيات المذكورة وهو : كيف يمكن وقوع النزاع بين آلهة يفترض
 أنها حكيمة ؟ ويميل بعضها للتغلب على البعض الآخر ؟ ولماذا يفترضهما
 المفسرون كسلطانين أنانيين في زمن واحد يتنازعان بصورة دائمة لتضارب
 المصالح ؟

الجواب :

ينشأ هذا السؤال من أنهم تصوروا ان الاختلاف بين المبدأين يجب أن
 ينشأ من هوى النفس والانانية دائماً ، في حين يمكن أن ينشأ الاختلاف من
 الاختلاف في التشخيص والقرار والارادة بين شخصين مهما كانا .

ويلزم أن نكرر هذه الحقيقة ونؤكد عليها وهي : أننا حينما نفترض وجود
 مبدأين للكون فإن الاثنينية تعني أنهما وجودان مختلفان من بعض الجهات
 حتماً وإلا فإن وجودهما واحد ، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعليه
 فإن هذا إله يجعل تكامل الكون ونظامه وتدبيره الصحيح في شيء في حين
 يجعل الثاني النظام والتكامل في شيء آخر ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور أنهما
 كاملان من جميع الجهات ، فإن افتراض الاثنينية يعني افتقاد كل واحد منهما

كمالات الآخر المختصة به ، فلا يتصور لهما حينئذ الكمال المطلق ، بل إن نقصانهما النسبي حتمي ، فلا عجب في أن يختلفا في العمل والارادة والقدرة ، ورغبة كل واحد في ادارة الكون وفق مايراه فيضاً كاملاً.

برهان الوحدة والتمانع في الروايات الاسلامية

لقد ورد الدليل اعلاه بشكل واضح ومختصر في الروايات الاسلامية ، فقد ورد في حديث أن (هشام بن الحكم) سأل الامام الصادق (عليه السلام) : ما الدليل على أن الله واحد ؟

فاجاب الامام (عليه السلام) : «اتصال التدبير وتماص الصنع كما قال الله عز وجل : لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا»^(١).

وفي حديث آخر نقله الكليني (عليه السلام) في الكافي عن هشام أن الامام الصادق (عليه السلام) قال في مسألة التوحيد جواباً للرجل الزنديق : «لما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهار والشمس والقمر دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الامر على أن المدبّر واحد»^(٢).



١ - تفسير البرهان : ج ٣ ، ص ٥٥ الحديث ٢ .

٢ - المصدر السابق : الحديث ١ .

(٣)

دليل صرف الوجود

تمهيد :

إنَّ الله سبحانه وجود لا نهاية له من كل جهة - كما سيأتي شرحه مستقبلاً - ومن المؤكد أن مثل هذا الوجود لاسبيل للاثنيانية اليه ، فمن غير الممكن وجود موجودين لانهايين ، لأن الحديث اذا كان عن الاثنيانية فإن كل واحد يكون فاقداً للوجود الثاني وبتعبير آخر أننا نصل الى حد ينتهي فيه الوجود الاول ويبدأ وجود الثاني ، وعليه فإن الوجود الأول محدود وهكذا الوجود الثاني لأن كل واحد يكون ذا بداية ونهاية ، ولنوضح هذه القضية بمثال :

شخصان يملك كل واحد منهما بستاناً ، ومن الطبيعي أن لكل بستان حدوداً حتماً ، ولو فرضنا أن مساحة البستان الاول تشمل كل الارض فأين تكون مساحة البستان الثاني ؟ اذن ، سيكون امامنا بستان واحد في الارض .

وعليه فإن الحديث عن اللامحدود يعني الحديث عن الوحدة .

والمراد من برهان (صرف الوجود) هو أن الله سبحانه وجود مطلق ومجرد عن القيد والشرط وغير محدود ، ولا يفترض الثاني له ابدأ .

بهذا التمهيد نتوجه الى القرآن الكريم ونستمع خاشعين الى الآيات

التالية :

١ - ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة آل عمران - ١٨ .

٢ - ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

مَوَالاتُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَمَوْ بِكُلِّ شَيْءٍ

عليه سورة الحديد - ٢، ٣.

٣ - يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرَّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

القهار سورة يوسف - ٣٩.

جمع الآيات وتفسيرها :

الله شاهد على وحدانية ذاته

تم تفسير آية البحث الاولى في مباحث (برهان الصديقين) السالفة ونمر عليها هنا باختصار.

إن مضمون هذه الآية هو أن الله عز وجل يشهد على وحدانيته وكذلك الملائكة والعلماء (كل واحد بشكل) «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ».

ومن علامات وحدانية ذاته المقدسة هي حكومة النظام والعدل على الكون، ولعل الآية تشير الى هذا الجانب في ذيلها «قَائِمًا بِالْقِسْطِ» ثم تستند الى وحدانية ذاته المقدسة مرة اخرى وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ومن البديهي أن لو كانت ثمة آلهة تحكم الكون، فإن منطقة كل اله لا تكون في اختيار الثاني، وبتعبير آخر يكون كل واحد فاقداً لقدرة الثاني، وهذا لا ينسجم اتصافه بـ (العزیز).

كما أن حكمته التي تحكم العالم آية اخرى على وحدانيته، فلو تعددت الاكوان كانت نهايتها الفساد والدمار.

أما كيفية شهادة الملائكة بوحدانية الله عز وجل فإنها واضحة، ولكن هناك كلام بين المفسرين حول كيفية شهادة الله على وحدانية ذاته، فبعض يقول: المراد هو الشهادة اللفظية التي وردت في آيات قرآنية مختلفة، وبعض

يقول: إن آثار وحدانية ظاهرة في عالم الوجود في الآفاق والانفس لأن النظام الواحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة الله على وحدانيته .
إن كل ذلك صحيح ، ولكن تضاف اليها شهادة اخرى وتستحق التفصيل فيها وهي أن ذاته المقدسة بنحو يأبى التعدد ، وجود لانهاية له ، والوجود اللانهائي واحد فقط ، فذاته اذن دليل على وحدانية ذاته (فتأمل جيداً) .

ولامنافاة - طبعاً - بين التفسيرات الثلاث ويمكن أن تكمن في مفهوم الآية ، وعليه فإن إصرار بعض المفسرين مثل صاحب (الميزان) في أن تفسير الآية ينحصر في المعنى الاول (الشهادة اللفظية) مع ملاحظة اطلاق لفظ الآية مما لا يوجد دليل واضح عليه .

أما السبب في تكرار جملة (لا إله إلا الله) في الآية ، فالظاهر هو أن الاولى بمثابة المقدمة ، والثانية النتيجة ، ولعل في الرواية التي وردت في تفسير القرطبي (المفسر السني المعروف) عن الامام الصادق (عليه السلام) اشارة الى هذا المعنى حيث يقول فيها: الاولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم يعني ﴿قولوا لا اله إلا الله العزيز الحكيم﴾^(١) .



هو الاول والآخر والظاهر والباطن

الآية الثانية وهي من الآيات الاولى من سورة الحديد - ونعلم أن هذه الآيات تتضمن بياناً دقيقاً وظريفاً عن صفات الله الجمالية والجلالية لذوي الافكار الشاقبة ، كما يستفاد من الحديث الوارد عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) - يقول عز وجل: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ولذلك فإن

١ - تفسير القرطبي: ج ٢ ص ١٢٨٥ .

٢ - لاحظ أن في تقديم (له) اشارة الى الحصر ، ويعني أن ملك السماوات والارض منحصر في ذاته المقدسة .

الحياة والموت في قبضته ايضاً ﴿يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَمُؤَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .
وعليه فإن المدير والمدبر لهذا الكون هو ذاته المقدسة فقط .

وفي ذيل الآية توجد قضية يمكن أن تكون دليلاً على التوحيد في مالكيته
وحاكميته وتدبيره حيث تقول : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَمُؤَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾ .

في هذه الآية بيان لخمس صفات من صفاته المقدسة وتدل بمجموعها
على أن ذاته لانهاية لها ، فهو اول كل شيء ، وآخر كل شيء ، وهو الموجود
في الظاهر والباطن ، وله الحضور العلمي في كل مكان ، وإن مثل هذا الموجد
لا يتصور أن يكون له ثانٍ ، فلو كان الاله الثاني موجوداً فإنه يعني أن الاثنين
محدودان وذلك لانتهاه كل واحد عندما يصل الى الآخر . ويبدأ الثاني .

اذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته ، يقول الفخر الرازي في
تفسيره : استدل الكثير من العلماء على اثبات وحدانيته بعبارة : (هو
الاول) ^(١) .

وقد كثر الكلام حول مفهوم (الاول والآخر والظاهر والباطن) وستأتي
لاحقاً ابحات الصفات الثبوتية باذن الله ، وينبغي ان نذكر هنا هذه النقطة وهي :
أن الاول في الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخرها وما كان آخراً
لا يكون اولاً ، كما أن الوجود الظاهر لا يكون باطناً ، والوجود الباطن لا يكون
ظاهراً ، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإن هذه المفاهيم تكون
مجتمعة فيه .



١ - تفسير الفخر الرازي : ج ٢٩ ص ٢١٣ (وجاء هذا المضمون في تفسير روح البيان ج ٩ ، ص ٣٤٧
ايضاً) .

الآية الثالثة والاخيرة التي نبحث فيها تتحدث عن لسان يوسف (عليه السلام) عندما فسر للسجينين معه حلميهما بعد أن طلبا التفسير منه وتشير الى أن يوسف عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره الى البحث عن التوحيد الذي يتضمن اصل السعادات برمتها وقال لهما: **«يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَّفَقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»**.

والملاحظ أن صفة (قَهَّار) قد تكررت في القرآن الكريم ست مرات^(١) وقد وردت في كل مورد بعد الصفة (واحد) مما يدل على وجود علاقة بينهما وأن قاهرته دليل على وحدانيته (فتأمل جيداً).

قام يوسف (عليه السلام) بطرح المسألة اولاً على وجدانيهما، وبما أن حقيقة التوحيد - كما اشرنا سالفاً - كامنة في أعماق الفطرة الانسانية فقد أقام المحكمة بين يدي الوجدان وسأل: **«أَرَبَابٌ مُتَّفَقُونَ، إله البحر، إله الصحراء، إله الارض، إله السماء، إله الماء، إله النار، وهكذا الملائكة والجن والفراعنة والاصنام الحجرية والخشبية والمعدنية التي تعبدونها خير أم الله الواحد المهيمن على كل شيء؟ وكلمة (قَهَّار) صيغة مبالغة من (القهر) ويعني كما يقول الراغب في المفردات: الغلبة وإذلال الطرف المقابل، ولكن هذا اللفظ يستعمل في كل واحد من هذين المعنيين (الغلبة والاذلال) مستقلاً، وكما يقول الطبرسي في مجمع البيان: القاهر هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، من هنا تتضح العلاقة بين صفة الوحدة والقاهرية، فحينما ندعن يقدرته الغالبة على كل شيء أي أنها غير محدودة فإننا لانتصور له ثانياً، لأن كل ماسواه مغلوب له ومفهور، ولذلك لا يمكن أن يكون ماسواه واجب الوجود وغير محدود (فتأمل جيداً).**

١ - سورة الرعد: ١٦، ابراهيم: ٤٨، ص: ٦٥، الزمر: ٤، غافر: ١٦، وآية البحث.

ايضاحات

١ - انه حقيقة لامتناهية

القضية الاولى والاكثر اهمية في باب (صفات الله) الواجب اثباتها لايضاح مسألة التوحيد وصفات الله الاخرى كالعلم والقدرة وامثالها هي أن ذاته المقدسة لامتناهية، فإن ثبتت هذه القضية وفُهمت جيداً تيسر الطريق الى جميع الصفات الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية).

ولإثبات هذا الامر وهو أنه تعالى وجود لانهاية له، لابد من ملاحظة

النقاط التالية :

أ - محدودية الوجود تعني التقارب مع (العدم) فلولاً لعدم لا يستقر مفهوم للمحدودية، فعندما نقول : إن عمر فلان محدود فإنه يعني أن عمره سينتهي الى العدم ومقرون بالعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وامثالها.

ب - الوجود ضد العدم ولو كان الشيء مقتضياً للوجود ذاتاً فإنه لا يقتضي العدم ابداً.

ج - ثبت في برهان العلة والمعلول أن سلسلة العلة والمعلول في هذا الكتاب يجب أن تنتهي الى نقطة ثابتة وازلية نسميها واجب الوجود، أي وجوده ناشيء من أعماق ذاته لا خارجها، وعليه تكون العلة الاولى للكون تقتضي الوجود ذاتاً.

أعد قراءة هذه المقدمات الثلاث بدقة وفكر فيها جيداً، فسوف يتضح أن واجب الوجود اذا تحدد فإنه يجب أن يكون من الخارج، لان المحدودية طبق هذه المقدمات تعني الاقتران بالعدم، والشيء المقتضي للوجود ذاته لا يقتضي العدم ابداً، ولو اتصف بالمحدودية فإنه راجع الى عامل خارجي،

ويستلزم هذا القول أنه ليس واجب الوجود لانه مخلوق لغيره من حيث حدّه الوجودي ومعلول لغيره .

وبعبارة اخرى : لدينا واجب الوجود دون شك (لأن البحث في التوحيد والوحدانية بعد اثبات واجب الوجود) فإن كان واجب الوجود غير محدود فمدّعانا ثابت ، وإن كان محدوداً فإن هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته ابداً ، لاقتضاء ذاته الوجود دون اقتران بالعدم ، فلا بد من فرضه عليه من الخارج ، ومفهوم هذا الكلام هو وجود علة خارج ذاته وهو معلول تلك العلة ، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود ، والنتيجة هي أنه وجود غير محدود من كل جهة .

٢ - الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً

ثبت في البحث السابق أن الله عز وجل وجود غير محدود وغير متناهٍ ، وهنا نقول : أن مثل هذا الحقيقة تأبى الاثنينية ولا تكون إلا واحدة لما قلنا مراراً أنه لا يمكن تصور شيئين غير محدودين أبداً ، حيث تقترن الاثنينية بالمحدودية دائماً وهذا امر واضح لأن تصور الوجودين ممكن حينما يكون كل وجود منفصلاً عن الآخر ، فكل واحد ينتهي عند الوصول الى الثاني ويبدأ الآخر .

واختبار هذا الامر يسير ، تصوّر على سبيل المثال ضوء غير مقيد أو مشروط بزمان أو مكان أو وسعة أو مصدر وغير محدود من أية جهة ، فهل يمكنك أن تتصور ضوءاً ثانياً مثيلاً له ؟ ! فبال تأكيد سيكون الجواب : كلا ، لأنّ كل ماتصوره هو الاول إلا أن تضيف اليه شرط أو قيد وتقول : الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك .

بعبارة أخرى عندما نقول : يوجد ضوءان في الخارج فإنه إما بملاحظة زمانيهما أو مكانيهما أو مصدريهما أو شدة نوريهما ، ولو تجردا من كل قيد أو شرط فإنهما سيكونان واحداً قطعاً (فتأمل جيداً) .

ولعل الآية الكريمة التي تقول : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَأَنتُمْ حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) تشير الى هذا المعنى حيث لا يمكن الاستدلال على وجود ندى لله سبحانه ابدأ ، فكيف يمكن الاستدلال على أمرٍ لا يمكن تصوره ؟

٣- دليل صرف الوجود في الاحاديث الاسلامية

إنَّ البرهان المذكور نقل بقول جميل في رواية عن الامام السجاد (عليه السلام) حيث قال : «ان الله لا يوصف بمحدودية ، عظم ربنا عن الصفة وكيف يوصف بمحدودية من لا يحد»^(٢) .

ونقرأ في حديث آخر عن الامام الرضا (عليه السلام) : «هو أجلّ من أن تدركه الابصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل» فسأل سائل : فما حدّه ؟ فقال (عليه السلام) : «انه لا يحدّ ، قال : لم ؟ قال (عليه السلام) : لأن كل محدود متناه الى حد ، فاذا احتل التحديد احتل الزيادة ، واذا احتل الزيادة احتل النقصان ، فهو غير محدود ، ولا متزايد ولا مُتَجَزِّء ولا متوهم»^(٣) .



١- سورة المؤمنون : ١١٧ .

٢- اصول الكافي : ج ١ ، ص ١٠٠ باب النهي عن الصفة ، الحديث ٢ .

٣- بحار الأنوار : ج ٣ ، ص ١٥ ، الحديث ١ .

(٤)

دليل الفيض والهداية

دعوة الانبياء جميعاً

الى الله الواحد

تمهيد :

إنَّ الله سبحانه وجود كامل ، ومثل هذا الوجود يكون مصدراً للفيض على الآخرين وكمالهم ، فهل يعقل أنَّ مصدر الكمال يحرم الموجودات الاخرى من فيضه ولا يعرفهم - على الأقل - نفسه ؟ مع أن هذه المعرفة سبب لرفيهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفيّاض .

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أنه لو كان هناك عدة آلهة لوجب أن يكون لكل اله منهم رسل ، وأن يعرف نفسه الى مخلوقاته ، وأن يشملهم بفيضه التكويني والتشريعي .

والنتيجة هي : أننا لو وجدنا أن الرسل بأجمعهم يخبرون عن اله واحد ، لاتضح أن غيره لا وجود له .

بهذا التمهيد نرجع الى القرآن الكريم ونستمع خاشعين الى الآيات

التالية :

١ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُون﴾ سورة الانبياء - ٢٥ .

٢ - ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا

يُعْبَدُونَ﴾ سورة الزخرف - ٤٥ .

٣ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ

فِي السَّمَاوَاتِ إِنْ تُوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ سورة الاحقاف - ٤ .

جمع الآيات وتفسيرها:

دعوة الانبياء العامة الى الله الواحد

إِنَّ آيَةَ الْبَحْثِ الْأُولَى تُشِيرُ إِلَى تَارِيخِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَقُولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

أجل فإن الانبياء جميعاً كانوا ينادون بالتوحيد ويدعون الناس الى الله الواحد ويشهد تاريخهم بهذا الأمر، فكيف يعقل أن يكون للشرك حقيقة وجميع الانبياء يدعون الى التوحيد؟!

فهل كان هناك اله آخر ولكنه لم يعرف نفسه؟ أو أن الرسل قصّروا في ابلاغ امره؟ والعقل السليم لا يقرّ بقول من هذه الأقوال.

وكما يقول بعض المفسرين: يقوم القرآن الكريم في آيات هذه السورة (الانبياء) بالاستدلال العقلي أولاً لاثبات التوحيد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ...﴾ ثم بالدليل النقلى (آية البحث) حيث دعا جميع الانبياء الماضين الى التوحيد^(١).



أمّا الآية الثانية فهي: تطرح هذا المضمون في اطار آخر حيث تخاطب النبي (ﷺ) (المراد هم الناس طبعاً) وتقول: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾.

وقد احتمل المفسرون عدة احتمالات في كيفية امر الرسول (ﷺ) بأن يسأل الانبياء السابقين مع عدم حضور احدهم في عصره، فقد قال البعض:

أن المراد هو السؤال من الامم السابقة كي تثبت القضية عن طريق الخبر المتواتر، فالامم حتى التي تعتقد بالتثليث وامثاله ، عندما تسأل عن ذلك فإنها تعلن عن اعتقادها بالتوحيد وتعبر عن ذلك بـ (التثليث في الوحدة) .

وهذه الآية تعطي - في الحقيقة - مفهوم الآية ٩٤ من سورة يونس حيث خاطبة تعالى بقوله : ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرُؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ، وقد احتمل هذا ايضاً وهو : أن المراد هو مراجعة كتبهم المتبقية في اممهم ، فإن استخراج القضايا منها بمثابة السؤال عن اولئك الانبياء .

وقال جماعة ايضاً : أن المراد هو سؤال النبي (ﷺ) من ارواح الانبياء (عليهم السلام) السابقين ليلة المعراج بل في غير ليلة المعراج ، لأن روح نبي الاسلام (ﷺ) من العظمة مالا يعيقها البعد الزمني والمكاني فكان بإمكانه أن يتصل بارواح الانبياء السابقين .

وبما أن الهدف الرئيس من الآية هو الاستدلال امام المشركين ، فقد كان المعنى الاول والثاني هو المناسب وذلك لان الارتباط المعنوي للنبي (ﷺ) مع ارواح الانبياء السابقين لم يتقبله المشركون وكان مفيداً للنبي (ﷺ) نفسه ، وإننا نعلم أن ايمان النبي بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها الى طرح مثل هذا السؤال لنفسه .

والتفسير الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطني للآية وقد تضمنت روايات متعددة الاشارة الى ذلك ^(١) .

على كل حال فإن المراد هو أن دعوة نبي الاسلام (ﷺ) الى التوحيد ليس امراً جديداً أو عجيباً بل امر قد اتفق عليه جميع الانبياء الالهيين وهذا بنفسه دليل واضح على قضية التوحيد .

والاستناد الى الاسم المقدس (الرحمن) في هذه الآية اشارة الى أن من يستحق العبودية هو الاله الذي تشمل رحمته العامة حتى الكافرين المشركين والبشر جميعاً، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولي نعمتهم الذي غمرهم احسانه ويتوجهوا الى الاصنام الخاوية ؟

هل تمتلكون دليلاً على الشرك ؟!

إنَّ الآية الثالثة والاخيرة صَمَّت الدليل النقلي المذكور الى جانب دليل عقلي آخر اذ تقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ .

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقية فإنها ينبغي أن تكون مبدأ للفيض ، وعلى الاقل أن تخلق قسماً من الارض وتساهم في خلق السموات ، فهل يعقل أن يكون الاله فاقداً للفيض ؟

ومن جهة اخرى : أي نبي دعا الناس الى آلهة متعددة ؟ ﴿اثْنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

وهذا التعبير يشير الى أن الانبياء (عليهم السلام) اجمعوا على التوحيد ، وهذا الاجماع أو الاتفاق دليل واضح على القضية ، وبهذا يكون كتاب الخلق دليلاً على التوحيد وكذلك كتب الانبياء السابقين .

(اثارة من علم) من مادة (اثر) ولهذا اللفظ - كما في (مقاييس اللغة) - ثلاث معانٍ : التقديم والذكر وأثر الشيء .

وقد ورد هذا المضمون في تفسير الفخر الرازي ولكن بتعبير آخر حيث ينقل المعاني الثلاث لـ (اثار) ^(١) .

ايضاحات

الفيض والهداية في الروايات الاسلامية

ورد (برهان الهداية والفيض) في الروايات الاسلامية الى جانب القرآن الكريم ، فقد تحدث الامام علي (عليه السلام) في وصيته المعروفة الى الامام الحسن (عليه السلام) عن هذا البرهان ببيان جميل وواضح حيث قال : «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت افعاله وصفاته ولكنه اله واحد كما وصف نفسه»^(١).

توضيحه : إن الله حكيم ، والاله الحكيم له آثار الهداية والفيض حتماً ، في عالم التكوين والخلق وفي عالم التشريع والدين ، فكيف يمكن أن يوجد اله آخر ولا نرى آثار صنعه في ساحة الوجود ولان شاهد علامة من رسله ؟ وهذا لا ينسجم مع حكمته ابدأ لأن في ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته .

ثم أن دعوة الانبياء المرسلين من قبل الله جميعاً لا تنسجم مع فرض وجود الهين ، فهل يعقل أن يطرح الاله الذي يرسل الانبياء قضية غير صحيحة ويدعو الى التوحيد كذباً ؟! فهذا لا ينسجم مع حكمته ايضاً .

ولا ينحصر طريق اثبات وحدانية الله في هذا الدليل فقط لوجود ادلة اخرى اشرنا اليها سابقاً ، أما اجماع الانبياء (عليهم السلام) واتفاقهم على الدعوة الى الله الواحد فهو يعد دليلاً مستقلاً .



٥- برهان التركب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلاً خامساً على إثبات وحدانية ذات الله المقدسة ولم نعثر على آية قرآنية تصرح بذلك، ولذا نورد على شكل إيضاح في ختام هذا البحث وخلاصته :

لو كان لله مثيلٌ فهما متشابهان من حيث الوجود ولكنّ اثنيتهما توجب أن تكون لكل واحد منهما خصوصيات، وبهذا يكون كل واحد مركباً من جزأين، (مابه الاشراك) و(مابه الامتياز) وحينئذ لا بد أن ندّعي بأن كل واحد منهما محتاج الى اجزائه، لأن المركب لا يكون بدون اجزائه، ولو كان محتاجاً فإنه لا يكون واجب الوجود، لأن واجب الوجود والمبدأ الاول للكون غني عن كل شيء.

فهو اذن لا مثيل له كما أنه لا اجزاء له، ولو كان له مثيلٌ فإنه سيكون ذا اجزاء قطعاً، فهو اذن وجود بسيط من كل جهة ولا شريك ولا مثيل له من كل جهة.



٦- التوحيد والأدلة النقلية

إنّ الأدلة الخمسة المذكورة هي ادلة عقلية لأثبات وحدانية ذات الله المقدسة، ويمكن هنا الاستفادة من الدليل النقلي ايضاً، لأنه بعد اثبات وجود الله وإثبات نبوة رسول الاسلام (ﷺ) وصدق دعوته، فإن ما جاء في هذا الكتاب السماوي (أي القرآن الكريم) هو تبيان للحقائق التي لا تُنكر، وهو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل الله الحكيم والصادق، ومثل هذا

الانسان لا يقول قضية خاطئة .

من هنا يمكن الاستعانة بآيات القرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة ، والقرآن الكريم زاخر بهذه الآيات ، بل أن أي موضوع لم يتكرر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكد صفة من صفات الله الى هذا الحد .

يقول المرحوم العلامة المجلسي (رحمته الله) في بحار الأنوار لدى استدلاله بهذا الدليل .

من الواضح أن وجود الدليل النقلي لا يتعارض مع الاستدلالات العقلية (الادلة السمعية من الكتاب والسنة وهي اكثر أن تحصى ولا محذور في التمسك بالادلة السمعية في باب التوحيد وهذه هي المعتمد عليها عندي)^(١) خاصة وأن الادلة العقلية المذكورة لها جذور في الكتاب والسنة الشريفة .

مصادر الشرك الهامة

١- إتياع الأوهام

تمهيد :

بما أن الفطرة الانسانية - كما اسلفنا في بداية بحث التوحيد - قد نشأت على التوحيد والوحدانية ، كما إن الأدلة العقلية والنقلية الواضحة تعزز هذه الفكرة ، فإن هذا السؤال يطرح نفسه وهو : ما السبب اذن ان ينبت الشرك وينمو كالشوك في طريق معرفة الله على ارض الانسان ؟ وما المصدر لهذا الانحراف الكبير أو الانحراف الفكري الاكبر لدى الانسان ؟

يمكن الكشف عن هذه القضية والتدليل على المصادر الرئيسة للشرك عن طريق دراسة تاريخ الانبياء (عليهم السلام) والامم المختلفة والحجج التي تمسك بها عبدة الاصنام لتبرير موقفهم على طول التاريخ ، ومن البديهي ان التعرف على هذه المصادر يعين بشدة على محاربة هذه الآفة الكبيرة ، لأن معرفة عوامل الامراض تمهّد الطريق الى علاجها دائماً .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونستمع الى الآيات التالية :

١ - ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الكاثيرون﴾ سورة المؤمنون - ١١٧ .

٢ - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يوسف - ٦٠ .

٣ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَالِيسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ نَصِيرٍ﴾ . سورة الحج - ٧١ .

٤ - ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ سورة يونس - ٦٦.

٥ - ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سورة يونس - ٣٦.

٦ - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ سورة النجم - ٢٣.

٧ - ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ سورة الانبياء - ٢٤.

شرح المفردات :

(الظن) يعني - كما يقول الراغب في المفردات -: الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شيء فإن قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنه لا يتجاوز حد الوهم ، وأما ابن منظور فإنه يقول في لسان العرب : يستعمل الظن بمعنى الشك واليقين كليهما إلا أنه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبر ، وأما الحاصل عن طريق المشاهدة فإنه يطلق عليه بـ (العلم).

وفي النهاية لابن الأثير: إن الظن يستعمل تارة بمعنى العلم واخرى بمعنى الشك وتارة بمعنى التهمة .

وقد استعمل هذا اللفظ في آيات البحث بمعنى الاوهام الواهية وعديمة الاساس (الآيات نفسها تتضمن قرائن على هذا المعنى وستتم الإشارة إليها).

خرُص على وزن (غُرس) يعني كما يقول صاحب (صحاح اللغة) تخمين وزن التمر الذي يحصل من رطب النخيل ، كما اورد الراغب هذا المضمون في

مفرداته .

ثم اطلق على كل حدس وتخمين وبما أنهما لا يصيبان دائماً ، فإنه استعمل بمعنى الكذب ايضاً ، وهذا اللفظ يطلق في الاساس على كل ظن لا اساس راسخ له .

كما أن هناك معانى اخرى لمشتقاته مثل (الرمح) (الحلقة) و (الحوض الكبير الذي يكون على ساحل النهر ويدخل فيه ماؤه ويرجع منه) ولا يبعد أن ترجع هذه المعانى كلها الى الجذر نفسه حيث يقترن التخمين والظن بالتزلزل وعدم الثبات ويتصف الرمح والحلقة والحوض الخاص المذكور بهذا الوصف^(١) .

(برهان) هو الدليل القطعي المحكم وجاء ايضاً بمعنى الدليل والايضاح ، ويقول الراغب في المفردات : البرهان يعني البرهان المحكم ، ويعتقد البعض أنه مشتق من (بَرَّة) ويعني الابيضاض ، ثم اطلق على كل كلام واضح وصريح ليس فيه أي ابهام ، أو الامور الواضحة التي لا خفاء فيها^(٢) . وما ورد في الحديث : (الصدقة برهان) لعلّ لما للاتفاق في سبيل الله من دلالة على صحة ايمان الانسان .

(سلطان) ويعني في الاصل - كما في مقاييس اللغة - القوة والقدرة المصحوبة بالغلبة وبما أن الاستدلال القوي يكون سبباً لتغلب الانسان على طرفه المقابل فإن لفظ (سلطان) اطلق على الدليل المحكم ايضاً .

(سليط) ورد تارة بمعنى الرجل الفصيح ، واخرى بمعنى الانسان

١ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم - مادة خرص .

٢ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم والكلمات التي نلاحظها مثل (برهن ، يبرهن) أو الوصف (مبرهن) فإنه لون من الاشتقاق الانتزاعي نظير كلمة (سلطان) المشتقة من سلط (سلطن يسلطن) .

المزعج وبذي اللسان و (سليطة) الذي يستعمل فى النساء يحمل على هذا المعنى الاخير وكلها مشتقة من ماده (سلطة).



جمع الآيات وتفسيرها:

الغطس في عالم الاوهام!

تؤكد آلاية الشريفة الاولى من خلال الاشارة الى عقوبة المشركين على حقيقة أن (الشرك) ليس له أي دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والاهام فنقول: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

ومن الملاحظ أن عقوبة المشركين هنا غير موضحة بل تقول الآية: ﴿حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وهو اكبر تهديد، لأن العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبرة (لا برهان له) تفيد - في الواقع - هذا الامر وهو: أن الشرك لا يدل عليه أي دليل سواء كان عقلياً أو نقلياً ولا تنسجم الفطرة معه ولا المنطق، بل كلما امعنا النظر في هذه القضية ظهر بطلانها اكثر.

والتعبير بـ ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ شامل ينفي كل فلاح عن الكافرين في الحياة المادية والمعنوية، في الدنيا والآخرة، ويؤيد هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون.



اسماء بلا عناوين

طرحنا الآية الثانية هذا المضمون في اطار جميل آخر وتقول عن لسان

يوسف (عليه السلام) وهو يخاطب رفيقيه في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ والشاهد على ذلك هو أنها ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، فلو كانت حقائق لقام عليها الدليل العقلي والنقلي، فمن المحال أن يفقد الدليل أمر بهذه الدرجة من الأهمية (وهو وجود الشريك لله عز وجل)، وعدم الدليل هذا دليل على العدم!

من هنا تستنتج الآية في الخاتمة ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ و ﴿أَمْرًا أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ و ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وكل جملة - في الحقيقة - في هذه الآية بمثابة دليل على نفي الشرك، حيث تقول من جهة: إن الله لم ينزل أي دليل على وجود آلهتكم. وتقول من جهة أخرى: إن حاكمية العالم وتدبيره مختص به حيث تلاحظ علامات الوحدة في التدبير في كل مكان.

وتقول من جهة ثالثة: إنه امر بعبادة الاله الواحد، فهل يعقل أن يأمر الاله الحكيم بأمر كاذب؟

وفي الختام فإن الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل.

ونقل بعض المفسرين بأن عبدة الاصنام كانوا يعتقدون بأن الله هو النور الأعظم، ويعتقدون بأن الملائكة انوار صغيرة، وأما الاصنام في الارض فإنها مظهر للانوار السماوية تلك ويطلقون عليها (المعبود) وبذلك تكون معبوداتهم اسماً بدون مسمى^(١).

ولو تغافلنا عن هذا المعنى ايضاً وسلمنا بأن الاصنام هي الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنها كانت اسماً دون مسميات ايضاً، وذلك لعدم وجود اثر من آثار الألوهية في هذه الاحجار والاشخاب الميتة.

تضمنت الآية الثالثة محتوىً شبيهاً لما في الآية السابقة حيث تقول في ذم عبدة الاوثان ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ .

وهو في الحقيقة نفي لوجود دليل نقلي ، وتضيف الآية : ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وفي ذلك اشارة الى نفي لوجود دليل عقلي .

وتقول الآية في الخاتمة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ .

فلا معين لهم على دفع عذاب الله ولا رشد لهم في طريق الهداية ولا ينصرهم الدليل العقلي (ويمكن أن تجتمع التفسيرات الثلاث في مفهوم الآية) .

الاستناد الى الحدس والتخمين

تحدثت الآية الرابعة في أولها عن مالكية الله لجميع مَنْ في السموات والارض حيث تقول : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ .

وهذا التعبير يمكن أن يكون اشارة الى عقيدة المشركين الذين أقروا بأن المالك والحاكم الاصيلي هو الله ، ومع ذلك فإنهم كانوا يعبدون الاصنام ، كما يمكن أن يكون اشارة الى أن النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أن المدبر الواحد هو الحاكم عليه .

ثم تضيف : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ .

بل إنهم يتبعون اوهامهم وظنونهم فقط ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(١) .

١ - وفقاً لهذا التفسير تكون (ما) في (وما يتبع) نافية وفاعل (يتبع) هو (الذين) ومفعول (شركاء) أي أن المشركين لا يتبعون في الحقيقة شريكاً لله تعالى (لأن الله لا شريك له وهؤلاء الشركاء من صنع الاوهام) ، ولكن احتمل جمع من المفسرين بأن (ما) هنا استفهامية فيكون معنى الجملة هو : أي شيء يتبعونه من دون الله ويجعلونه شريكاً له ؟ فهل هناك الا الظن ؟ (النتيجة في الاثنين واحدة تقريباً) . راجع تفسير

(يخرصون) - كما اشير سالفاً - مشتق من (خرص) ويأتي بمعنى (التخمين) و (الكذب) لأن التخمين لا يصيب في اكثر الموارد ، وآية البحث تحتل المعنيين .

وقد ورد هذا المضمون ويفارق يسير في الآية الخامسة التي تقول بعد ذكر انحراف عبدة الاوهام ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ثم تهدد هؤلاء الظانين بتعبير ذي معنى كبير ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ اجل ، أن الظن والوهم كالسهم في الظلام ، لا يمكن اصابة الهدف به ابدأ ، ولو اصاب فإنه يكون بدون تركيز على الهدف بل يكون محض صدفة . (الظن) في اللغة يشمل كل ظن ووهم ، وإن اطلق احياناً على اليقين ايضا إلا أن المراد في آية البحث هو المعنى الاول .

ومن الملاحظ إن اتباع الظن ينسب الى اكثرهم لا الى جميعهم ، وقد ألفت هذا المعنى انظار الكثير من المفسرين .

فقال البعض ان (اكثر) هنا تعني الجميع (ولم يقم على هذا التفسير دليل) .

ومن الافضل: أن يقال إن الآية تقصد الغالبية الجاهلة التي تتأثر بالاوهام الخاطئة وتعرض للشرك ، وتقابلها الفئة القليلة من رؤوس الضلال الذين يدعون الناس الى الضلال^(١) على علم منهم ، والامل في الهداية موجود طبعاً في الفئة الاولى فقط ووجه الخطاب معهم .

كما احتمل البعض أن في (اكثر) اشارة الى جماعة تتبع الظن والوهم

مجمع البيان وتفسير الفخر الرازي والقرطبي وتفسير الكشاف وروح المعاني في ذيل آية البحث وقد احتمل البعض أن (ما) هنا موصولة إلا أنه يبدو بعيداً .

١ - ورد ما يشابه هذا المضمون في تفسير (روح البيان) ج ٤ ص ٤٥ وتفسير روح المعاني ج ١١ ص ١٠٣ .

طيلة حياتها ومن جملتها (الشرك) فهي تطفو فوق امواج من الاوهام وحجب الظلام والخيال^(١).



الآية السادسة تُشبه الآية الثانية في مضمونها من جهات ، حيث تقول : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وهذه الجملة توضح هيمنة روح التقليد الاعمى على المشركين حيث اتبعوا اسلافهم بعيون وآذان مغلقة ثم تضيف : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ . والملاحظة الجديدة هنا هي عطف (هوى النفس) على (الظن) وهو تعبير كثير المعنى وفيه اشارة الى أنَّ هذه الظنون الواهية تنشأ من هوى النفس الذي يجعل من الباطل حقاً في منظارهم ، فهم اذن يعبدون اهواء انفسهم في الواقع والاصنام الاخرى وليدة لها !

وعليه يكون مصدر الانحراف والضلال لديهم في الواقع امرين : عدم الاستناد الى اليقين من الناحية العقلية والعقائدية والتمسك بالظنون والانصراف عن فطرة التوحيد الصحيحة من الناحية العاطفية والاستناد الى هوى النفس .

وهذه النقطة جدية بالاهتمام ايضاً وهي إنَّ (يتبعون) و (تهوى) فعلان مضارعان ، ويعني ذلك إن هؤلاء يستمر اتباعهم للظن وهوى النفس ويتلونون كل يوم بلون جديد !

والملاحظ إن اول الآية تخاطب المشركين وآخرها تذكرهم باستخدامه ضمير الغائب (التفات من المخاطب الى الغائب) وفي ذلك اشارة الى أنهم

١ - وقد ورد هذا الاحتمال ايضاً في تفسير روح المعاني .

لأشأن لهم حتى يستحقون الخطاب .

أظهرت الآية السابعة والاخيرة الحقيقة نفسها ولكن في اطار جديد حيث تقول : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ .

ولعدم امتلاككم دليلاً واضحاً وموجهاً على الشرك فإنكم مدانون .

ثم تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول : ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾^(١) .

والتعبير بـ (ذكر) بدلاً عن الكتب السماوية اشارة الى أن جميع هذه الكتب عامل تذكير ووعي ، وقد ذكر بعض المفسرين معاني اخرى لكلمة «ذكر» ولكنها لاتبدو مناسبة .

وذيل الآية يؤكد مرة اخرى على هذا المضمون حيث يقول : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وإن كانت هناك فئة قليلة تدرك القضايا ، إلا أنها لاتظهر الحق لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة .

ويمكن الاستنتاج جيداً من مجموعة الآيات الواردة بأن الشرك وعبادة الهين فما فوق ليس له دليل عقلي ولابرهان نقلي ، ومن المحال أن تكون مثل هذه القضية المهمة موجودة لايتوفر لها دليل عقلي أو نقلي ، وعليه فإن فقدان الدليل هذا دليل قاطع على بطلانه .



١ - في هذه الآية استلال بالدليل النقلي في حين استدل في الآيتين السابقتين بالدليل العقلي وبرهان التمانع (تدبر).

المصدر الثاني للشرك

«اتباع الحواس»

تمهيد :

عندما يولد الانسان في هذا الكون فإنه يرى المحسوسات ويميل اليها ويتخذها اساساً لمعلوماته ، وعندما يسمو في فكره وعلمه فإنه يتعرف تدريجياً على القضايا العقلية والفكرية .

إلا أن مجموعة تتوقف في مرحلة الحس بسبب التخلف الثقافي ، ولهذا لا يمكنها ان تفكر وتؤمن بشيء سوى المحسوسات لديها ولهذا تتوقع أن يكون لله وجود حسي فتتظر اليه بإعينها وتلمسه بيدها !! وهذا هو من أهم الجذور في (عبادة الاصنام) و (الآلهة المحسوسة) على مر التاريخ .

وبهذه الاشارة نتوجه الى القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ

اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ سورة الفرقان - ٢١ .

٢ - ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ

مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا

الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى

مُسْلِمًا مُبِينًا﴾ سورة النساء - ١٥٣ .

٣ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي اطَّلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَآتَنِي لِأُظَنَّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة القصص - ٣٨.

٤ - ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً... أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفاً أَوْ تَأْتِيَ بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ سورة الاسراء - ٩٠، ٩٢.

٥ - ﴿مَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَالنَّاسُ يَرْجِعُونَ﴾ سورة البقرة - ٢١٠.

جمع الآيات وتفسيرها:

لماذا لا نرى الله ؟

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى نَقَلْتُ مَا قَالَهُ الْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِي يُشِيرُ بِوُضُوحٍ إِلَى أَمْنِيَّتِهِمْ فِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مِثْلَهُمْ ذَا جِسْمٍ وَيُمْكِنُ النَّظَرُ إِلَيْهِ حَيْثُ تَقُولُ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ .

إِنَّهُمْ طَالَبُوا بِرُؤْيَا مَلَائِكَةِ الْوَحْيِ أَوَّلًا ثُمَّ سَوَّلَتْ لَهُمْ أَمَانِيَّتُهُمْ أَنْ يَطَالِبُوا بِرُؤْيَا اللَّهِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ بِالْأَلِهَةِ الْمَجْرَدِ وَغَيْرِ الْمَحْسُوسِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَانَ لِرُؤُوسِ الشُّرْكِ وَعِبْدَةِ الْأَصْنَامِ وَقَدْ عَلِمُوا بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّهُ وَمَنْ أَجَلَ أَغْفَالِ عَامَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يَرُونَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَطَارِ الْحَسِّ قَامُوا بِطَرَحِ هَذَا الْكَلَامِ إِمَامُ النَّبِيِّ (ﷺ) لَكِي يَهْزِمُوهُ حَسْبَ زَعْمِهِمْ وَلِذَا وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقِيَامَةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِالْمَسْئُولِيَّةِ ، وَلِهَذَا تَقُولُ الْآيَةُ فِي ذِيلِهَا : ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ لِلآيَةِ (٢٧) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (الْفِرْقَانِ) شَأْنًا لِلنُّزُولِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي جَمْعٍ مِنْ أُمَّةِ الشُّرْكِ فِي قَرِيشٍ .

وذيل الآية يشير ايضاً الى أن مصدر هذه الادعاءات الضخمة والخاطئة هو ابتلاؤهم بالكبر والغرور اولاً وسلوك طريق (العتو) وهو التمرد المصحوب بالعناد واللجاجة في امر الله ثانياً، ولم يختص ذلك العرب فحسب، بل مازال جمع من علماء عصرنا المغرورين والمتمردين الماديين الذين يعتقدون أن كل شيء يجب اجراء التجربة عليه ورؤيته في المختبر وبأدوات حسية، ويقولون: إننا لا نؤمن بالله حتى نراه جهرة، وبهذا تكون المجموعتان محصورتين في اطار الحس، في حين تكون العوالم الخارجة عن الحس اوسع بكثير من عالم الحس.



طلبوا ذلك من موسى !!

تحدث الآية الثانية اولاً عن حجج اليهود وتقول: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. قال جماعة في تفسيرها أن مرادهم كان بأن ينزل عليهم كتاباً مخطوطاً على قراطيس معلومة من السماء ليشاهدوه بعيونهم ويلمسوه بأيديهم^(١).

وقالت جماعة اخرى: ان مرادهم هو لماذا لم ينزل جميع القرآن مرة واحدة على النبي (ﷺ)؟! والقرآن يجيبهم: لا عجب من هذا الطلب الخاوي لهؤلاء المعاندين اللجوجين بعد مشاهدة المعجزات والقرائن التي تصدق دعوى نبي الاسلام (ﷺ)، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾! ويسبب هذا الطلب الخاطيء ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

أجل، انهم ظلموا انفسهم وراحوا يتعللون، وسجنوا عقولهم في اطار

١ - وقد وافق على هذا التفسير صاحب (في ظلال القرآن) ج ٢، ص ٥٨٣ وقد نقله الفخر الرازي ويبدو تفسيراً مناسباً وإن لم يتعارض مع التفسير الثاني.

الحس ولم يسمحو لها بالتجرد من هذا المجال الضيق الى افق عالم ما وراء الطبيعة ، ولهذا أنزلت عليهم صاعقة من السماء واهلكتهم ، غير أن اللطف الالهي ودعاء موسى قد ادركهم اخيراً وواصلوا حياتهم مرة اخرى ، والعجيب أن هذا الحدث العجيب لم يوقفهم ، حيث مالوا الى السامري في اقتراحه بعبادة العجل ! ونقرأ في الآية: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ وكأنهم لم يؤمنوا إلا بالاله المحسوس ، ولم تقو ارواحهم على الطيران الى عالم ما وراء الطبيعة .

ومرة اخرى شملهم اللطف الالهي حيث تقول الآية في ذيلها : ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ .

والمراد من (سلطان مبين) هنا هي الحكومة التي اعطاها الله عز وجل لموسى فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والاستدلالية ، ويعتقد بعض المفسرين كالطبرسي في مجمع البيان بأن النصر هنا من الناحية المنطقية فقط ^(١) .



دعني ارى الله في السماء !

في الآية الثالثة مقالة تفوه بها فرعون في هذا الشأن ، وهي توضح افكار الشعب المصري آنئذ ، فقد القى هذه المقالة في عصر كان لإسم موسى وانتصاره على السحرة صدهاء في مصر بأسرها ، ولمّا شعر فرعون بخيبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به انظار الناس عن موسى ومعجزاته ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

• ما علمت لكم من اله غيري»^(١) ولذا ارى أن دعوة موسى الى رب السماء والارض خاطئة ، وبما أني من أهل التحقيق ، فقد خطر ببالي شيء يظهر به صدق موسى أو كذبه ، قم يا هامان «فاوقدلي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى»^(٢) «وإني لأظنه من الكاذبين» .

ولا شك أن فرعون كان اشد شيطنة من أن لا يدرك هذه القضايا الواضحة وهي أنه ليس إلهاً، وأن ما يقصده موسى من اله السماء، هو خالقه لا أن الله يسكن السماء حقيقة . ولو تجاوزنا هذا الامر وافترضنا أن الله يسكن السماء فإنه لا يمكن الوصول اليه ببناء برج عال ، فمنظر السماء من على قمم الجبال في العالم هو المنظر الذي يشاهد من فوق سطح الارض، ولم تخف هذه القضايا على فرعون . ولكن فرعون كان يفكر في مخطط آخر واراد صرف الرأي العام الذي مال الى موسى بشدة وذلك بطرح هذه القضية المثيرة ، كما أراد أن يشغل مجموعة لمدة طويلة ببناء برج عال جداً ، وفي النهاية يصعد الى اعلى البرج ليحرك نفسه ويقول: إني بحثت عن اله موسى في السماء فلم اجد له اثراً!

إنّ هذه القضية توضح امراً مهماً وهو إن مستوى الرأي العام في مصر كان بسيطاً الى حد أنهم لم يكونوا ليصدقوا إلا بالله محسوس ، وبالتالي يصدقون فرعون بادعائه الالهية وتوقعوا أن يكون اله موسى جسماً في جو السماء! وفي مثل هذه الاجواء تشيع روح الصنمية وصناعة الاصنام قطعاً!



١ - يقول اللغويون في تفسير (ملاً): يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأ العيون (من مادة ملاً) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى اشراف القوم ورؤسائهم وحواشي الملوك ايضاً.

٢ - (صرح) في الاصل تعني الخلو من الشوائب ثم اطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنها بلغت من الكمال في بنائها الى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص .

الآية الرابعة تنقل اقوال المشركين واحتجاجاتهم المتنوعة والغريبة حيث طرح كل واحد اقتراحاً على النبي (ﷺ) وتمسك بحجة معينة حيث تقول الآية: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً﴾^(١)، وقد تمسك البعض الآخر بحجج اخرى وقالوا اخيراً: ﴿او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً * او تأتي بالله والملائكة قبلاً﴾^(٢).

والمطالبة الاخيرة توضح جيداً أنهم تصوروا أن الله والملائكة ذوو أجسام وموجودات جسمانية، ولم يتحملوا تصور وجود خارج عن اطار عالم الجسم والطبيعة. ويعتقد بعض المفسرين بأن مرادهم من الاتيان بالملائكة هو أن تأتي لتعين الله! ^(٣) أو تشهد على الوهيته، وتشير هذه كلها الى المستوى الفكري المختلف لأولئك القوم اللجوجين.



أيتوقعون أن يأتي الله اليهم؟

تحدثت الآية الخامسة والاخيرة عن الكفار والمشركين وافكارهم المنحطة فتقول:

﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام﴾^(٤).

وقد اضطرب المفسرون بشدة في تفسير هذه الآية، فقد عدها بعضهم من متشابهات القرآن فيلزم تفسيرها في ضوء المحكمات^(٥)، وقد ذكر البعض سبعة

١ - ينبوع من (نبع) وتعني عين الماء.

٢ - فسرت كلمة (قبيل) تارة بمعنى (المقابل)، وتارة بمعنى الكفيل والشاهد، وتارة بمعنى الجماعة والفئة، ويمكن الموافقة على المعاني الثلاث في مورد الآية اعلاه.

٣ - تفسير في ظلال القرآن: ج ٥ ص ٣٥٩.

٤ - يقول الفخر الرازي: اتفق المفسرون على أن احد معاني (النظر) هو الانتظار ج ٥ ص ٢١٢.

٥ - تفسير الميزان: ج ٢ ص ١٠٥.

تفسير لها^(١).

وكان تصورهم عن مضمون الآية هو أنه سيأتي اليوم الذي يأتي فيه الله والملائكة في ظل الغيوم، ولا ينسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة في أنه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله.

في حين أن مضمون الآية شيء آخر، والمراد منه هو الاستفهام الإنكاري ويشبه قولنا للذين يتماهلون في تحصيل العلم: أتتوقع أن يجعل العلم لقمة وتوضع في فمك؟! أي هذا توقع ليس في محله.

إنَّ الآية اعلاه تقول ايضاً: هل أنهم يتوقعون أن يأتي الله والملائكة للقائهم ويقفون امامهم ويشهدون لهم؟! إنه توقع خاطئ وفي غير محله، أفليس الله بجسم ولا مكان له ولا رواح أو مجيء له، وبهذا ليس في الآية - كما نلاحظ - مشكلة خاصة حتى تحتاج الى تأويل وتفسير معقد أو أن تحسب من المتشابهات.

وتقول الآية في اخرها مهددة هذه الفئة اللجوجة بالعقاب الشديد ﴿وقضي الامر﴾، وكان العذاب متحقق الآن، ولذا جاءت بصيغة الفعل الماضي ثم تقول: ﴿والى الله ترجع الامور﴾. وليس لاحد القدرة على مواجهته وليس لأحد أن يقاوم امره، واذا تعلق مشيئته بعقوبة جماعة فكأنها متحققة.

هل يتعلق هذا التهديد بيوم القيامة أو الدنيا أم الاثنين معاً؟ لا يبعد أن يتعلق بالاثنين، لأن الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة.

يتضح مما اوردناه في تفسير الآيات اعلاه بأن الميل الى الحس وتأثيره في تكوين عقيدة الشرك والانحراف عن محور التوحيد طيلة تاريخ الانبياء والامم

السالفة مما لا يمكن إنكاره، وان الاقوام المتخلفة فكراً وثقافياً، أوبقيت متخلفة بفعل إعلام الطفلة، قد اعتقدوا أن الوجود منحصر في المحسوسات وتنتهي الفطرة الالهية بالاله المحسوس وهذا هو احد العوامل المهمة في نشوء عقيدة الشرك في التاريخ.



ايضاحات

لماذا ألفوا عالم الحس؟!

من الواضح أن اصول المعلومات في الانسان بأجمعها تستمد من المحسوسات اولاً، لأن الانسان حينما يفتح عينيه يلاحظ عالم المادة ويتعرف على عالم المحسوسات والطريق الموصل الى ما وراء الحس، بل وتصور الوجود المجرد عن الزمان والمكان والمادة يتم بعد الدراسة والتحليل في المسائل الفكرية والعقلية والروحانية، فلا غرو اذن أن تكون عبادة الاصنام مذهباً للامم المتخلفة.

فمن جهة يعلو نداء عبادة الله من باطن فطرتهم وتدعوهم قوى المعرفة الالهية اليه، ومن جهة اخرى وبسبب مغلوبيتهم امام عالم الحس والمادة تصعب عليهم معرفة الله المجرد عن الزمان والمكان والمادة، ولذلك فإنهم يسرون في طريق الشرك ويشفون غليل ارواحهم الظامئة بالآلهة الخيالية بصورة كاذبة.

وبما أن مجموعة من خدمة معبد الاصنام بل الكثير من الحكام الطفلة ينتفعون من هذا الامر فإنهم يرغبون فيه، وفي النهاية يصبح كدين رسمي للبلاد. ومن العجيب أن تترسب هذه الافكار احياناً في اعماق الكثير من عباد الله

الحقيقيين، وللمثال على ذلك أنَّ بعض الناس يقول في قَسَمه : قَسماً بالله الذي هو في السماء!! ويتصورون إننا حينما نرفع ايدينا الى السماء حين الدعاء أن ذلك اشارة الى الله وأنه يجلس على كرسي الاقتدار وقد اجتمعت الملائكة من حوله !

إنَّ هؤلاء غافلون حقاً ، فليس الله في السماء وليس في رفع اليد في الدعاء اشارة الى مركزه، بل ان رفع اليد يعني التسليم والاضطرار ، أو كما ورد في بعض الروايات إن السبب هو نزول النعم الالهية من السماء ، فالمطر وضوء الشمس - وهما العمدة في حياة كل موجود حي - مصدرهما من السماء والتوجه الى السماء توجه الى الخالق العظيم لهذه النعم .

وعلى كل حال ، مالم ينضج الانسان فكراً يصعب زوال آثار الشرك عنه . فبنو اسرائيل الذين تربّوا في مدرسة التوحيد سنين طوال عند نبي من اولي العزم موسى (عليه السلام) وشاهدوا آثار عظمته باعينهم عند نجاتهم من قبضة الفراعنة واجتياز النيل ، وبمجرد مرورهم على عبدة الاصنام وملاحظتهم الاصنام رجعوا وطالبوا موسى (عليه السلام) بأن يجعل لهم صنماً ، فواجههم موسى برد فعل شديد وندموا على مقالتهم . ولم يمض وقت طويل عندما توجه موسى (عليه السلام) الى جبل الطور بصورة مؤقتة لكي يأخذ اللواح واحكام الشريعة حتى استغل السامري هذه الغيبة ليصنع لهم صنماً ودعا بني اسرائيل لعبادته ، فترك اكثرهم طريق التوحيد وركعوا لعجل السامري وبقيت فئة قليلة مع أخ موسى (هارون) ملتزمة بنهج التوحيد وهذا يشير الى أن القادة السائرين في طريق التوحيد وخصوصاً امام الاقوام المتخلفة التي ترعرعت في اجواء الشرك يواجهون مشكلات كبيرة ، وغسل آثار الشرك اساساً من القلوب ليس باليسير ويحتاج الى تربية فكرية وتربية ثقافية صحيحة .

٣- مصالح وهمية

تمهيد :

إنَّ الوهم اساس الشرك، وكلما ازدادت قوة الوهم والخيال ونشطت في الانسان إِتَّسَعَ افق وهمه في الاصنام وآثارها الى حد يضع الموجودات الفاقدة للشعور والعقل، الموجودات الميتة والتافهة والمصنوعة من الحجر والخشب على جناح الوهم والخيال ويطير بها بشكل ينسب لها كل قدرة ويتذلل لها كي ينعم ببركتها! اجل، إن المصالح الوهمية في الاصنام عامل آخر من عوامل الشرك على مر التاريخ، وبهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات القرآنية التالية :

١ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة يونس - ١٨.

٢ - ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ سورة يس - ٧٤.

٣ - ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ سورة مريم - ٨١.

٤ - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْغَالِيَةُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ سورة الزمر - ٣.

شرح المفردات :

(شفعاء) جمع (شفيع) من (الشفع) ويعني كما يقول صاحب (مصباح

اللغة): ضم شيء الى شيء آخر وكما يقول صاحب المفردات: يعني ضم شيء الى مثيله، وأما صاحب (مقاييس اللغة) فإنه يذهب الى أن اصله هو المقارنة بين شيئين.

هذه التعابير تعود كلها الى معنى واحد تقريباً ومن ثم اطلق على حالة انضمام شخص قوي ومكين الى شخص اضعف من اجل انقاذه واعانته، وقد ورد بهذا المعنى في آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية. كما جاء عدد (الشفع) بمعنى (زوج) في قبالة (الوتر) بمعنى الفرد.

(زُلفى) من (الزلف) ويعني في الاصل القرب والمنزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوة لما للخطوات من تقريب للهدف، وقد استعمل في آيات البحث بمعنى القرب المعنوي الذي توخاه المشركون من عبادة الاصنام إلا أن بعض المحققين يعتقد بأن (زُلفى) اكمل من معنى القرب فهي المرتبة العالية من معنى القرب في الحقيقة^(١)، ولكنه رأي بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الاستعمال، ويطلق هذا اللفظ على الساعات الاولى من الليل كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾^(٢).

جمع الآيات وتفسيرها:

الاصنام شفعأؤنا؟!

تشير آية البحث الاولى الى احدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين في الاصنام حيث تقول الآية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

الكلام في أن هؤلاء كيف اعتقدوا بأن هذه الموجودات الميتة لها الشفاعة

١ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٢ - سورة هود: آية ١١٤.

عند الله ؟

للإجابة على السؤال قال بعض العلماء: إن المشركين كانوا يعتقدون إن عبادة الاصنام بمنزلة عبادة الله ووسيلة للتقرب اليه ، وقد ظهر هذا الاعتقاد من طرق مختلفة .

وكانت فئة تقول : لسنا اهلاً لعبادة الله دون واسطة : لأنه عظيم جداً ولذا نعبد الاصنام كمظهر وصورة عن الملائكة لكي تقربنا الى الله ، بينما قالت فئة اخرى بأن الاصنام هي القبلة لنا لدى عبادة الله كما يستقبل المسلمون القبلة عند العبادة ، وقد اعتقدت فئة اخرى بأن كل صنم يقترن به شيطان وكل من يعبد الصنم ويؤدي حق عبادته فإن ذلك الشيطان يلبي حوائجه بأمر الله وإن لم يعبده فإن الشيطان يسيء اليه ^(١) ، الى امثال هذه الخرافات والأوهام .



وتشير الآية الثانية الى عقيدة اخرى عند المشركين حيث تقول : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وذلك من اجل أن تبادر الى اعانتهم عند حلول المشكلات والابتلاءات والحروب والامراض ، وتدفع عنهم خطر الجوع والقحط والجفاف ، وتدافع عنهم في الآخرة ؛ وياله من خطأ فادح! ؟ فإن القضية كانت معكوسة حيث يهرعون لانقاذ اصنامهم من الاخطار ويحفظونها من الاعداء والناهبين ! كما نقرأ في قصة ابراهيم (عليه السلام) : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ^(٢) إِنَّ اعتقادهم بأن الاصنام تحميهم وتعينهم لم يكن سوى خيال وهم قطعاً ، ولهذا الاعتقاد سبب في الانحطاط الفكري والتخلف الثقافي ، وهذا الامر هو احد المصادر للشرك على مر التاريخ .

١- بلوغ الارب : ٢ / ١٩٧ .

٢- سورة الانبياء : آية ٦٨ .

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾. وليس المراد من العزة هو السمعة، بل اكتساب القوة والنصر والشفاعة من عند الله، وكان هذا أيضاً وليداً لتوهمهم، ولذا نلاحظ في هذه الآية من سورة مريم نفسها بأن حُجب الاوهام حينما تزول ويتنبّه العقل فإن المشركين يدركون خطأهم الفظيع وسرعان ما ينكرون عبادة الاصنام ويواجهونها، كما ورد بأن المشركين يقولون يوم القيامة: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١).



واخيراً فإن الآية الرابعة والاخيرة بعد الاعلان عن ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ فهي تهدد المشركين وتضيف: ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٢).

ايضاحات

١ - منشأ الاعتقاد بالشفاعة

يعجب كل عاقل عندما يواجه قضية الشرك لأول مرة، فكيف يمكن أن يخضع انسان عاقل ذو شعور لتمثال حجري أو خشبي قام بصنعه بيده؟ فلو كان يمتلك قليلاً من العقل لكانَ هذا غير مقبول عند، ولو عرفنا أسباب ذلك لوجدنا أن القضية ليست بسيطة كما نرى، فإن مجموعة من الاوهام والفسطة والخيال

١ - سورة الانعام: آية ٢٣.

٢ - قال كثير من المفسرين بأن (والذين) مبتدأ وخبره (إن الله يحكم بينهم) وجملة (مانعدهم) فيها محذوف هو بمنزلة الحال والتقدير (قائلين مانعدهم...).

والعادات طُرحت كأدلة عقلية وخدعت المشركين .

يقول الفخر الرازي في ذيل تفسير الآية (١٨) من سورة يونس :

فيمن قالوا في الاصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله وذكروا فيه اقوالاً كثيرة .

١ - إنهم اعتقدوا أن المدبر لشؤون اقليم من أقاليم العالم ، روح معين من ارواح عالم الافلاك، ولأنهم لا يصلون الى تلك الروح صنعوا لها صنماً معيناً واشتغلوا بعبادته ، وكل قصدهم هو عبادة تلك الروح ، ثم اعتقدوا أن تلك الروح عبد للاله الاعظم ومشتغل بعبوديته .

٢ - إنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها اهلية عبودية الله تعالى ، ثم لما رأوا إنها تطلع وتغرب وضعوا لها اصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها وغرضهم عبادة تلك الكواكب .

٣ - إنهم وضعوا معينة على تلك الاصنام والاوثنان ثم تقربوا اليها كما يفعل اصحاب .

٤ - إنهم وضعوا هذه الاصنام والاوثنان على صور انبيائهم واكابرهم وزعموا أنهم متى ما اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن اولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى .

٥ - إنهم اعتقدوا أن الاله نور عظيم وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صور الاله الاكبر الصنم الاكبر وعلى صور الملائكة صوراً اخرى .

٦ - لعل في طائفة من الحلولية ، القوم وجوزوا حلول الاله في بعض الاجسام العالية الشريفة ^(١) .

ويقول مفسر آخر: إن اول ما عُبدت الاصنام في قوم نوح (عليه السلام) وذلك أن آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر»

١ - التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ١٧، ص ٦٠٠ (مع الاختصار اليسير).

فمات «ود» فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره لا يكادون يفارقونه وذلك بأرض بابل فلما رأى ابليس ذلك جاء اليهم في صورة انسان وقال لهم: هل تريدون أن اصنع لكم ما إن نظرتم اليه ذكرتموه؟ قالوا: نعم، فصنع لهم تمثالاً.

وهكذا كلما مات واحد من ابناء آدم صنعوا له تمثالاً وسموه بإسمه، ويتقدم الزمان وينسيان الاجيال أعاد الشيطان قائلاً: إن أجدادكم كانوا يعبدون هذه الاصنام فاعبدوها. فأرسل الله اليهم نوحاً (عليه السلام) فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك...^(١).



٢- انتشار الشرك بين العرب

إن أول من أقام عبادة الاصنام بين العرب هو عمرو بن لُحَي من قبيلة خزاعة، فقد خرج من مكة الى الشام في بعض اموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء رآهم يعبدون الاصنام فقال لهم: ما هذه الاصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه اصنام نعبدها، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به الى أرض العرب فيعبدوه فأعطوه صنماً يقال له (هُبَل)، فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت هناك صخرة يلي عليها السوق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو: إنه لم يمت ولكن دخل في الصخرة وامرهم بعبادتها...^(٢).

١- روح البيان: ج ٤، ص ٢٦ (مع التلخيص).

٢- روح البيان: ج ٤، ص ٢٦ (مع اختصار يسير) وقد ذكر العلامة المجلسي في بحار الانوار (ج ٣ ص ٢٤٨

ونقل بعض آخر، إن ظهور عبادة الاصنام ابتدأتها جماعة كانت تنزه الله الى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً اجلّ للتقرب اليه ! أو أنها اعتقدت إن الاله عندما يخفى على الحس والعقل فعبادته غير ممكنة ، ولذا يجب التقرب اليه من خلال المحسوسات !
وقال بعض المؤرخين :

«ويزعمون أن اول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حتى ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة واعجبهم^(١) حتى خلق الخُلف ...» .

كما ورد في تفسير الميزان :

وقد كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى اربابها وبأربابها الى رب الأرباب وهو الله سبحانه ويقولون : «إننا على ما بنا من ألوان البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل الى رب الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بينها وبينه .

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه وهم ارباب الاصنام الذين فوض الله اليهم امر تدبير خلقه ، ونتقرب اليهم بأصنامهم وتمثيلهم وإنما نعبد الاصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب الينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للاصنام حقيقة ، والشفاعة لأربابها وربما نسبت اليها^(٢) .

→ بعد الروايات : ١ ، ٧ ، ٨) قصة ظهور الشرك في قوم نوح هذا وقد ورد في (بلوغ الارب) قصة عمرو بن لحي وهديته الخبيثة من الشام (ج ٢ ص ٢٠٠) كما نقل ابن هشام في الجزء الاول من السيرة النبوية موضوعاً قريباً من هذا المضمون (صفحة ٧٨) .

١ - سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٧٩ .

٢ - تفسير الميزان : ج ١٠ ، ص ٢٧ ذيل الآية ١٨ من سورة يونس .

وبهذا ألبسوا معتقداتهم الخاطئة والخرافية ثوباً منطقياً في الظاهر، وظهر الضلال على صورة الهدى واحتلت وساوس الشيطان مواقع المنطق والبرهان.



٣- عوامل أخرى للشرك وعبادة الاصنام

في الحقيقة أن الشرك وعبادة الاصنام قضية معقدة وليس وراءها عامل واحد كسائر القضايا الاجتماعية المعقدة، بل هناك عوامل مختلفة تعاضدت على حدوثها.

فمثلاً نجد أن اقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهناك جماعة عبدت النار، وجماعات عبدت الانهار الكبيرة كالنيل في مصر، والكنج في الهند، ويعني ذلك أن كل ما فيه الخير والبركة، يكون مقدساً، وكانت تتضاعف قدسيتها تدريجياً الى حد اعتبارها آلهة!

وبتعبير آخر: كانوا يشيرون في عالم الاسباب وينسون الله وهو (مسبب الاسباب)، لافتقادهم البصيرة النافذة التي تجتاز الاسباب لتصل الى خالق الاسباب وانتهى هذا بهم الى عبادة الاصنام.



(٤ - ٥)

عامل التقليد والاستعمار

تمهيد :

لا شك في أن عامل التقليد من العوامل المؤثرة في توارث عبادة الاصنام جيلاً بعد جيل بل وانتشارها في العالم ، ويستند القرآن الكريم الى ذلك مراراً ويطرحه تحت عنوان الدليل الوحيد الذي يتمسك به مشركو العرب .

إن العيش في أجواء الشرك واحترام الاجداد والاسلاف والتأثر بالتلقين في مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على ابراز عمل خرافي وخاوٍ تماماً وهو عبادة مجموعة من الاحجار والاشخاب الفاقدة لكل شيء بشكل منطقي ووجيه بل ومقدس .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ * وَكَذَٰلِكَ

مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿ سورة الزخرف - ٢٢ - ٢٣ .

٢ - ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ

يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ

يَفْعَلُونَ ﴿ سورة الشعراء - ٧١ - ٧٤ .

٣ - ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ

وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة يونس - ٧٨ .

٤ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ

آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ سورة البقرة - ١٧٠ .

٥ - ﴿وَإِذَا تُلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءُكُمْ﴾ سورة سبا - ٤٣^(١).

شرح المفردات :

(صنم) كما يقول الراغب في المفردات : تمثال من فضة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقربون به الى الله ، وفي (لسان العرب) : هذا اللفظ اخذ في اصله من (شَمَنَ) وهي كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية^(٢).

وتعتقد جماعة من اللغويين إن الفرق بين (الصنم) و (الوثن) هو أن صنم يطلق على اصنام لها شكل وصورة خاصة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصة اطلق عليه (وثن).

(أب) ويعني الوالد ويطلق احياناً على السبب في حدوث شيء (اصلاحه أو اظهاره) إلا أن هذه المعاني لها خصائص كنائية في الظاهر ، وقد جاء في (مقاييس اللغة) : إن هذا اللفظ يدل في اصله على التربية والتغذية وبما أن الوالد يغذي الابن فقد اطلق عليه هذا اللفظ .

ونقرأ في «كليات ابي اللقاء» إن اصحاب الشرائع السابقة كانوا يطلقون (أب) على الله لأنه السبب الاول للخلق ، ثم اعتقد الجهلاء والغافلون بأن (اب) هنا تعني الولادة (وبذلك سلكوا طريق الكفر).

وفي كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) وبعد اعتبار الاصل في هذه المادة هو التربية والتغذية ورد : بلحاظ هذا المفهوم فإن للأب مصاديق كثيرة

١ - وهناك آيات عديدة تتضمن مضمون هذه الآيات نشير الى مواضعها : سورة الاعراف : آية ٧٠ ، والآية ١٧٣ ، سورة ابراهيم : آية ١٠ .

٢ - ورد لفظ (شمن) في المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم (راجع دائرة معارف دهخدا وقاموس معين وغيث اللغة).

مثل الله المتعالي ، الوالد ، النبي ، المعلم ، الجد ، العم وغيرها (ولذا فإن « أب » له مفهوم اوسع من معنى الوالد) .



جمع الآيات وتفسيرها

عبادة الاصنام دين اجدادنا !

اعتقدت طائفة من مشركي العرب إن الملائكة بنات الله وقامت بعبادتها ، والآية الاولى في هذا البحث ترد على هذا الفكر الجاهلي من جوانب مختلفة فتخاطبهم تارة : إنكم تفرحون بالوليد اذا كان ذكراً ولكن تحزنون اذا كان بنتاً فكيف تنسبون الى الله بنتاً ؟ (هذا الجواب يناسب طبعاً - درجة فهمهم وافكارهم) وتذكر تارة اخرى حججهم الواهية لهذه العبادة وتردهم وتصل الى هذا الدليل اخيراً : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ ^(١) ولكن القرآن يخاطب النبي (ﷺ) مباشرة ويقول : إن التقليد الاعمى هذا والاتباع اللامشروط واللامقيد يمثل عقيدة سلفية وهذه الاعذار الواهية التي لا اساس لها لا تنحصر في مشركي العرب فحسب بل : ﴿ وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ . وبذلك اشاروا الى أن احد العوامل الرئيسة في انتشار خرافة الشرك جيلاً بعد جيل هو التقليد الاعمى واللامشروط واللامقيد والتحجير على العقل والادراك وعدم بذل جهود في التحقيق والتدبر والاستسلام امام خرافات الأسلاف .

١ - (أمة) في الآية - كما يعتقد جمع من المفسرين - عبارة عن المنهج المتفق عليه لدى طائفة وقد فسرها بعض المفسرين بمعنى الجماعة والفئة ، والمعنى الاول هو المشهور وإن وردت (أمة) في آيات اخرى بمعنى الجماعة وقد تأتي بمعنى المدة الزمنية .

والاستناد الى عنوان (مترفون) كما يقول بعض المفسرين فيه اشارة الى أن التشبث بالدنيا والاستمتاع باللذائذ المادية والمتنوعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والاستدلال هو السبب لهذا التقليد الاعمى القبيح ، فلو أنهم تخلصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة ، ولهذا يقول النبي الكريم (ﷺ) « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ^(١).

والجدير ذكره أن ذيل الآية الاولى تنقل عنهم قولهم : « انا على آثارهم مهتدون » وقولهم في ذيل الآية الثانية « انا على آثارهم مقتدون » وهذا الاختلاف في التعبير قد يكون من قبيل (العلة والمعلول) بمعنى أنهم ادعوا إنا انما نفتدي باسلافنا لأن ذلك هو طريق الهدى والوصول الى الحق !

على كل حال فإن القرآن الكريم في طول هذه الآيات يرد على هذا الفكر الباطل بشكل منطقي جميل ومحكم وينقل عن الانبياء السابقين قولهم للمشركين المقلدين الخرافيين : « قَالَ أُولُو جِثْتِكُمْ بَأْهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » ^(٢).

وللتقليد - كما سنبيّن - انواع واقسام ، فبعضه منطقي ويكون سبباً لانتقال العلوم من جيل الى جيل آخر ، وبعضه خرافة وحمق وسبب لانتقال الخرافات والقبائح ولكل علامات يشار اليها.



الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلقة بمواجهة ابراهيم (عليه السلام) مع عبدة الاصنام في بابل حيث سألهم بمنطقه الرصين الصريح : ما تعبدون ؟ فكان

١ - التفسير الكبير للفخر الرازي : ج ٢٧ ص ٢٠٦ ، كما توجد اشارة الى هذا الامر في تفسير روح البيان والميزان في ذيل آية البحث .

٢ - سورة الزخرف : الآية ٢٤ .

جوابهم : ﴿ قالوا نعبُدُ اصناماً فنظّل لها عاكفين ﴾ .

وبهذه الكلمات لم يقرأوا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به . وقد سدّ ابراهيم (عليه السلام) الطريق عليهم من خلال سؤال واحد : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، أي أنها (الاصنام) إن لم تنفع ولم تضر فلا بد من أن تسمع نداء عبّادها على الأقل وإلا لا معنى لعبادتها .

ولكن اولئك الذين لم يجرؤوا على الادعاء بأن الاصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم وتضرعهم ، كما أنهم لم يمتلكوا دليلاً على اثبات ضررها ونفعها لتبرير عملهم ، اضطروا للتمسك باسلافهم والتشبث بالتقليد الاعمى وقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا الجواب وإن كان مخجلاً إلا أنهم لم يملكوا شيئاً ليقدّموه .

وفي طول هذه الآيات يردّهم ابراهيم (عليه السلام) بمنطق رصين : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ^(١) .

أي أنه اهل للعبادة فهو المبدىء لكل الخيرات والبركات ، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقة للقيمة .

وتنقل الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها انعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول : ﴿ قالوا أَجئتنا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) وعليه ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

انهم استندوا - في الحقيقة - الى هذه النقطة فقط لإثبات صحة مسلكهم

١ - سورة الشعراء : آية ٧٥ - ٨١ .

٢ - (لنلفتنا) من (لفت) وهو الصرف عن الشيء أو الالتفات الى الشيء لو تعدت بـ (من) فإنها تعني الانصراف وبـ (الى) فإنها تعني (التوجه) .

وقداسته وهي أن هذا هو طريق الاسلاف ودينهم وعاداتهم ، ولكي يتهموا موسى وهارون بأنهما يتآمران قالوا : إنكما تبغيان الحكومة عن طريق الدعوة الى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الاصنام من اساسها ولا نسمح بذلك ! ويبدو أن هذا الكلام أُلقي من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون للتوحيد بطريقتين شيطانيتين :

الاول : هو اثاره العواطف لدى عامة الناس الجاهلين وذلك بالتحذير من أن دين اسلافهم في خطر ، والآخر : هو اثاره سوء الظن فيهم بوصف دعوة موسى وهارون أنها تجري وفق مخطط مسبق للوصول الى الحكم وإلا فإنها لا واقعية لها .

وقد استخدم هؤلاء المقتدرون والطغاة هذين الطريقتين لاستغلال الناس ومواصلة حكومتهم الاستبدادية ، كما يلاحظ في الآية ٦٣ من سورة طه حيث جاء التعبير بصراحة اكبر : ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّرِيدٌ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ .



اجابة المشركين الدائمة

إن الآية الرابعة تنقل هذا المضمون على صورة اجابة دائمة من قبل مشركي مكة حيث تقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفِينَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا ﴾ .

وهذا في الحقيقة هو منطق كل معاند لجوج حيث يتوسل بالتقليد حينما يعجز عن كل شيء ، التقليد الاعمى للاسلاف الضالين والجاهلين والتفاخر بذلك دون امتلاك أي جواب تجاه الادلة المحكمة التي اقامها الانبياء لإثبات

حقانية دعوتهم وبطلان الشرك وعبادة الاصنام .

والقرآن الكريم يرد هذا المنطق بجملة قصيرة واحدة حيث تقول في طول هذه الآية بشكل سؤال : ﴿أُولُو كَانْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١) .

أي أن تقليدهم لو كان كتقليد الجاهل للعالم لكان مقبولاً ، ولكنه ليس كذلك بل هو تقليد جاهل لجاهل آخر ، واتباع ضالٍ لضالٍ آخر ، فمثلهم كالأعمى الذي يقوده أعمى آخر .

إن هذه الآية وما سبقها من آيات تتحدث - كما يفهم من سياقها - عن مشركي العرب ، وما احتمله بعض المفسرين من انها تقصد اليهود ولذلك كان سبب نزولها كما هو الوارد عن ابن عباس بعيد (فتأمل) .

* * *

تحدثت الآية الخامسة والاخيرة عن مشركي العرب أيضا حيث كانوا ﴿وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٢) .

والملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول : إنهم كانوا يواجهون (الآيات البينات) بمنطق (التقليد) ويستحقرون النبي (ﷺ) ويعبرون عنه بـ (رجل) ، ولكي يستميلوا عامة الناس اليهم يخاطبونهم بـ (اسلافكم) بدلاً عن (أسلافنا) ليشيروا عصبيتهم امام النبي (ﷺ) .

* * *

١ - في الآية جملة مقدرة معناها . (أُتَّبَعُونَ مَا قَالُوا عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

من مجموع هذه الآيات نستنتج أن قضية التقليد الاعمى تعدّ من العوامل المؤثرة في تناقل الاعتقاد بالصنم في العصور والقرون السالفة ، ولم يكن النبي الكريم (ﷺ) لوحده عندما نهض لمقارعة الشرك كما تتحدث الآية ٤٣ من سورة سبأ والآية ٢٢ من سورة الزخرف حيث تمسكوا في رده بتقليد الاسلاف ، بل وكان هذا الامر جاريا في عصر النبي موسى (ﷺ)^(١) وفي عصر النبي ابراهيم (ﷺ)^(٢) وعصر النبي هود (ﷺ)^(٣) وفي عصر النبي صالح (ﷺ)^(٤) . بل وكانت هذه الحجة الحمقاء الواهية^(٥) تثار بين مشركي العالم وفي مواجهة الانبياء الالهيين وقادة التوحيد والمحاربة مع الشرك وعبادة الاصنام . ومن الواضح أن التقليد الاعمى لم يكن العامل الأول لظهور الشرك ، بل يشكل عاملاً لاستمراره وانتقاله من جماعة الى اخرى ومن جيل الى جيل .



ايضاحات :

١ - التقليد ، عامل للتقدم أم للانحطاط ؟

مما لا شك فيه أن التقليد اذا تمثل في اتباع واقتباس الجاهلين من العلماء فإنه عامل على ايجاد حركة تكاملية في المجتمعات البشرية وأساساً نجد أنّ العلوم والافكار والآداب والعادات البناءة ، كما أن الشؤون التربوية والانسانية قد انتقلت من جيل الى جيل عبر هذا الطريق .

إنّ الاطفال يكتسبون جلّ معلوماتهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريباً ،

١ - كما في الآية ٧٨ من سورة يونس .

٢ - الايات : ٧٠ - ٧٤ من سورة الشعراء .

٣ - الآية : ٧٠ من سورة الاعراف .

٤ - الآية : ٦٢ من سورة هود .

٥ - كما في الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

كما أن الصناعات والحرف والفنون تتوسع وتتكامل بهذا الطريق ايضاً، ولولا روح التقليد الايجابية والبناء لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبداً.

ولكن كما يتلوث الماء الصافي الذي هو عصب الحياة فيكون سبباً لتفشي المرض أو الموت فإن التقليد كذلك، فلو كان على شكل تقليد جاهل لجاهل أو تقليد عالم لجاهل فإنه يكون سبباً لانتشار الفساد والانحراف وتفشي الاخلاق الفاسدة والسيئة والانحراف الفكري وانتقال انواع الخرافات من قوم الى قوم آخرين ومن جيل الى جيل آخر.

كثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والتعصب، فالذين لا يتحملون جهود التحقيق لما فيهم من كسل يقبلون على التقليد، والمعاندون المتعصبون الذين لا يهتمون للبحث عن نقاط القوة لدى الاقوام الاخرى والاذعان لها، يألفون نقاط الضعف الموجودة في مجموعتهم، وقد كان هذا النمط من التقليد الاعمى والمتعصب والرجعي هو العامل المهم لشيوع الشرك وعبادة الاصنام على مرّ التاريخ^(١)



٢ - تزيين الشياطين وهوى النفس

يستفاد من الآيات القرآنية إن (اتباع الهوى) كان من عوامل الشرك ايضاً، كما نقرأ في قصة السامري جوابه حينما سأله موسى (عليه السلام) عن الدافع لعمله بأنه لاحظ اموراً لم يلاحظها غيره فقال: اخذت بعض آثار الرسول وألقيتها خارجاً واقبلت على الشرك ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾.

كما يستفاد من الآيات القرآنية أن تزيين الشيطان ووساوسه هي العوامل

١ - هناك بحوث حول (انواع التقليد) و(شرائط التقليد الايجابي) و«دوافع التقليد الاعمى» وشرحت كلمة (تقليد) في الجزء الاول من هذا التفسير في موضوع (حجاب التقليد) ج ١ ص ٣٤٢.

الممهدة للشرك أو استمرارها ، كما نقرأ في قصة ملكة سبأ أن الهدد عندما اخبر سليمان (ﷺ) عن شرك قوم سبأ قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

وما ينبغي ملاحظته هو أن هوى النفس ووساوس الشيطان تظهر في اطار العوامل السابقة كعبادة الاوهام (التقليد الاعمى) (العصبية اللجوجة) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل .



٣- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكري

يعتبر الشرك وعبادة الاصنام من الوسائل التي استخدمها المستكبرون والمستعمرون بشكل دائم لأنه :

اولاً: إنّ البسطاء من الناس يُعتبرون وسائل طيعة للمستكبرين ، ولذا يكون التحرك الاستعماري دائماً باتجاه الجهل والغفلة في اوساط المستضعفين ، ويسعى باستمرار الى صد الناس عن الوعي واليقظة والعلم والفكر وغلق أي نافذة للتحقيق في وجوههم واغراقهم في التقليد الاعمى الذي ينشأ منه التحميق كما يقول القرآن عن فرعون ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾^(١) .

وبما أن الشرك قائم على عبادة الاوهام والظنون فإنه عامل مؤثر في استغلال الجماهير ، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكبرين .

ثانياً: يعتبر الشرك عاملاً من عوامل الاختلاف والفرق فيوعز لكل قوم بأن يتخذوا معبوداً لهم ، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس ، ومجموعة لعبادة القمر ، ويشغل مجموعة بـ (هبل) ، ومجموعة بـ (اللات) و (العزى) ، حتى انقسم

المجتمع العربي الصغير في الجزيرة الى مئات المجموعات بسبب عبادة الاصنام المختلفة، على عكس التوحيد الذي يمثل حلقة الوصل بين القلوب ورابطاً وثيقاً بين الافكار.

ونعلم ايضاً أن الاختلاف مادام قائماً فإن المستعمرين في راحة بال، وأن مقولة (فرّق تسد) تُعد من اقدم المبادئ الاستعمارية، فلا عجب في أن يكون الفراعنة ونمرود وابو سفيان وامثالهم من انصار الشرك وعبادة الاصنام. ثالثاً: يرغب المستكبرون دائماً في أن يخضع الناس لهم وكأنهم آلهة ويتلقون اوامرهم كأوامر مقدسة لا نقاش فيها.

ومن الواضح أن من يسجد للحجر والخشب يكون اكثر تقبلاً للآلهة البشرية، ولذا اخذ فرعون ينادي في مصر (أنا ربكم الاعلى) واعتبر نفسه اعلى من الآلهة كلها.

بناءً على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الافكار الاستعمارية مع الشرك وعبادة الاصنام، وأن يكون خط الانبياء الذي يمثل خط تحطيم الاستعمار والاستضعاف هو خط التوحيد واليقظة والوعي. لتذكر مرة اخرى الحديث المروي عن الامام الصادق (عليه السلام) الذي قال فيه: «إن بني امية اطلقوا للناس تعليم الايمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي اذا حملوهم عليه لم يعرفوه»^(١).

إنّ هذا المضمون وان لم يصرح به في الآيات القرآنية إلا أنه اشير اليه كما نقرأ في الآية (٣١) من سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- كلمة اخيرة حول عوامل الشرك

من خلال البحوث التي اوردناها تتضح هذه الحقيقة وهي : أن الشرك وعبادة الاصنام كسائر الظواهر الاجتماعية لا تنشأ من عامل واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت فيما بينها واوجدته .

والميل الى المحسوسات والاستئناس بها والمطالبة بإله محسوس .

واللجوء الى الاوهام في المجتمعات المتخلفة (الظن بتأثير الاصنام في الشفاعة والعزة والنصر والتقرب الى الله والظن بعدم امكانية عبادة الله بصورة مباشرة ووجوب استخدام الوسائط والظن بقداسة التماثيل المصنوعة على هيئة الانبياء والصلحاء وأوهام اخرى) .

وهكذا التقليد الاعمى للاسلاف وعدم الاستعداد للتحقيق في قضية المعرفة الإلهية .

كذلك استغلال المستكبرين والمستعمرين للميل الى الشرك وعبادة الاصنام للوصول الى اهدافهم الشيطانية ، واستغلال الناس كانت عوامل مختلفة سببت نشوء فكرة الشرك أو استمراره وبقائه على طول التاريخ .

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القوية خط الانبياء الذي يدعو البشر من جهة الى التحرر من اطار الحس وادراك عالم ما وراء الطبيعة ، ومن جهة اخرى يدعوهم الى عبادة الله مباشرة والخضوع بين يدي رب الكون كله واللجوء الى ذاته المقدسة في كل حال والقضاء على الاوهام .

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التقليد الاعمى والاقبال على البحث في عالم الوجود ومعرفة الآيات الإلهية في الآفاق والانفس .

ومن جهة رابعة يدعو عالم البشرية الى الوحدة وتحطيم الاصنام المفرقة والتحرر من نير الاستغلال والاستعمار والغفلة والاستضعاف .

هذه هي الخطوط العامة للكفر والايمان والشرك والتوحيد .

ونختم هذا الكلام بما اورده العلامة الطباطبائي (رحمته الله) في تفسير الميزان في ذيل الآيات (٣٦ - ٤٩) من سورة هود تحت عنوان (كيف وُجِدَ الشرك) : « اتضح من الفصل المتقدم أن الانسان في مزلة من تجسيم الامور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع امام أي قوة فائقة قاهرة والاعتناء بشأنها ، ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الانساني سراية تكاد لا تقبل التحرز والاجتناب في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على اساس رفض الدين ، فترى فيها من النُصب وتمائيل الرجال وتعظيمها واحترامها والمبالغة في الخضوع لها ما يمثل لك وثنية العهود الاولى والانسان الأولي ، على أن اليوم من الوثنية على ظهر الارض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين في شرقها وغربها .

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم ، وكان رب البيت في الرومان واليونانيين القدماء - على ما يذكره التاريخ - يُعبد في بيته ، فاذا مات اتخذ له صنم يعبد به اهل بيته ، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في قومهم ، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لابراهيم (عليه السلام) ... وهو ذا يوجد في بيوت الاصنام الموجودة اليوم ، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم اصنام كثير من عظماء رجال الدين كبوذا واصنام كثير من البراهمة وغيرهم ، واتخاذهم الموتى وعبادتهم لها من الشواهد

على أنهم كانوا يرون أنهم لا يبطلون بالموت وإن ارواحهم باقية بعده ، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت اقوى وجوداً وانفذ ارادةً واشد تأثيراً من شوب المادة ونجت من التأثيرات الجسمانية والانفعالات الجرمانية ، وكان فرعون موسى يعبد اصناماً له وهو آله معبود في قومه ﴿وقال المَلَأ مِنْ قَوْمِ فرعون أَتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذكرك وألهتك﴾^(١) .

وما جاء في هذا البحث هو بعض عوامل الشرك، ولا بأس في الإشارة أخيراً الى نقطة تثير العجب ذكرها المؤرخ الغربي الشهير (ويل دورانت) في كتابه التاريخي وأيده الكثير من الذين سافروا الى خارج البلاد في هذا العصر بملاحظاتهم في تلك البلدان وهو وجود اصنام كثيرة صنعت على صورة الآلة التناسيلة للذكر والانثى ! حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة !

ويكتب : لعل (القمر) هو اول شيء وكانت له اولوية العبادة ، فقد كان الاله المحبوب لدى النساء وعبدنه حامياً لهن، واعتقدن بأن للقمر حكومة على الانواء الجوية وينزل هذا الجرم السماوي المطر والثلوج ، حتى أن الضفادع - كما في الاساطير - تتضرع اليه كي ينزل المطر .

وبعد التفصيل في هذا المجال وفي عبادة الشمس والارض والجبال والبحار يضيف : بما أن الانسان الاول لم يدرك أن حقيقة انعقاد نطفة الانسان من (الحيمن) و (البويضة) ، فلذلك كانوا يعتقدون بأن المبدأ الوحيد في وجود البشر هو هذا الموجود العجيب أي (الآلة التناسلية لدى الرجل والمرأة) اعتقدوا وجود روح عجيبة فيهما هي المبدأ لهذا الاثر العجيب، وهذا الامر كان سبباً في الاعتقاد التدريجي بالوهيتهما وتحولهم الى عبدة لتماثيل الآلة التناسلية !!

والاعجب أنه يكتب : قلمًا نجد قومًا لا يعبدون هذا الصنم بشكل ما!^(١)
وكما اشرنا فإنَّ عبادة الاصنام لا تزال منتشرة في الهند واليابان في الوقت
الحاضر.

ومن هنا يتضح جيداً أن الانسان اذا انحرف عن تعليمات الانبياء (عليهم السلام)
سيقع في مستنقعات متعفنة وسيرتكب اعمالاً مضحكة ومخجلة.
أمّا الموحّدون ذوو الدين الحق والقلب السليم فعليهم أن يشكروا الله
كثيراً على تحرّره بفضل تعليمات الانبياء من التلوّث بالشرك والسقوط في هذه
الاوذية الموحشة.



فروع التوحيد

١- توحيد الذات

٢- توحيد الصفات

٣- توحيد العبادة

٤- توحيد الافعال

التقسيمات الاساسية

قرأنا في البحوث السابقة أن الاساس في دعوة جميع الانبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم - هو التوحيد - وقد شرحنا الادلة عليه من القرآن والمنطق العقلي ، وقد آن الأوان هنا لمراجعة الابعاد المختلفة والفروع المتنوعة والغنية للتوحيد ، ومن هنا تتجلى اهمية هذه المسألة .

ومن المعروف لدى علماء العقائد أن التوحيد ذو فروع اساسية أربعة :

١- توحيد الذات (ذات الله واحدة ولا مثيل لها) .

٢- توحيد الصفات (صفات الله عز وجل ترجع كلها الى حقيقة واحدة هي

ذاته) .

٣- توحيد العبادة (تليق العبادة بذاته المقدسة فقط) .

٤- توحيد الافعال (هو المبدىء لكل خلق ونظام الكون وكل حركة وفعل

في هذا العالم) لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه) ولا يتنافى هذا مع اختيار الانسان ابدأ ، وتوحيد الافعال له فروع اخرى اهمها :

١- توحيد الخالق (الخلق منه فقط) .

٢- توحيد الربوبية (تدبير الكون اليه فقط) .

٣- توحيد المالكية والحاكمية التكوينية .

٤- توحيد الحاكمية التشريعية والتقنينية .

٥- توحيد الطاعة (تجب طاعة اوامره فقط أو اوامر الذين امر بطاعتهم)

ولا شك في أن افعال الله لا تنحصر في ما ذكر ، ولذا فإن فروع توحيد الافعال لا

تنحصر فيما ذكر ولكن هذه الفروع الخمسة هي الفروع الرئيسة .

وضروري أن نذكر بأن التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمي

التوحيد (الخاص) و (العام) .

التوحيد الخاص : هو فروع التوحيد التي اشير اليها بصورة اجمالية .

أما التوحيد العام فهو عبارة عن :

١ - التوحيد في النبوة (فجميع الانبياء (عليهم السلام) تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم

منهج اساسي واحد، ولذا لا نفرق بينهم من حيث الدعوة والمهمة) ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ .

٢ - التوحيد في المعاد (يحشر جميع البشر في يوم واحد ويحضرون

محكمة واحدة) .

٣ - التوحيد في الامامة (مبدأ الائمة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة

وهم نور واحد) .

٤ - التوحيد في النظم والعدل (القانون الالهي واحد بالنسبة لجميع

البشر) .

٥ - التوحيد في المجتمع البشري (الجميع عباد الله ومن أب واحد وأم

واحدة ولا يختلفون باختلاف اللون والعنصر واللسان وامثالها ويشكلون مجتمعاً واحداً) .

وبهذه المقدمة نراجع الآيات القرآنية ونبحث كل فرع من هذه الفروع

بصورة مستقلة .



(٢-١)

توحيد

الذات والصفات

تمهيد :

المراد من توحيد الذات حيثما كان الحديث عنه هو أن ذات الله المقدسة لا شبيه ولا نظير لها، وهي واحدة لا مثيل لها من أيّ جهة .

وبما أن الابحاث السابقة كانت تدور - عادة - حول محور توحيد الذات وقد اقيمت ادلة مختلفة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التي تم تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المضمون، لذا ننصرف عن تكرير البحث بصدد هذا ونتابع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات، ونستمع خاشعين أولاً الى الآيات الآتية :

١ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الشورى - ١١ .

٢ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة المائدة - ٧٣ .

٣ - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ سورة التوحيد .

جمع الآيات وتفسيرها:

يامن تعاليت على الخيال والقياس والظن والوهم

تفسر الآية الاولى توحيد الذات في جملة واحدة تفسيراً بليغاً ورصيناً

غني المعنى حيث تقول (ليس كمثله شيء) .

ومثل هذا الشيء - بالتأكيد - يكون اعلى من الخيال والقياس والظن

والوهم ، وليس بمقدورنا تصور ذاته ، لأن الاشياء الممكن تصورها هي التي

لاحظنا امثالها أو تحصلت بعد التركب والتجزئة ، أمّا الشيء الذي ليس له أي

مثيل فلا يتناوله الوهم والعقل أبداً، ومعرفتنا تكون بمقدار أنه موجود ونرى أفعاله وآثاره في عالم الوجود الواسع، ومن هذه الاوصاف ندرك صفاته إجمالاً، ولكن ليس بمقدور حتى الانبياء المرسلين والملائكة المقربين أن يدركوا حقيقة ذاته .

والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة في سلم معرفة الانسان به عز وجل والحديث المعروف: «ما عرفناك حق معرفتك»^(١) المروي عن النبي (ﷺ) بيان لذروة العرفان البشري بالله عز وجل .

والدليل على ذلك واضح لأنه كما ذكر في بحث ادلة التوحيد هو وجود لا متناهي ولا نهاية له من كل جهة، وكل ما سواه محدود ومتناهٍ من كل جهة، ولذا لا يمكن قياسه الى غيره، وبما أن وجودنا وعقولنا وافكارنا محدودة فإنا لا نصل الى كنه تلك الحقيقة اللامحدودة ابداً .

استناداً الى هذا التفسير فإن (الكاف) في (ليس كمثله شيء) تكون زائدة وللتأكيد^(٢)، أي لا يوجد شيء شبيه له ابداً، نعم يمكن ان يفيض سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته في عالم الممكنات ولكن مخلوقاته الممكنة ليست مثله ابداً .

ولكن بعض المفسرين لم يعتبر (الكاف) زائدة وقالوا: مفهوم الآية هو (لا يوجد مثيل لله) أي أن (مثل) هنا تعني (الذات) كما نقول: مثلك لا يسلك هذا الطريق المعوج، أي لا ينبغي لك ان تفعل هذا .

وقال البعض ايضاً: إن (مثل) هنا بمعنى الصفات، أي لا يوجد موجود يتصف بأوصاف الله .

١ - بحار الانوار: ٣ / ١٤ .

٢ - جاء في تفسير (روح المعاني): إن بعض المفسرين اعتبر (مثل) زائدة ولكن اشكل عليه ابو حيان وقال: الاسم لا يكون زائداً في اللغة العربية ابداً .

وواضح أن نتيجة هذه التفاسير الثلاثة في بحثنا تكون واحدة وإن كانت تبحث الموضوع من طرق متباينة .

والجدير ذكره هو أننا نقرأ في حديث أن رجلاً جاء إلى رسول (ﷺ) وسأل: ما رأس العلم؟ فاجاب (ﷺ): « معرفة الله حق معرفته و اضاف: أن تعرفه بلا مثال ولا شبه وتعرفه الهأ واحداً خالقاً قادراً أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، لا كفوله ولا مثل له فذاك معرفة الله حق معرفته »^(١) ومن الواضح أن (حق معرفته) هذه نسبة وإلا - كما قلنا - لا يعرفه على ما هو عليه أحد .

في الآية الثانية يعتبر القرآن الكريم القائلين بأن الله ثالث اقنوم من الاقانيم الثلاثة^(٢) كفاراً ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ .

وينبغي الالتفات إلى أن الآية لم تقل: إن الذين يعتقدون بالآلهة الثلاثة كفار بل تقول: (إن الذين يعتبرون الله اقنوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثة كفار) . وقد سلك المفسرون في فهم مضمون الآية مسالك مختلفة .

فقال بعضهم: إن المراد هم الذين يعتقدون أن الله جوهر واحد في الذوات الثلاثة (الاب) و (الابن) و (روح القدس)، ويقولون: إنه واحد في عين تعدده، كما أن لفظ الشمس يشمل قرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة^(٣)، وبعبارة أخرى: المراد هو عقيدة (التوحيد في التثليث) القائلة بأن الله في عين كونه ثلاثة يكون واحداً (وهذا كلام غير معقول طبعاً لأن العدد «ثلاثة» لا يساوي «واحداً» ابداً، إلا أن يكون احدهما مجازياً والآخر حقيقة) .

١ - بحار الانوار: ٣ / ١٤ .

٢ - الاقنوم بمعنى الاصل والذات وجمعه اقانيم، وهو تعبير يطلقه النصارى على الآلهة الثلاثة ومسألة التثليث .

٣ - تفسير الفخر الرازي: ١٢ / ٦٠ .

وقد جاء في تفسير القرطبي: إن الآية تشير إلى فرق النصارى من الملكية (أو الملكانية) والنسطورية واليعقوبية لأنهم يقولون: أب وابن وروح القدس إله واحد^(١).

ولكن الظاهر أنه خطأ لأنهم نسبوا هذه العقيدة إلى جميع النصارى في القول بالتثليث والتوحيد معاً.

والعلامة الطباطبائي يقول: إن ثالث ثلاثة يعني أن كل واحد من هذه الثلاثة: (الأب والابن وروح القدس، هو إله ينطبق على كل واحد منها وهي ثلاث ذوات وفي الوقت نفسه ذات واحدة)^(٢).

ولكن الآية تتحدث في الظاهر عن غير هذا كله، فالكلام يدور حول إن الاعتقاد بأن لله ذات ثلاثة كفر، أي ليس الاعتقاد بالآلهة الثلاثة موجباً للكفر بل جعل الله تعالى في عرض الموجودات الأخرى واعتباره الثالث من الذوات الثلاثة، وبعبارة أخرى اعتبار (الوحدة العددية) له موجب للكفر (فتأمل جيداً).

وقد ورد بيان هذا المعنى بشكل لطيف في حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث نقرأ بأن أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين في يوم حرب الجمل فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أمّا ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم؛ ثم قال: يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوز أن على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا

١ - تفسير القرطبي: ٤٤ / ٢٢٤٦، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في تفاسير أخرى مثل روح البيان والمنار في ذيل آية البحث.

٢ - تفسير الميزان: ٦ / ٧٣.

يجوز أن عليه فقول القائل : واحد يقصد به باب الأعداد فهذا مالا يجوز ، لأن مالا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثة ؛ وقول القائل : هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا مالا يجوز لأنه تشبيه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل : هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا ؛ وقول القائل : إنه عز وجلّ أحديّ المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجلّ^(١) .

القسم الثالث والأخير عبارة عن سورة التوحيد التي ترسم وحدانية الله بأروع الصور وتتضمن كلاماً جامعاً ينفي تثليث النصارى والثنوية (عبادة الاثنين) لدى المجوس وشرك المشركين ، فتقول أولاً : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، وهو تعبير يدل على أن أسئلة مختلفة قد طرحت على نبي الإسلام (ﷺ) حول المعبود الذي يدعوهم إليه ، فأمر أن يشرح لهم جميعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل القصيرة المركزة المعنى .

(أحد) وأصلها (وَحَد) من (وحدة) استبدلت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أن (أحد) و (واحد) بمعنى واحد ، وقد اشير إلى هذا المضمون في بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى الذات التي لا مثيل لها^(٢) .

وقد فرّق بعض بين (أحد) و (واحد) . قالوا تارة : إن (أحد) من الصفات المختصة بالله لأنه لا يطلق على الإنسان وغيره ، أما (واحد) فانه ليس كذلك . وقالوا تارة أخرى : إن (واحد) يستعمل في الإثبات والنفي ولكن (أحد) يستعمل في النفي فقط .

وقالوا تارة : إن (أحد) إشارة إلى وحدة الذات و (واحد) إشارة إلى وحدة الصفات .

١ - بحار الانوار : ٢ / ٢٠٦ ، الحديث ١ .

٢ - بحار الانوار : ٣ / ٢٢٢ .

وقالوا رابعة: ان (أحد) يطلق على الذات التي لا تتقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذا لا يمكن عدّه بعكس الواحد الذي يتصور له الثاني والثالث.

وقالوا خامسة: ان (أحد) اشارة الى بساطة ذات الله عز وجل ونفي أي جزء عنه، في حين أنّ (واحد) فيه اشارة الى وحدانية ذاته قبالة ان يكون له مثيل. غير ان تلك التفاسير الاربعة لا تمتلك دليلاً واضحاً، فمثلاً يقال: يوم الأحد، ويطلق الواحد على الله في القرآن ﴿اله واحد﴾^(١) كما أن «أحد» استعمل في جملة ثبوتية كما في آية البحث وآيات قرآنية أخرى^(٢).

فالصحيح هو أن نقول بان الاثنين يشير ان الى معنى واحد.

على كل حال، يعتقد بعض المفسرين ان جملة (الله احد) هي أكمل وصف لمعرفة الله يمكن ان يستقر في عقل الانسان، لان كلمة (الله) تشير الى الذات التي لها صفات الكمال كلها وفي (احد) اشارة الى نفي الصفات السلبية كلها^(٣).

والقرآن الكريم في اكمال هذه الآيات يقول: ﴿الله الصمد﴾ فهو اله قائم بالذات وغني ويقصده كل المحتاجين ويتوجهون اليه.

وكلمة (صمد) كما في (مقاييس اللغة) لها أصلان: احدهما يعني القصد، والثاني الصلابة والاستحكام، وعندما تستعمل بصدد الله تعالى فان معناها هو الغني المطلق الذي يتوجه اليه كل المحتاجين، وتعني ايضاً الذات الواجبة الوجود والقائمة بذاتها.

ومن الممكن ان يرجع الاصلان الى اصل واحد، لان الذات المستحكمة

١- سورة البقرة: الآية ١٦٣.

٢- الآيات: سورة التوبة: الآية ٦، سورة النساء: ٤٣، سورة مريم الآية ٢٦، سورة البقرة: الآية ١٨٠، سورة الكهف: الآية ١٩ وآيات كثيرة أخرى.

٣- تفسير الفخر الرازي: ٣٢ / ١٨٠.

والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنية - طبعاً - وموضِعاً لتوجه جميع المحتاجين ،
وعليه فان (صمد) يمكن ان يكون اشارة اجمالية الى جميع الصفات الثبوتية
والسلبية لله تعالى . ولعله لهذا الدليل ذُكرت معان كثيرة لـ (صمد) في الروايات
الاسلامية حيث يشير كل واحد منها الى احدى صفات الله ^(١) .

على اي حال ، لا تخفى العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة لها التي
تتحدث عن وحدانية الله ، لان واجب الوجود والغني وحاجة جميع
الموجودات اليه تستلزم ان يكون واحداً واحداً .

وفي الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة
النصارى في الآلهة الثلاثة (الاب ، والابن ، والواسطة بينهما) ، وتبطل عقيدة
اليهود بأن عزير ابن الله . كما تبطل عقيدة المشركين العرب في أن الملائكة بنات
الله ، أجل ، انها ومن أجل نفي هذه الامور كلها وامثالها تقول ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .
ومن المسلّم به أن يكون للوجود الذي له ولد أو والد شبيه ومثيل ، لعدم
امكانية انكار الشبه بين الاب والابن ، وعليه لا يمكن ان يكرن واحداً ولا مثيل له .
ولذا يقول بعد هذه الآية : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وعليه فان الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكد على أحدية الله المقدسة
ووحدانيته وعدم الشبيه والمثيل له ، وبعبارة اخرى تكون كل آية في هذه السورة
تفسيراً للآية السابقة لها ، وبمجموعها اوضحت مسألة التوحيد بشكل جامع وتام
وتجسدت شجرة التوحيد الطيبة بكل اغصانها واوراقها .



ايضاحات:

١- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يقول كثير من الناس: إن معنى توحيد الذات هو أن الله واحد وليس اثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير هذه الآيات، لأن مفهومها الواحد العددي (أي أن يتصور الثاني لله عز وجل ولكن لا وجود خارجي له) ومن المسلم أن هذا كلام غير صحيح، والصحيح هو أن يقال: إن توحيد الذات هو أن الله واحد ولا يتصور له الثاني، وبعبارة أخرى: أن الله لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شيء ولا هو يشبه شيئاً لأن هذا الوجود اللامتناهي الكامل هو الذي يتصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) حينما سأل أحد أصحابه: أي شيء أكبر الله؟ فاجاب: الله أكبر من كل شيء. ثم قال الإمام (عليه السلام): فكان ثم شيء فيكون أكبر منه؟! فقال: فما هو (ما المراد من هذه الكلمة)؟ فاجاب (عليه السلام): الله أكبر من أن يوصف^(١).

٢- مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إن توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإن مفهومه هو: كما أن ذات الله عز وجل ازلية وابدية فإن صفاته كالعلم والقدرة وامثالها ازلية وابدية ايضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هذه الصفات ليست زائدة على ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعرض بل هي عين ذاته.

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها، أي أن علمه وقدرته شيء

واحد والاثنان عين ذاته!

بيان: عندما نراجع انفسنا نرى أننا كنا نفقد الكثير من الصفات، فلم نملك

حين الولادة علماً ولا قدرة، ولكن هذه الصفات نمت فينا تدريجياً، ولذا نقول :
 إن هذه امور زائدة على ذواتنا، ولذا يمكن أن يمر بنا اليوم الذي نفقد فيه القوة
 العضلية والعلوم والافكار التي نملكها ونرى بوضوح ايضاً إن علمنا وقدرتنا
 منفصلتان، فالقدرة الجسمية في عضلاتنا ولكن العلم موجود في الروح !
 ولا يتصور في الله أي معنى من هذه المعاني، فذاته كلها علم وقدرة وكل
 شيء في ذاته واحد، ونسلم طبعاً بأن تصور هذه المعاني - بالنسبة لنا نظراً
 لفقداننا لهذه الصفة - معقد وغير مألوف ولا سبيل اليه إلا قوة المنطق
 والاستدلال الدقيق واللطيف .



٣- الدليل على توحيد الصفات

إن التعمق في صفات المخلوقات وعدم القدرة على استيعاب مفهوم
 توحيد الصفات هو السبب في انحراف بعض المتكلمين وعلماء العقيدة عن
 المسير الصحيح في موضوع صفات الله، امثال طائفة (الكرامية) وهم اتباع
 محمد بن كرام السيستاني الذين اعتقدوا بأن صفات الله حادثة . أن الله لم يكن
 مالكا لهذه الصفات ابتداءً ثم امتلكها !

وهذا الكلام في غاية القبح ! ولا يمكن لأحد أن يصدق، مَنْ يصدق بأن
 الله كان عاجزاً في البداية ثم اقتدر، فمن الذي اعطاه القدرة ؟ ومن الذي وهبه
 العلم ؟ !

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات الفعل كالخالقية والرازقية، لأن
 الله قبل ان يخلق موجوداً أو يرزقه لا معنى للخالقية أو الرازقية بالنسبة اليه (طبعاً
 كان قادراً على الخلق والرزق ولكن القدرة على شيء غير ايجاده) إلا أن البحث
 في توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو في صفات الذات كالعلم

والقدرة ، وكما سيأتي مفصلاً بأن صفات الفعل مستقلة عن صفات ذات الله ،
فصفات الفعل شيء ينتزعه العقل بعد مشاهدة افعال الله وينسبها الى
الله (سنقرأ تفصيل ذلك في هذا الكتاب) .

وأوضح اشارة في باب اثبات وحدة الصفات في الآيات القرآنية هي الآية
القائلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾ التي تقدم تفسيرها وتدل على
أن ذاته المقدسة لا تتصف بأية اثنية .

ويمكن في الاستدلالات العقلية الاستناد الى بعض النقاط :

- ١ - ثبت في الابحاث السابقة أن الله غير متناهٍ من جميع الجهات ولذا لا
توجد خارج ذاته أية صفة كمال ، فكل ما يوجد مجموع في ذاته ، وعندما نرى
أن صفاتنا حادثة أو أنها غير ذاتها فإن السبب هو أننا موجودات محدودة ، ولهذه
المحدودية تكون الاوصاف والكمالات خارج ذواتنا وهي مما نكتسبها احياناً ،
أمّا ذات الله وهو الكمال المطلق فأى صفة يمكن تصورها خارج ذاته المقدسة ؟
- ٢ - لو قلنا بأن صفاته مضافة الى ذاته او اعتقدنا بان صفاته كالعلم والقدرة
منفصلة عنه فإن النتيجة هي التركيب (تركيب من الجوهر والعرض بل عوارض
متعددة) في حين ثبت مسبقاً أنه لا سبيل لأي تركيب في ذاته خارجياً أو عقلياً .
وقد أشار امير المؤمنين (عليه السلام) الى هذا المضمون في الخطبة الاولى من
نهج البلاغة بعبارة جميلة جداً في باب توحيد الصفات :

« وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير
الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد
قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزّاه ، ومن جزّاه فقد جهله » .



٣- التوحيد في العبادة

تمهيد:

إنَّ توحيد العبادة هو من أكثر فروع التوحيد حساسية ويعني أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد إلا له .

ويمكن القول : إن عنوان دعوة الانبياء والقاعدة الاولى لشرائعهم هو قضية التوحيد في العبادة ، وغالباً ما كانت مواجهاتهم مع المشركين تنشأ من هذه النقطة .

صحيح أن (التوحيد في العبادة) يلزم (توحيد الذات والصفات) حيث تقرر أن واجب الوجود وكل ما سواه ممكن ومحتاج اليه فلا سبيل إلا أن تكون العبادة مختصة به .

أنه هو الكمال المطلق ، ولا يوجد كمال مطلق سواه . والعبادة تعتبر طريقاً للوصول اليه ، فلا بد أن تكون مختصة به .

والملاحظ أن الآيات القرآنية مليئة بالدعوة الى التوحيد في العبادة ونحن نذكر هنا اقسامها الحساسة بغية الوصول الى هذا النداء القرآني المهم ونهتم بالبقية ضمن اشارات بليغة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات القرآنية الآتية :

١ - ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن

هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿ سورة النحل - ٣٦ .

٢ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ ﴿ سورة الانبياء - ٢٥ .

٣ - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ سورة الاعراف - ٥٩ .

٤ - ﴿ ... وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿ سورة التوبة - ٣١ .

٥ - ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا اتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ

ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿ سورة الانعام - ٥٦ .

٦ - ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿ سورة الحجر - ٩٩ .

٧ - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿ سورة البينة - ٥ .

٨ - ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ سورة مريم - ٣٦ .

٩ - ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ

فَاعْبُدُونِ ﴿ سورة العنكبوت - ٥٦ .

١٠ - ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿ سورة النور - ٥٥ .

١١ - ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ

أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ سورة آل عمران - ٨٠ .

١٢ - ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ

وَالْآصَالِ ﴿ سورة الرعد - ١٥ .

شرح المفردات :

المفهوم الدقيق للعبادة

(العبادة) و (العبودية) كلمتان تعنيان ابراز الخضوع ، وعلى ما يذهب اليه الراغب في المفردات ، فإن للعبادة مفهوماً اعمق وتعني غاية الخضوع بين يدي من له غاية الإنعام والإكرام وهو الله عز وجل .

ويبدو أن الاصل في هذا اللفظ مشتق من (عبد) إلا أن (عبد) كما في (لسان العرب) و (كتاب العين) يطلق على كل انسان عبداً كان أم حراً (لأن البشر كلهم عبيد الله) ويطلق تارة على العبيد خاصة .

ويضيف الراغب : العبد أربعة أضرب :

١ - عبدٌ بحكم الشرع وهو الانسان الذي يصحّ بيعه وشراؤه .

٢ - عبدٌ بمعنى مخلوق .

٣ - عبدٌ بالعبادة والخدمة ، والناس في هذا ضربان: عباد لله وعباد الدنيا (وعباد الرحمن) و (عبيد الدنيا) .

وفي مجمع البحرين إن هذه الكلمة تستعمل تارة بمعنى (الحزب والفئة) والآية: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾^(١) فيها اشارة الى ذلك .

وهذه النقطة جديرة بالاهتمام وهي أنهم قسموا العبادة الى نوعين :

العبادة الاختيارية التي امرت بها الآيات القرآنية، والعبادة غير الاختيارية ،

كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٢) .

١ - سورة الفجر: الآية ٢٩ .

٢ - سورة الاسراء: آية ٤٤ .

ويقول الطريحي في (مجمع البحرين): إن الحكماء قَسَمُوا العبادة إلى ثلاثة اقسام وهي :

الأول : ما يجب على الابدان كالصلاة والصيام والسعي في المواقف الشريفة لمناجاته جلّ ذكره (عبادة جسمانية).

الثاني : ما يجب على النفوس كالاقتادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقه من الثناء والتمجيد والتفكير فيما أفاضه الله سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثم الإتساع في هذه المعارف (عبادة روحانية).

الثالث : ما يجب عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الامانات ونصح بعض لبعض بضروب المعاونات وجهاد الاعداء وحماية الحوزة^(١) (عبادة اجتماعية).

(طاغوت) صيغة مبالغة من (الطغيان)^(٢) ، والطغيان كما نعلم هو تجاوز: كل حد ، ولذا تطلق كلمة طاغوت على كل موجود متمرّد ومعتدٍ كالشيطان ، والسحرة ، والجبارين ، والحكام الظالمين ، والتيارات التي تنتهي بغير الحق . وتأتي هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع .

وذكر (الطبرسي) في (مجمع البيان) في تفسير آية الكرسي خمسة معانٍ للطاغوت هي : الشيطان ، الكاهن ، الساحر ، الإنس والجن المتمردون والاصنام (ومن الواضح أن هذه الاقوال ترجع كلها إلى معنى جامع واحد أشير إليه).

١ - مجمع البحرين للطريحي : الربع الثالث : ص ١٠٨ .

٢ - قال البعض إن الاصل هو (طفوت) ثم جاء لام الفعل بدلاً عن عين الفعل وانقلبت الواو المفتوحة قبلها إلى الف وصارت (طاغوت).

جمع الآيات وتفسيرها :

هو المعبود وحده

إِنَّ آيَةَ الْبَحْثِ الْأُولَى تُعْتَبَرُ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ هِيَ الْمَنْهَجُ الْأَسَاسِيُّ لِرِسَالَةِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

وهذه الكلمات تُطْرَحُ فِي مُوَاجَهَةِ الَّذِينَ تَنْقُلُ عَنْهُمْ (الآيَةُ ٣٥ مِنْ سُورَةِ النحل) تَبْرِيرَاتِهِمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ وَالْقُرْآنُ يَقُولُ فِي رَدِّهِمْ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فَقَدْ دَعَا الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا إِلَى التَّوْحِيدِ فِي الْعِبَادَةِ وَعَارَضُوا عِبَادَةَ أَيِّ مَوْجُودٍ غَيْرِ اللَّهِ . فَمَا هَذِهِ الْفَرِيَّةُ الَّتِي تُنْسَبُونَهَا إِلَى اللَّهِ ؟ !

وَتُضَيَّفُ بِأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا إِلَى طَائِفَتَيْنِ تَجَاهُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ (ﷺ) ، طَائِفَةٌ اسْتَعَدَّتْ لِلْهُدَايَةِ وَكَانَتْ تَطْلُبُهَا فَهْدَاهَا اللَّهُ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ ، وَطَائِفَةٌ خَالَفَتْ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ ، ثُمَّ تَأْمُرُ الْآيَةُ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَجَلٌ ، إِنَّهُمْ وَبِسَبَبِ انْحِرَافِهِمْ عَنْ جَادَةِ التَّوْحِيدِ وَبِسَبَبِ الطَّغَاةِ وَقَعُوا فِي وَحْلِ الْفُسَادِ وَالشَّقَاءِ ، وَنَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الْأَلَهِيُّ .
وَالْمَلَا حِظُّ أَنَّ الْآيَةَ تُنْسَبُ الْهُدَايَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَوْلَا التَّوْفِيقُ وَالْإِمْدَادُ الْأَلَهِيُّ لَمَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْلُغَ الْهَدَفَ بِقُدْرَتِهِ ، فِي حِينٍ تُنْسَبُ الضَّلَالَةُ لَهُمْ لِأَنَّهَا نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ .

* * *

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ تَوَافِقُ الْآيَةَ الْأُولَى بِعِبَارَةٍ أُخْرَى وَتَقُولُ كَقَضِيَّةٍ عَامَّةٍ

وخالدة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .
 والملفت أن (نوحى) فعل مضارع ويدل على الاستمرار، أي أننا اوحينا التوحيد في العبادة الى كل نبي وقد أمر جميع الانبياء بابلاغ ذلك طيلة دعوتهم .
 وعليه فان هذه المسألة استمرت اصلاً اساسياً في تاريخ الانبياء (عليهم السلام) .



الآية الثالثة تنقل كلاماً عن اول نبي من أولي العزم وهو شيخ الانبياء نوح (عليه السلام) الذي لم تتضمن دعوته منذ بدايتها نداء سوى نداء التوحيد في العبادة ورفض الاصنام حيث يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

ويستفاد من هذه الجملة بأن الشرك كان ولا يزال ادمى شوكة في طريق سعادة البشرية ، والانبياء الذين يمثلون الرعاية لبستان التوحيد كانوا يهتمون قبل كل شيء برعاية زهور الفضيلة في الروح البشرية ويقتلعون هذه الاشواك المعترضة بمنجل التوحيد ، وخاصة في عصر نوح (عليه السلام) . كما يستفاد من (الآية ٢٣ من سورة نوح) حيث كانت هناك اصنام عديدة ومتنوعة باسم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) .

وكانت على هيئة رجل ، وامرأة ، وأسد ، وفرس ونسر على التوالي ، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم ، ولما رأى نوح منهم العناد والاصرار هددهم بعذاب الله، كما نقرأ في ذيل هذه الآية: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، أي أنني اخاف عليكم عاقبة الشرك .

والظاهر أن المراد من اليوم العظيم هو يوم الطوفان الذي لم يحدث نظيره في تاريخ العقوبات التي نزلت على الاقوام السابقة ، كما احتمل ان (يوم عظيم)

إشارة إلى يوم القيامة^(١).

وقد جاء في تفسير الميزان بأن هذه الآية قد جمعت أصليين من أصول الدين في جملة قصيرة هما: (التوحيد والمعاد) كما جاء الأصل الثالث وهو (النبوّة) في آية ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾^(٢).

* * *

الآية الرابعة تتحدث عن اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن جادة التوحيد، فقد اعتبر اليهود أحبارهم (علماء الدين اليهود) واعتبر النصارى رهبانهم والسيد المسيح معبودات لهم!

ثم تقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وتؤكد:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وللتأكيد تضيف: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وبهذا فإن الدين الذي أقام النبي نوح (عليه السلام) قواعده وأصل طريقته في دعوة موسى (عليه السلام) والسيد المسيح (عليه السلام) بكل قوة وثبات.

صحيح أن النصارى كانوا يعبدون السيد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الاحبار، والنصارى لم يعبدوا الرهبان، بل لإطاعتهم المطلقة لهم واستسلامهم لتحريفهم وتغييرهم الأحكام الإلهية أطلق على ذلك عنوان الشرك. ولذا جاء في الأحاديث: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»^(٣) وسيأتي تفصيل هذا الموضوع في بحث (توحيد الطاعة) بإذن الله.

١ - هذان التفسيران قد صرح بهما في كلمات المفترين السابقين ومنها ما أشار إليها الفخر الرازي في الجزء ١٤ ص ١٤٩ في ذيل آيات البحث.

٢ - تفسير الميزان: ٨ / ١٨٠.

٣ - تفسير نور الثقلين: ٢ / ٢٠٩.

لا أعبد غير الله

في الآية الخامسة يصل الدور الى النبي الاكرم (ﷺ) حيث يأمره الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

واستخدام (الذين) الذي يستعمل لجمع المذكر العاقل في معبوداتهم هو إماماً لتصورهم في عالم وهمهم وخيالهم أن الاصنام ذات روح وعقل وشعور، وأماماً لوجود اشخاص كال المسيح أو الملائكة والجن بين هذه المعبودات.

ولتبيان الدليل على هذا المنع والنهي الالهي تضيف الآية: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

ويعني هذا أن جذور الشرك كلها ترجع الى عبادة الهوى والظن والوهم، ومن المسلم به أن اتباع الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهي بالسعادة والهداية ابداً.



الآية السادسة توجه الخطاب الى النبي (ﷺ) وتأمره بأن يثبت ويواصل عبادة الله الواحد واجتناب كل شرك وعبادة للاصنام حيث تقول: ﴿واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

وقد فسر المفسرون (اليقين) هنا بمعنى الموت، واعتبروه نظير قول السيد المسيح (ﷺ): ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(١)، ونقرأ في موضع آخر من القرآن على لسان اهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّى آتَانَا الْيَقِينُ﴾.

كما جاء التعبير عن (الموت) بـ(اليقين) في الروايات الاسلامية، ففي

الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) نقرأ قوله عن الموت: «لم يخلق الله يقيناً لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من الموت»،^(١) (لأن الناس لا يكثرثون به وكأنهم لا يصدقون أنهم سيموتون)!

والتعبير عن (الموت) بـ (اليقين) أمّا لما اشير اليه في الحديث المذكور أي هو مسأله يقطع بها جميع الناس ولا اختلاف بين المذاهب والعقائد المتباينة في هذه المسألة .

وأما أن الانسان يتيقن بالكثير من القضايا التي يتردد فيها وذلك عند زوال الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق (من الممكن طبعاً الجمع بين هذين المعنيين) .

والتعبير بـ (يأتيك) ايضاً اشارة لطيفة الى هذا الموضوع وهو أن الموت يقبل على الانسان شاء أم ابى!



في الآية السابعة يلاحظ هذا المضمون نفسه مع اضافات اخرى ، وفيها اشارة الى طائفة من اهل الكتاب الذين انحرفوا عن التوحيد وجعلوا الله انداداً في العبودية حيث تقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾^(٢) .

والملاحظ أن الآية تحصر الاوامر الالهية كلها في العبادة المخلصة ثم في اقامة الصلاة وادائها ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهذا يدل على أن الاصل في التعاليم الدينية يرجع الى الاخلاص في العبودية، والملاحظ ايضاً أن الآية

١ - تحف العقول : ٢٧١ .

٢ - يقول الراغب في المفردات: (حنف) على وزن (كنف) تعني الميل من الضلال الى الصراط المستقيم وإنما يقال للاسلام (الدين الحنيف) لأنه يمنع المسلمين عن أي انحراف عن الصراط السوي .

تضيف في ذيلها: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(١).

* * *

الآية الثامنة تنقل نكتة وردت في قول السيد المسيح (ﷺ) حيث قال :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

ونعلم أن الخط المستقيم بين نقطتين واحد لا أكثر، في حين توجد آلاف الخطوط المنحرفة بينهما، فخط التوحيد واحد لا غير وكل ما سواه فهو شرك وعبادة اصنام.

(مستقيم) من (الاستقامة) ومشتقة في الاصل من (القيام)، وبما أن الانسان يقف مستوياً في قيامه فإن هذه الكلمة استعملت بمعنى كل طريق ومنهج معتدل ومستوٍ وخالٍ من الانحراف.

والملاحظ أن القرآن وفي سورة الحمد قد جعل النقطة المقابلة للصراط المستقيم هو طريق المغضوب عليهم و (الضالين)، والطائفة الاولى هم الضالون من أهل العناد واللجاجة والذين يصرون على مسيرتهم ومسيرة غيرهم المنحرفة، والطائفة الثانية هم الضالون البسطاء.

إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا

نواجه في الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوجه الامر الى المؤمنين، وذلك عندما يكون البقاء في مكان حتى أوطانهم الخاصة مانعاً من عبادة الله ومزعزعاً لتوحيد عبادته فعليهم أن يهجروا ذلك المكان تقول الآية: ﴿يَا عِبَادِي

١ - قِيَمَةٌ مشتقة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب في المفردات: إن معناها هي الامة التي تقوم بالقسط والعدل كما جاء في الآية.. ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿١﴾ .

اجل ، أن ارض الله واسعة ولا يمكن ابدأ الاذعان لذل الشرك وأسر الكفر وعبادة الاصنام من اجل امور من قبيل القوم والقبيلة والبيت والوطن الحبيب ، بل إن واجب كل مؤمن موحد هو أن يهجر وطنه في مثل هذه الظروف ويحل في وطن مناسب ويُبقي شمعة التوحيد مشتعلة ، وقد يُوفَّق - كالمهاجرين في العهد الاول للاسلام - لإعداد القوة اللازمة ويرجع الى وطنه ويزيل آثار الشرك وعبادة الاصنام عن وجهه .

والتعبير بـ (يا عبادي) ، و (ارضي) ، و (إِيَّايَ فاعبدون) فالآية مقرون بالرحمة واللطف الالهي واشارة الى نصره المستمر للموحدين اينما كانوا وفي كل زمان^(١) .

والملاحظ أن المخاطب في الآية هم (العباد) ، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة الله الواحد ، وفي ذلك اشارة الى أن العباد ينبغي أن يواصلوا مسيرة التوحيد الى آخر العمر ولا ينحرفوا لحظة واحدة ، وهذا نظير تكرير الجملة: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لدى المؤمنين ، حيث يطلبون فيها استمرار هذه النعمة الى جانب الهداية. على أي حال ، فإن الآية دليل على وجوب الهجرة من ارض الشرك وعبادة الاصنام الى دار الايمان ، إلا أن يُوفَّق الانسان لتغيير الاوضاع السائدة على تلك الارض .

آية البحث هي من آيات سورة العنكبوت التي يقول عنها المفسرون: إن الآيات الاحدى عشرة الاولى منها نزلت في المدينة بصدد الذين كانوا في مكة واطهروا الاسلام ولكنهم لم يعزموا على الهجرة الى المدينة ، والآية التي بعدها تقول :

١ - لاحظوا أن (إِيَّايَ فاعبدون) بسبب تقدم المفعول على الفعل تدل على الحصر وتبين انحصار العبادة في الله .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وفيها اشارة الى هذا المعنى وهو أن الجميع سيموتون وينفصلون عن الوطن والزوج والمال ، فلا تظنوا أنكم إن بقيتم في اجواء ملوثة بالشرك فإنكم سوف تبقون الى جنب أحبائكم ابدًا^(١).



تستند الآية العاشرة الى نقطة جديدة اخرى في هذا المجال ، وتؤمل المؤمنين جميعاً بأنهم سيكونون مالكين وحكاماً للارض كلها ، كما أن التوحيد سيضئ العالم بأسره ولا يعبدون إلا الله ، وعلى هذا فإنها تبشر بتوحيد العبادة الخالصة كبشارة كبرى لكل المؤمنين وتقول : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وهناك بحث بين المفسرين في تحديد ماهية هذه الطائفة التي ورثت الارض وعاشت في عصور قديمة ، والمناسب أن يقال: انها اشارة الى بني اسرائيل الذين اصبحوا ملوكاً وحكاماً على المساحة الاكبر في الارض بعد نهضة موسى (عليه السلام) وانهايار حكومة الفراعنة، وكما يقول القرآن الكريم في سورة الاعراف الآية ١٣٧: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾^(٢).



وتتضمنُ الآية الحادية عشرة اشارة الى نقطة جديدة في هذا المجال حيث تؤكد أن الانبياء العظام والملائكة المقربين لا يستحقون العبادة فضلاً عن

١- (روح البيان) و (روح المعاني) وتفسير (القرطبي) في ذيل آية البحث.

٢- هناك بحث مفصل آخر في هذا المجال قد ورد في تفسير نمونه: ١٤ / ٥٢٧ تحت عنوان الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكة والانتصارات الواسعة بعد النبي ﷺ والنموذج الأتم والكامل سيتحقق عند قيام الامام المهدي (عج).

الاصنام ، فالعبادة مختصة بالله عز وجل وتقول : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾^(١) .

ولمزيد من التأكيد تضيف الآية : ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .
(أرباب) جمع (رب) ويعني في الاصل المالك المصلح ، أي المالك الذي يسعى في تدبير ملكه وتربيته واصلاحه ، ولذا فإن (رب الدار) و (رب الإبل) جاء بمعنى المالك والمدير للبيت أو الابل ، وندر في القرآن الكريم استعمال (رب) في غير الله ، منها الآية ٤٢ و ٥٠ من سورة يوسف حيث استعملت كلمة (رب) في صدد ملك مصر ، ويستفاد من عبارات هذه السورة بأن هذه الكلمة كانت كثيرة الاستعمال في الشخصيات المصرية الكبيرة .

وفي المقابل استعملت هذه الكلمة التي وردت مئات المرات في القرآن الكريم - في كل المواطن تقريباً - في صدد الله عز وجل ، لأنه هو المالك الاصيل - في الواقع - والمدبر والمربي لموجودات الكون كله . المهم أن الكثير من الاقوام كانوا يعتقدون بآلهة صغيرة ويطلقون عليها (رب) أو (رب النوع) ويطلقون على الله (رب الارباب) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الاقوام اتجاء الملائكة أو بعض الانبياء ، وآية البحث تنفي بصراحة هذه العقائد الباطلة وتعرف الله وحده رباً وليس رب الارباب ، لأنها تعتبر انتخاب اي رب سواه كفراً والاسلام في نقطة مقابلة له .



آية البحث الثانية عشرة والاخيرة تشير الى الكلام الاخير في هذا البحث وهو أن التوحيد في العبادة لا يختص بالبشر بل : ﴿ وَهُوَ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

١ - لاحظ ان (يامر) منصوب لانه معطوف على (ان يؤتية الله) .

والارض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظَلالُهمْ بالغُدُو والاصال ﴿٤﴾ .

(مَنْ) وان كانت اشارة الى العقلاء عادة ولذا يعتقد جمع من المفسرين بان آية البحث تقصد بني الانسان والملائكة وامثالهم ، إلا أن في الآية قرآئن تدل على ان هذه الكلمة تشير الى الموجودات كلها وتعمّ العاقل والحيوان والنبات والجماد، والمراد من السجدة ما يعم السجدة التكوينية (غاية الخضوع والتسليم في الموجودات تجاه قانون الخلق) والسجدة التشريعية (السجود والعبادة الاعتيادية) لأن :

اولاً: التعبير بـ (طوعاً وكرهاً) دليل على عمومية الآية .

ثانياً: اشتراك (ظلال) في هذه السجدة والعبادة العامة دليل آخر على هذا المعنى .

ثالثاً: ورد هذا المعنى بجلاء في آيات قرآنية اخرى: ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ﴾ ، ^(١) وهكذا في: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ^(٢) .

وعلى هذا فإن موجودات الكون كلها وبدون استثناء لها سجود تكويني وتسليم للاوامر الالهية ، ومن بينها المؤمنون حيث لهم - مضافاً الى السجود التكويني الذي لا يتصف بالاختيار - سجود اختياري تشريعي ايضاً .

وتعميم هذا الحكم الى (ظلال) تعبير كبير المعنى ، لأن الظلال تتصف بالعدم في الواقع (لأن الظل هو المكان الذي لا يسقط الضوء عليه) ولكن بما أن الظلال تابعة للاجسام في وجود النور فإن لها قسماً ضعيفاً من الوجود، ويقول القرآن: إن هذه الاعدام الشبيهة بالوجود تسجد لله ايضاً فكيف بالموجودات الحقيقية ؟ وهذا يشابه العبارة التي نقولها وهي ان عداوته لفلان بلغت الى حد أنه يرمي ظله بالسهم .

١ - سورة النحل: آية ٤٩ .

٢ - سورة الرحمن: آية ٦ .

ثم ان الظلال تسقط عادة على الارض والتعبير بالسجود أليق بها .
وما تقوله الآية: ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ فانه من الممكن أن يكون وصفاً خاصاً
للظلال ، واختيار هذين الزمنين هو لأن كل شيء في هذين الوقتين يكون ذا ظلّ ،
ظلّ طويل وممتد على العكس من منتصف النهار اذ يكون له ظل أو له ظل
قصير .

ويحتمل ايضاً أن يكون هذان الوصفان لكل الموجودات في السماء
والارض والمراد هو الاشارة الى استمرار هذا السجود ، كما نقول في عباراتنا
اليومية يجب أن نلقي فلاناً صباحاً ومساءً أي دائماً وباستمرار^(١) .



اخيراً وبمراجعة عامة نصل الى أن مسألة (التوحيد في العبادة) لها من
الاهمية ما جعلها في صدارة دعوة الانبياء والرسل (عليهم السلام) ومن أهم الفقرات في
تعليماتهم وقد اقام جميع الانبياء اولي العزم دعوتهم عليها، وكان رسول
الله (ﷺ) يدعو طيلة عمره الشريف اليه بعبارات مختلفة، وصراط الهداية
المستقيم يمر عبر هذا الطريق، ولتحقيق هذا المنهج الاسلامي المهم ينبغي -
عند الحاجة - ترك الاوطان وهجر اجواء الشرك وعبادة الاصنام .

ومن الخصائص المهمة لذلك اليوم الذي تهيمن فيه حكومة العدل الالهي
على العالم بأسره هو قضية التوحيد في العبادة هذه والتي تسود العالم كله ،
وليس البشر فقط بل وكل موجودات في الارض والسماء تسجد لله وفي كل
الاحوال ، واذا لم تسجد باللسان وباختيارها فانها تسجد من حيث تكوينها
وبلسان حالها وتسبح له .

١ - على الصورة الاولى يكون الجار والمجرور متعلقاً بالفعل أو الوصف المقدر (وفيه امتياز أنه يعود
للاقرب) وفي الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلقاً بالفعل يسجد وفيه امتياز انه مذكور .

ايضاحات

١- شجرة توحيد العبادة المثمرة

لابد من ملاحظة هذه النقطة قبل كل شيء وهي: أن الاحترام والتواضع والخضوع والثناء صفات لها مراتب ودرجات آخرها وذروتها العبادة والعبودية . ومن البديهي أن يستسلم الانسان لاوامر من يحترمه الى هذه الدرجة ويخضع له بكل وجوده خضوعاً تاماً ويهوي الى الارض ويسجد له .

هل من الممكن أن ينفصل الخضوع الذي يصل حدّ العبودية والثناء والاحترام اللامحدود عن الاطاعة والتسليم للأمر؟

من هنا نقول: إن الانسان اذا استوعب روح العبادة الخالصة فإنه يكون قد خطا خطوة كبيرة في طريق الإطاعة لأمر الله والعمل بالصالحات والابتعاد عن السيئات ، ومثل هذه العبادة - خاصة اذا كانت دائمة ومستمرة - تكون رمزاً لتربية الانسان وتكامله .

مثل هذه العبادة الخالصة الممتزجة مع عشق المحبوب، الذي يشكل عاملاً مهماً للحركة اليه ، وكما أن التحرك نحو ذلك الكمال المطلق عامل على ترك القبائح والذنبيات والتلوث بالمعاصي .

ولهذا حازت مسألة العبادة الخالصة على هذه الدرجة من الاهمية الى الحد الذي يقول القرآن فيها: ﴿أَنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١) .

إنَّ العابد بدافع من خضوعه اللامحدود بين يدي الله يسعى الى تَيْلٍ رضاه والتقرب اليه ولأنه يعلم أن تحصيل رضاه يتم عن طريق اطاعة امره فإنه يسعى

في هذا الطريق ويتقبل اوامره بطيب نفس تام .

العابد الحقيقي يسعى للتشبه والتمثل بمعبوده ومعشوقه الحقيقي ويعكس في هذا الطريق قبساً من صفات جماله وجلاله منه في نفسه ، لا ينكر مالهذه الامور من تاثيرات على تكامل الانسان وتربيته .

٢- روح العبادة والاحتراز من الافراط والتفريط

هناك افراط وتفريط عجيبان في معنى العبادة كما هو الحال في الكثير من القضايا الاخرى حتى أن بعضاً افراط الى حد جَوَز فيه السجود لغير الله (إن لم يكن مقروناً بالاعتقاد بمالكية وريوبية المسجود له) ، وذكر سجود الملائكة لآدم وسجود اخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك .

وفي المقابل اعتبر بعض آخر أن كل توجه وتوسل بالنبي (ﷺ) والائمة (عليهم السلام) وطلب الشفاعة والخضوع امامهم شركاً، واعتقدوا بأن فاعله مشرك .

ولكن الحقيقة هي أنه لا يمكن الانسجام مع أي من هاتين العقيدتين .

وللايضاح نقول : إن حقيقة العبادة كما نقلنا في بداية البحث في شرح المفردات عن اللغويين هي الخضوع المطلق وغاية التواضع والتذلل امام المعبود ، وهذا العمل مختص بالله من وجهة نظر اسلامية ويكون شركاً في العبادة ان كان موجّهاً الى معبود آخر .

وبعبارة أخرى إن للخضوع والتواضع درجات ، درجة منها تحدث امام الاصدقاء ويقابلها التكبر عليهم ، ودرجة اخرى تكون امام افراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١) .

والدرجة الاكمل تكون امام الانبياء والائمة المعصومين (عليهم السلام) حتى أن المسلمين لم يحق لهم رفع اصواتهم فوق صوت النبي (ﷺ) بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ^(١).

ولكن آخر مرحلة من الخضوع والتواضع والتذلل التي نطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو (السجود).

وعليه فإن الخضوع المطلق وغاية التذلل (وإن لم يقترن الاعتقاد بالربوبية والمملوكية) يكون عبادة ومختصاً بالله ولهذا لا يجوز السجود لغيره .

ولصاحب تفسير (المنار) في تفسير سورة الحمد كلام في معنى العبادة ملخصه: أنَّ العبارة ضربٌ من الخضوع بالغ حدِّ النهاية ، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيَّتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق ادراكه ، فمن ينتهي الى اقصى الذل لملك من الملوك لا يقال أنه عبده وإن قبل موطىء اقدامه ، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو رجاء كرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة الى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملاء الاعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر اهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً واکرمهم جوهرأ ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الكفر والالحاد فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية ^(٢).

وللمفسر الكبير العلامة الطباطبائي (رحمته الله) كلام قريب منه في تفسير سورة الحمد في تفسير (الميزان) حيث يقول :

١ - سورة الحجرات : آية ٢ .
٢ - تفسير المنار : ١ / ٥٦ و ٥٧ .

« الرب مقصور في المالكية والعبد مقصور في العبودية » .

قد عرفت من سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية اظهار مولوية المولى ، أو عبودية العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد والمشي خلفه حينما يمشي وغير ذلك ، وكلما زادت الصلاحية ازدادت العبادة تعيناً للعبودية وأوضح الافعال في الدلالة على عزّ المولوية وذل العبودية السجدة ... لكن الذوق الديني المتخذ من الاستيناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى ، والمنع عن استعماله في غير هذا المورد ^(١) .

وبناءً على ذلك يستفاد من التدبر في موارد استعمال كلمة العبادة في القرآن والسنة والاستعمالات اليومية وشهادة اللغويين أن المفهوم اللغوي لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الاعتقاد بربوبية المعبود ومالكيته ، ولذا اذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب بركاتها ، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس والقمر والنار ، وهكذا اذا سجد انسان لتماثيل الاسلاف أو الملوك والساطين وأعلى منه اذا سجد للأئمة (عليهم السلام) لمقامهم الرفيع فإنّ تلك العبادة غير جائزة .

ولهذا ينهي القرآن الكريم بصراحة في آية السجدة بقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ ^(٢) .

ولهذا ايضاً تكرر النهي في الروايات الاسلامية عن السجود لغير الله ومنها : الروايات السبع التي وردت في (وسائل الشيعة) في ابواب السجود (الباب ٢٧) حيث نقرأ في احدي الروايات أن النبي (ﷺ) خاطب مشركي العرب : « اخبروني عنكم اذا عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له أو صليتم

١ - تفسير الميزان : ١ / ٢٢ و ١٢٤ .

٢ - سورة فصلت : آية ٣٧ .

ووضعت الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها فما الذي بَقِيَتْ لرب العالمين؟ أما علمتم ان من حق من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوي عبيده؟»^(١).

وفي روايات عديدة تتضمن الاجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وابنائهم بين يدي يوسف، أو كيفية جواز سجود الملائكة لآدم.

١ - عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام): «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف إنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحيةً ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحيةً لآدم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ألا ترى إنه يقول في شكره في ذلك الوقت:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ الآية.

٢ - عن الامام العسكري (عليه السلام) قال: «لم يكن له سجودهم - يعني الملائكة لآدم إنما كان آدم قبله لهم يسجدون نحوه لله عز وجل، وكان بذلك معظماً مبجلأً له، ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له كخضوعه لله ويعظمه بالسجود له كتعظيمه لله، ولو أمرت احداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من متبعينا أن يسجدوا لمن توسط في علوم علي (عليه السلام) وحي رسول الله (ﷺ) ومحض وداد خير خلق الله علي (عليه السلام) بعد محمد رسول الله (ﷺ) ...» الحديث.

والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهي نفي السجود لغير الله، وقد نقل العلامة المجلسي في (بحار الانوار) روايات عديدة في هذا الباب^(٢).

وقد ورد في القصة المعروفة حول هجرة المسلمين الى الحبشة، إنهم حينما دخلوا على النجاشي امرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للملك،

١ - وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٣٨٦ الحديث ٣.

٢ - بحار الانوار: ١١ / ١٣٨ و ١٣٩ الاحاديث ٢، ٣، ٤، ٦.

فقال لهم جعفر بن ابي طالب : لا نسجدُ إلا لله ^(١) .

إنَّ هذه الروايات تؤكد عدم جواز السجود لغير الله وتفسّر حقيقة العبادة .

* * *

٣- توحيد الوهابيين المشوب بالشرك

(الوهابيون) جماعة لا تزال تحكم الحجاز وهم اتباع (محمد بن عبد الوهاب) الذي استمد افكاره من (ابن تيمية ، احمد بن عبد الحميد الدمشقي) المتوفى عام ٧٢٨ هـ .

استطاع محمد بن عبد الوهاب خلال السنوات ما بين عام (١١٦٠ الى ١٢٠٦ هـ التي مات فيها وبتعاون مع الحكام المحليين واثارة نيران العصبية القاسية بين القبائل التي تجوب صحارى الجزيرة أن يدمر معارضيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أريق دماء كثير من المسلمين في الجزيرة وغيرها .

وبعد موته هاجم اتباعه العراق عن طريق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء واستغلوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من اهاليها الى النجف فاقتحموا سور المدينة ونفذوا الى داخلها وشرعوا بهدم صحن الامام الحسين (عليه السلام) والاماكن المقدسة الاخرى ونهبوا الابواب الثمينة والهدايا النفيسة من المرقد الحسيني واموال الناس !

لقد قام اولئك بهدم قبور عظماء الاسلام في الحجاز عام ١٣٤٤ هـ بحيث استوت مع الارض باستثناء قبر النبي (ﷺ) خوفاً من سخط المسلمين ! ويمتاز الوهابيون بالتعصب والقسوة والفظاظة وعدم الرحمة والتحجر

١ - بحار الانوار : ١٨ / ٤٢٠ ، الحديث ٨ (نقلًا عن خرائج الراوندي) .

والسطحية ويعتقدون بأنهم المدافعون عن التوحيد الخالص في هذا المجال ، وينكرون الشفاعة وزيارة القبور والتوسل بالقادة العظام ويصّبون جلّ اهتماماتهم تقريباً في هذا السبيل ، وقد رفض المسلمون قاطبة (سنة وشيعة) افكار هذه المجموعة بل وكفرّهم بعض العلماء ^(١) .

وبحثنا لا يحتمل الحديث عن هذه المجموعة وعقائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث التوحيد في العبادة .
إنهم يقولون : لا يحق لأحد أن يطلب الشفاعة من النبي (ﷺ) لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

ويقول مؤلف كتاب (الهدية السنّية) وهو من الوهابيين : من جعل الملائكة والانبيا وسائط بينه وبين الله لما لهم من قرب الهي فهو كافر ومشارك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام ^(٢) .

وله منطق مشابه في التوسل وزيارة قبور الانبياء والائمة والصالحين .
إنّ الخطأ الكبير الذي يرتكبه الوهابيون القشريون هو أنهم تصوروا أن موجودات هذا العالم لها تأثير مستقل ولذا اعتقدوا انها تزاحم توحيد الافعال والتوحيد العبادي لله في حين أن هذا المعتقد هو نوع من الشرك !

وللايضاح نقول : الموحد الكامل يرى أن الوجود المستقل القائم بذاته في الكون واحد فقط وهو الله عز وجل ، وسائر عالم الوجود ممكن ومرتبطة بوجوده ، فكله انعكاس لشمس وجوده وليس له استقلالية من نفسه فكما كان محتاجاً في حدوثه فإنه محتاج اليه ومتعلق به في بقائه ايضاً ، فكل ما يملكه

١ - كتب احد العلماء السنة وهو (احسان عبد اللطيف البكري) رسالة بإسم (الوهابية في نظر علماء المسلمين) اوضح فيها آراء علماء الاسلام العظام حول الوهابية ومحمد بن عبد الوهاب ودون الوثائق كلها بدقة في آخر الكتاب وقائمة بعناوين الكتب التي تردهم حيث تبلغ (٥٠) كتاباً لمحقيقي البلدان الاسلامية المختلفة ، وهذا الكتاب دليل واضح على تنفر المسلمين عموماً من هذه المجموعة المنحرفة .
٢ - الهدية السنّية : ٦٦ .

الموجود فإنه منه ، وتأثير الاسباب منه فهو مسبب الاسباب ، وهذا هو معنى جملة (لا مؤثر في الوجود إلا الله) ، لا أن نسقط الاسباب من سببيتها أو نعتقد أنها مستقلة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد .

بناء على ذلك اذا كان النبي (ﷺ) مالكا للشفاعة فإن ذلك بإذنه كما يقول القرآن ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ^(١) .

وعندما يحيي السيد المسيح (عليه السلام) الموتى و يُبرئ الأعمى والمبتلين بالامراض المستعصية فإن ذلك باذن الله ايضاً ﴿ وَأُبْرِئُ الْاَكْمَهَ وَالْاَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وعندما يستطيع (أصف بن برخيا) وهو وزير سليمان ومن وصفه القرآن بـ ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أن يأتي بعرش بلقيس في طرفه عين - كما يصرح به القرآن - من بلاد سبأ الى سليمان في الشام فإنه كما قال : ﴿ مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ ^(٣) . ولكن الوهابيين الغرباء عن القرآن وقعوا في خلط كبير وتصوّروا أن هذه الاعمال التي تصدر عن هؤلاء العظماء تصدر منهم بالاستقلال ، ولذا قاموا من أجل حل المشكل بإنكار بعض الضرورات في الدين مثل مسألة الشفاعة .

وعليه فإن هؤلاء ومن اجل تثبيت قواعد التوحيد كما يزعمون سقطوا في وادي الشرك ووادي انكار ضرورات الدين والقرآن ، وللشهاد المطهري (عليه السلام) كلام جميل في هذا المجال ننقل خلاصته حيث قال تحت عنوان (حدود التوحيد والشرك) :

١ - الاعتقاد بوجود غير الله سبحانه ليس شركاً ذاتياً كما يعتقد انصار الوحدة النوعية للوجود ، لأن هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنها نظيرة له .

١ - سورة يونس : الآية ٣ .

٢ - سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

٣ - سورة النمل : الآية ٤٠ .

٢ - لا يعتبر الاعتقاد بتأثير المخلوقات شركاً في الخالقية (كما يعتقد الاشاعرة والجبريون) لأن المخلوقات كما أنها ليست مستقلة ذاتياً فإنها غير مستقلة في تأثيراتها ايضاً، بل أنها تابعة له.

٣ - لو اعتقدنا بالتأثير المستقل للمخلوقات وقلنا أن عالم الخلق امام الله كالماكنة والساعة التي يصنعها الصانع فهي بحاجة اليه في حدوثها ولا تحتاجه بعد صناعتها لأنها تعمل حتى لو ارتحل صانعها من الدنيا، فهذا هو الاعتقاد بالتفويض وهو لون من الشرك (اعتقاد المعتزلة).

٤ - الاعتقاد بقدرة الموجودات التي تفوق الطبيعة وتأثيراتها في العالم باذن الله وأمره ليس شركاً كما يظن الوهابيون، بل إن اعتقادهم يمثل أسوء الوان الشرك، لأننا لو اعتبرنا ذلك شركاً لكان الاعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً ايضاً.

وهكذا فإن الاعتقاد بقدرة الانسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعد شركاً، لأن الانسان لا يكون جماداً بعد موته.

ثم إن اعتقاد الوهابيين يتسم بالإنسانية حيث ينزلون الانسان منزلة الحيوان الطبيعي وهو الذي اعتبره الله خليفة له واعلى منزلة من الملائكة الذين سجدوا له.

وهنا نصل الى حقيقة الحديث الشهير الوارد عن رسول الله (ﷺ) ويقول فيه مانصه: «ان الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، في ليلة ظلماء»^(١).

والطريف أن الرد على الوهابيين موجود في الآية التي يستدلون بها على انكار الشفاعة و (التوسل)، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢). ويعني المثل الذي يكون في عرضه وعلى هيئة الموجود المستقل كذاته المقدسة، ولكن اذا كان تأثيره بإذنه وأمره لا في عرضه فإن ذلك ليس شركاً

١ - مقدمة في الرؤية الكونية للشهيد المطهري: ١١٣ (مع الاختصار).

٢ - سورة الجن: الآية ١٨.

فحسب بل فيه تأكيد جديد على اصل التوحيد الذي ينتهي كل شيء اليه .
وهذا يشابه ما طلبه اخوة يوسف من ابيهم يعقوب وكان نبياً عظيماً وقد
تقبل ذلك منهم حيث قالوا: ﴿يا ابانا استغفر لنا﴾ ^(١) فاستجاب لهم وقال: ﴿سوف
استغفر لكم ربي﴾ ^(٢) .

هذه هي حقيقة التوحيد في العبادة ، وتوحيد الافعال التي ستم الاشارة
اليها وليس كما يظنه الوهابيون المتحجرون .



١ - سورة يوسف : الآية ٩٧ .

٢ - سورة يوسف : الآية ٩٨ .

٤- توحيد الأفعال

أ- توحيد الخالقية

تمهيد :

إنَّ مفهوم (توحيد الافعال) في تفسيره المبسّط والواضح يعني أن الكون بأسره هو فعل الله ، وكل الأفعال ، والحركات ، والتأثيرات ، والتأثرات تنتهي الى ذاته المقدسة ، وفي الحقيقة (لا مؤثر في الوجود إلا الله) ، فالسيف حينما يقطع والنار حينما تحرق والماء حينما يروي النباتات كلها بارادته وأمره ، وباختصار فإن أثر كل موجود يكون من جهة الله سبحانه .

وبعبارة أخرى : إن الموجودات كما أنها تابعة في أصل وجودها الى ذاته فإنها كذلك في تأثيرها وفعلها .

ولكن هذا المعنى لا ينفي عالم الاسباب وحاكمية قانون العلّية ، وطبقاً للحديث المعروف عن الامام الصادق (عليه السلام) «أبى الله أن يُجري الاشياء إلا بأسباب»^(١) .

كما أن الاعتقاد بتوحيد الافعال لا يستوجب الاعتقاد باصل الجبر وسلب الحرية من ارادة الانسان ، كما ستمم الاشارة الى ذلك لاحقاً باذن الله .

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الافعال ونذهب اولاً الى توحيد الخالقية فنستمع خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿ذُلُّكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ سورة الانعام - ١٠٢ .

٢ - ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ سورة الرعد - ١٦ .

٣ - ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ سورة فاطر - ٣.

٤ - ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ سورة العنكبوت - ٦١.

٥ - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سورة الصافات - ٩٦.

٦ - ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة الاعراف - ٥٤.

شرح المفردات :

(خلق) في الاصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التقدير المباشر ويستعمل عادة في الابداع والابحار لشيء من دون أن يكون له سابق ومثيل ، وعلى ما ورد في (مقاييس اللغة) فان (خلق) لها معنيان اصليان : الاول هو التقدير ، والثاني هو استواء الشيء ، ولذا يطلق على الحجر المستوي (خلقاء) وعلى الصفات الباطنة (اخلاق) لأنه يحكي عن نوع من الخلق ، وعلى كل حال بما أن الخلق يعني التقدير والتنظيم والتسوية فإن هذه الكلمة استعملت في خلق الله الابداعي .

جمع الآيات وتفسيرها :

هو الخالق لكل شيء

تقول آية البحث الاولى بعد تبيان صفات الله الجلالية والجمالية :

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، لا الاصنام التافهة ولا المعبودات من الملائكة والجن

التي هي من المخلوقات والمربوبات ، والله عز وجل هو رب الجميع ^(١) .

١ - جملة (ذلكم ربكم) فيها ذلكم وهو اسم اشارة الى البعيد وفي مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة

وتضيف: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

لأن اللائق للعبادة هو الذي يكون (رباً) أي مالكاً ومربياً ومدبراً لكل شيء . وللمزيد من التأكيد واقامة دليل آخر على انحصار المعبود فيه تضيف الآية ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم تستنتج لتقول: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ .

ولقطع كل أمل بغير الله وصدّ البشر عن التعلق بعالم الاسباب واجتثاث جذور الشرك تقول الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ .

كلمة (شيء) كما يقول اللغويون: تعني كل امر يمكن أن يناله علم الانسان^(١) . إلا أنها في آية البحث تعني كل الموجودات ما سوى الله سبحانه . وعلى أي حال فإن لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كل الموجودات المادية والمجردة والذهنية والخارجية والجوهر والعرض ، وباختصار: أنها تشمل كل شيء ، وهذه الآية دليل واضح على عمومية الخلق الالهي بالنسبة لكل شيء .

وقد وقع هنا نزاع معروف بسبب شمول (شيء) لأعمال الانسان بين جماعة تقول بالجبر - كالفخر الرازي - حيث تقول: إن اعمالنا داخله في كلمة (شيء) ايضاً ، فالله اذن هو خالقها ، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم ، ولكن المؤيدين لحرية الارادة لهم اجابة واضحة ومستدلة وستأتي في الايضاحات .

وقد استدلت جماعة بهذه الآية على نفي الصفات الزائدة على الذات في مواجهة الاشاعرة القائلين بأن الله ذو صفات منفصلة عن ذاته ، فلو كان الامر كذلك فأن كلمة (شيء) تشملها ويجب - حينئذ - أن تكون مخلوقة لله ، ولا معنى لأن يخلق الله صفاته كالقدرة والعلم و... ولا ينسجم هذا مع وجوب

→ غير الاعتيادية لمقامه والخارج عن حدود الافكار .

١ - هذه الكلمة مصدر (شاء) وتكون تارة بمعنى اسم الفاعل وتارة بمعنى اسم المفعول (فتأمل جيداً) .

الوجود اساساً.

فاجاب بعض الاشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن نقول : إن (خالق كل شيء) لا يشمل صفات الله ! ولكن الآية تأبى الاستثناء ولم يرد عليها أي تخصيص كما سنبين ذلك باذن الله .



الآية الثانية تبين محتوى الآية السابقة اضافة الى تاكيدها على وحدانية الله وقهاريته حيث جاء فيها : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

(قَهَّار) من (قهر) ويعني في الاصل الغلبة المقرونة بتحقيق الطرف المقابل ولذا ، تستعمل في هذين المعنيين كليهما ، ونظراً لاستعمالها هنا بصيغة المبالغة فإنها تعني غلبة الله والنصر المطلق - دون قيد أو شرط - على كل شيء وكل فعل حتى معبوداتهم واصنامهم غير مستثناة ، وعليه كيف تكون شريكا لله ؟ !



الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة اخرى وهي صورة الاستفهام الاستنكاري حيث تقول : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، كلا ، فهو الذي بدأ خلقكم ، وبقاؤكم مستند الى رزقه المتواصل .

فبأمره تشرق الشمس عليكم من السماء ، وينزل المطر لأحياء الارض ويسخر الرياح ، وهو الذي يتفضل عليكم بالنباتات والثمار والغذاء والمعادن والثروات الثمينة .

وعليه عندما لا يوجد خالق ورازق سواء فبداية الجميع ونهايتهم اذن بيده: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُؤَفَّكُونَ﴾ .

خالقية الله للكون

لا ينكر حتى المشركين أن الله هو الخالق للكون والآية الرابعة تطرح مسألة التوحيد في اطار آخر وهو أن المشركين انفسهم يُقَرِّون أن الاصنام ليست خالقة للسماء والارض والشمس والقمر ابدأ وتقول: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .

فقد كان المشركون يعتقدون أن الاصنام شريكة لله في العبادة أولها التأثير على مصير الانسان في الخالقية ، فلا يصدق عاقل بأن كتلة من الحجر والخشب مصنوعة بيد الانسان على هيئة الصنم تكون خالقاً للسماء والارض وحتى أنهم لم يعتقدوا أن للانبياء والاولياء هذا المقام أيضا .

يحتمل أن تكون هذه الآية اشارة الى نفوذ هذه العقيدة في اعماق الفطرة الانسانية ، وعلى أي حال فإن الفصل بين (توحيد الخالقية) و (توحيد العبادة) تناقض صريح ، لأن الخالق والرازق هو اللائق بالعبودية فهو الذي سخر الشمس والقمر لينعم بهما الانسان وجعلهما في خدمته .

بناءً على ذلك لا تنفصل (الخالقية) عن (الربوبية) ولا (الربوبية) عن (الالهية) ، وبعبارة اوضح : هو الخالق وهو المدبّر للعالم وهو اهل لعبودية العباد .

وقد حاول بعض المفسرين مثل كاتب (في ظلال القرآن) أن يعتبر التفات مشركي العرب الى (توحيد الخالقية) ناشئ من تعليمات الانبياء كالنبي

ابراهيم (عليه السلام) ^(١).

إلا أنه لا ضرورة لهذا الاصرار، حيث يقر كل انسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان، كما اشير الى هذا المضمون في تفسير روح البيان ^(٢).

إنَّ الاستناد الى مسألة الخلق ثم التسخير اشارة الى مسألتين (الخلق) و(التدبير) حيث يكون الجميع بأمره والمراد من (التسخير) في هذه الآية -بقرينة آيات التسخير الاخرى الواردة في القرآن الكريم- هو استخدامها في سبيل المصالح البشرية.

وعبارة (فأني يؤفكون) مع ملاحظة اشتقاقه من (افك) بمعنى (ارجاع الشيء عن مسيره الاصلي) يمكن ان يكون اشارة الى أن المسار الصحيح والمنطقي هو أنهم بعد الاقرار بخالقية الله وتدبيره في عالم الوجود «ان لا يعبدوا سواه»، إلا أنهم انحرفوا عن الطريق فتعرضوا الى العواصف العاتية للشيطان والنفس التي رمت بهم -كالقشة- من الطريق المستقيم الى التيه - (لاحظ انَّ المؤتفكات تعني الرياح المضادة).

* * *

في الآية الخامسة استناد خاص الى مخلوقية الاصنام حيث تقول: ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وذلك لما ورد في الآية السابقة لها عن قول ابراهيم (عليه السلام) - رمز التوحيد - لجماعة المشركين ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟ ويقول في هذه الآية: ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تستحق أي منها العبادة، بل أن اصنامكم موجودات أخط منكم لأنها مصنوعة بأيديكم.

١ - في ظلال القرآن: ٦ / ٤٢٨.

٢ - روح البيان: ٦ / ٤٨٨.

و(ما) في جملة (وما تعملون) في هذه الحالة تكون موصولة .

وقد احتمل بعض أو اصروا على أن اعتبار (ما) هنا مصدرية فيكون معنى

الآية :إن الله خلقكم وخلق اعمالكم ، في حين لا يتناسب هذا المعنى لأنه :

اولاً: إن الله يوبخ الكفار في الآية على عبادتهم للاصنام فلو كان الله خالقاً

لأعمالهم فلماذا التوبيخ ؟!

ثانياً: إن جملة (ما تعملون) دليل على أنهم خلقوا اعمالهم ، وعليه لا

تنسجم مع الخلق الالهي .

ثالثاً: في الآية السابقة ورد حديث عن الاصنام التي كانوا يصنعونها

بايديهم فالمناسب أن تكون (ما) هي المراد هنا ، وإلا فأن الآيات تفقد ترابطها ،

ولذا اختار كثير من المفسرين التفسير الاول امثال الزمخشري ، في الكشف

والألوسي في روح المعاني ، والعلامة الطباطبائي في الميزان وغيرهم .

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن تكون الاصنام مصنوعة لله

والبشر في الوقت ذاته ؟!

يقول الزمخشري : إن موادها مخلوقة لله وصورتها مخلوقة لصانعي

الاصنام^(١) .

إلا أن الصورة والشكل مخلوقة لله من احدى الجهات ، لأن الله سبحانه

اعطى الانسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة وان نهاه من سوء الاستفادة

منها .

واخيراً نواجه في الآية السادسة والاخيرة عبارة جديدة في باب توحيد

الخالقية حيث تقول :﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ و﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

ولا شك في أن الآية دليل على انحصار (الخلق) و (الامر) في الله عزّ

وجل^(١). وعليه فإن الآية تبين (توحيد الخالقية) بوضوح.

ولكن وقع بين المفسرين كلام حول المراد من (الامر)، فبعض فسرهُ بمعنى تدبير العالم والانظمة والقوانين الجارية وذلك بقرينة الآيات الكثيرة التي ورد فيها هذا المعنى نظير ﴿وَالْمَدَبَرَاتِ أَمْرًا﴾^(٢) و ﴿اللّٰهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾^(٣) و ﴿وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾^(٤) وآيات عديدة أخرى. أمّا بعضهم الآخر فقد اعتبرها بمعنى الامر التشريعي والدستور الالهي المقابل للنهي، فيكون معنى الآية: أن الخلق خاص بالله والامر والدستور التشريعي يصدر عنه ايضاً، مثل ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾^(٥).

وفي تفسير ثالث قُسر (الامر) بمعنى الارادة مثل: ﴿إِنْ أَلَّهَ بِالْعَمْرِ﴾^(٦) وفي تفسير رابع فسر عالم (الخلق) بعالم المادة، وعالم (الامر) بعالم المجردات وذلك بقرينة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٧).

والواضح أن التفسير الاول من بين هذه التفاسير اكثر انسجاماً مع الآيات القرآنية الاخرى ومع آية البحث ايضاً، لأن القرآن الكريم يريد أن يذكر المشركين بهذه الحقيقة، وهي ان الخلق وتدبير المخلوقات مختص بالله والشاهد على ذلك قوله ﴿رب العالمين﴾ في ذيل الآية، وعليه فان الاصنام لا دور لها لا في الخلق ولا في التدبير والربوبية، فلماذا تعبد اذن؟!



١ - تقديم (له) على الخلق والامر دليل على الحصر.

٢ - سورة النازعات: الآية ٥.

٣ - سورة الجاثية: الآية ١٢.

٤ - سورة النحل: الآية ١٢.

٥ - سورة النور: الآية ٦٣.

٦ - سورة الطلاق: الآية ٣٠.

٧ - سورة الاسراء: آية ٨٥.

ايضاحات

١ - الخطوة الاولى نحو الشرك في الخالقية

لعل المجوس ليسوا اول من جعل لله شريكاً في الخالقية ، ولكنهم اكثر شهرة من غيرهم على الاقل .

إنهم قَسَمُوا الموجودات الى مجموعتين : حسنة وسيئة (خير وشر) وافترضوا لكل مجموعة آلهة (يزدان وأهريمن) أو النور والظلمة ، ودليلهم هو أن مخلوق الآلهة تكون له سنخية معه ، وعليه لا يمكن أن يكون آله الخير وآله الشر واحداً ، فاله الخير خير ، وآله الشر شر !

لو كانت موجودات العالم مقسمة على هذا النحو لأمكن أن يكون الاستدلال صحيحاً ، لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد في عالم الوجود إلا الخير ، وما يطلق عليه (الشر) امر عديم أو أنه ذو جهة نسبية ، فمثلاً نقول : الفقر شر ، في حين أن الشر ليس إلا فقدان لمستلزمات الحياة ، والفقدان امر عديم والعدم ليس شيئاً ليكون له خالق .

أو نقول : إن لسعة النحل ومخالب الحيوان المفترس شر وذلك عندما نجعل انفسنا محوراً ثم نحكم بهذا النحو ، في حين لو نظرنا الى النحل نجد أن الابرة فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين ، والانياب والمخالب في الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتغذي ولها جانب حيوي بالنسبة اليها فهي اذن خير ، وعليه فأن الكثير من الموجودات تتخذ صورة (شريرة) نتيجة لأفكارنا .

وقد يكون جهلنا ~~في السبب~~ في اعتبار الاشياء شراً وذلك لعدم علمنا بفوائدها ، فمثلاً من الممكن ان نعتبر وجود الجراثيم شراً لأنها تسبب الامراض ولكن اذا لاحظنا نظرية بعض العلماء ~~في أن الجراثيم~~ المسببة للامراض تدعو

خلايا الانسان الى معركة دائمة وفيها تكون اكثر نشاطاً ونمواً رشداً، ولولا الجراثيم لكان معدل طول الانسان لا يتجاوز الثمانين سنتماً، ولا يصبح ذا جسم ضعيف وعاجز، سنذعن عندما ندرك ذلك أن اطلاق الشر عليها ناشيء من جهلنا، وبخاصة أن الذي خلق الجراثيم قد اوجد طرق معالجتها في حالة استفحالها ايضاً.

ونعلم كذلك أن بعض الادوية في عصرنا الراهن تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُربى كثير من الافاعي والحيوانات السامة الاخرى، وعلى هذا فإن أبرها وسمومها ليست شراً مطلقاً، وستأتي تفاصيل اكثر حول هذا الموضوع في بحث العدل باذن الله.



٢- خطوة اخرى على طريق الشرك

في هذا الموضوع انحرفت مجموعتان اسلاميتان هما (الاشاعرة) و (المعتزلة) أي المفوضة، المجموعة الاولى تتبع « ابا الحسن البصري » المتوفى عام ٣٢٤ هـ الله وتنكر التأثير والعلة والمعلول في عالم الخلق انكاراً تاماً وتقول: إذا كانت النار محرقة فانه مجرد تصور لا ! فالمحرق الاصلي هو الله، ولكن ارادته حكمت بشكل اذا مسّت النار - مثلاً - يد الانسان فان الله يوجد الاحتراق مباشرة في يده ! وبهذا النحو انكروا عالم العلة والمعلول تماماً واعتبروا الله تعالى علة لكل شيء مباشرة دون واسطة.

إنهم انكروا هذه القضية المحسوسة بل والاكثر من المحسوسة ^(١) بسبب ايمانهم بأن الاعتقاد بوجود عالم الاسباب يخل في توحيد الخالقية.

١ - ليس لقانون العلية بعد حسي فقط بل يمكن التوصل اليه عن طريق الوجدان والعلم الحضوري، لأن كل شخص يرى بوضوح ان روحه توجد الارادة والتفكير.

بسبب هذا الخطأ الكبير تعرضت مجموعة الاشاعرة الى انحراف كبير آخر وهو انها تعتبر افعال الانسان واعماله مخلوقة لله ايضاً، وهذا أسوء أنواع الجبر!

وبعبارة أخرى أنه شيء أعلى من الجبر لأن الاشاعرة يقولون : لسنا نحن الفاعلين للاعمال الصالحة والسيئة بل أن الخالق لها كلها هو الله سبحانه ، فهي في الحقيقة اعماله المباشرة لا اعمالنا الجبرية (فتأمل جيداً) . وفي النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تاثير للاسباب والعلل فحسب بل يعتبرونها مستقلة في تاثيراتها ، فمثلاً أن الله خلق بعض الانبياء والاولياء وأوكل اليهم امر الخلق ، كما يعتقدون أن الانسان مستقل في اعماله تماماً ، وبهذا يعتبرون الانسان خالقاً صغيراً والله عز وجل خالقاً كبيراً!

ولا شك في ان المجموعتين على خطأ ، وقد وقعا في لون من الشرك ، شرك جلي وصريح ، وشرك خفي ، فالقائلون بـ (التفويض) ابتلوا بشرك جلي لأنهم اعتقدوا بان الانسان مستقل في افعاله أو اعتقدوا بأن الله قد اوكل الى اوليائه خلق السماء والارض وتنحى جانباً! وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التي تعتبر الله خالقاً لكل شيء ورباً ومدبراً لجميع الامور ، ومن العجيب ان الانسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتبع مثل هذه الابحاث المنحرفة ؟!

اما الاشاعرة فقد ابتلوا بلون آخر من الانحراف والشرك ، لأنهم انكروا اولاً اصل العلية في عالم الخلق خلافاً للوجدان والحس ، وثانياً اذا كان الاعتراف باصل العلية شركاً فإن الاعتقاد باصل وجود الانسان شرك ايضاً . إنَّ الانسان مختار وحر في فعله ولكن يجب ان لا ننسى أن قدرته وقوته كلها وحتى حرية ارادته هي من الله تعالى ، فهو الذي اودع كل هذه القوى في الانسان وهو الذي شاء أن يكون الانسان حراً ، وعلى هذا فإن اعمال الانسان في الوقت الذي تستند فيه الى الانسان فإنها تكون مستندة الى الله ايضاً ، ولا تخرج عن دائرة

خلقه ، كالاعتقاد باصل وجود الانسان فانه وجود تابع ومتعلق بغيره ، ولذلك لا يستوجب الشرك .

وبملاحظة المثال الآتي يمكن أن تتضح الحقيقة : إن كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية ، والكهرباء يجري في شبكة على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة ، السائق في مثل هذا القطار حرّ في عمله ولكن في الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذي يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك ، فبإمكانه أن يقطع التيار الكهربائي بإرادته في أية لحظة شاء وذلك بالضغط على زرّ معين فيتوقف القطار في مكانه .

وبإمكانه - اذن - أن يقول إني حرّكت القطار بإرادتي ، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الاثنان ، إلاّ أنهما فاعلان طوليان الاول في المرحلة الأولى والعليا والثاني في المرحلة الثانية والسفلى التابعة ، فالفعل ينسب اذن الى الاثنين ومع ذلك فإن سائق القطار مسؤول عن عمله وليس بمجبر . وعليه لا يكون الاعتقاد بحرية ارادة الانسان شركاً في الخالقية .

وبعبارة اوضح : مثلما يرتبط اصل وجود الانسان بالله تعالى والايمان بوجود الانسان لا يستلزم الشرك فافعاله كذلك .

والاشاعرة كأنهم يرون اصل وجود الانسان مستقلاً في حين أن هذا نوع من الشرك ، وإلاّ فإن الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فإن الافعال التابعة للانسان لا تكون معارضة للتوحيد ايضاً .

ولا بأس أن يتوضح هذا البحث بضرب مثال :

جاء انكار الاشاعرة للعلية والسببية نتيجة لتوهم وقوع الشرك ، أي اذا اعتبرنا الاحراق من النار فأنهم يقولون : إن هذا شرك ! في حين يبقى هذا السؤال : أليس الاعتقاد بوجود اصل النار امام وجود الله شركاً ؟

سيقولون: لا حتماً، لأن هذا الوجود تابع لذاته المقدسة (كالضوء المنبعث من المصباح المتوقف على ارتباطه بالطاقة الكهربائية ويطفأ عند انقطاعها)، ونذكر هذا الكلام ذاته في تأثير الاسباب ونقول: إنها تكون في النهاية تابعة لله تعالى، وقدرة الانسان واختياره تابع له ايضاً، وعليه فإن التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً في هذا المجال، فالله خالق كل شيء مع ثبوت اصل العلية والحرية في ارادة الانسان.

وستأتي ايضاحات اكثر بهذا الشأن في بحث الجبر والاختيار، باذن الله.



ب- توحيد الربوبية

تمهيد :

إنَّ توحيد الربوبية يعني أن المدير والمدبّر والمربّي والمنظم لعالم الوجود هو ذات الله المقدسة فقط .

وكلمة (رب) التي هي من صفات الله عز وجل قد تكررت في القرآن الكريم اكثر من غيرها حتى بلغت (٩٠٠ مرة) بالفاظ : (رب ، ربك ، ربكم ، ربنا ، ربي وامثالها) ، والعديد من الآيات القرآنية تعرّف الله بـ (رب العالمين) ويدلّل ذلك على أن القرآن يولي اهتماماً خاصاً بتوحيد الربوبية ، حيث كان اغلب المشركين يجعلون مع الله تعالى موجودات اخرى تشاركه في تدبير العالم ، وأغلبهم - كما اسلفنا - آمنوا بتوحيد الخالقية ولكنهم تورطوا بالشرك في الربوبية ، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الانحراف العقائدي الكبير لدى اقوام مختلفة مكرراً وباستمرار ، والشرك في الربوبية طبعاً يكون مصدراً لانحرافات خطيرة اخرى تجدونها في بحوث مقبلة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى آيات قرآنية تمثل نماذج من آيات توحيد الربوبية في القرآن الكريم :

- ١ - ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة الفاتحة - ٢ .
- ٢ - ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ سورة الانعام - ١٦٤ .
- ٣ - ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ﴾ سورة الرعد - ١٦ .
- ٤ - ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ سورة المؤمنون - ١١٦ .
- ٥ - ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ سورة الصافات - ١٢٦ .

٦- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ سورة يونس - ٣١.

شرح المفردات :

(ربّ) له اصل واحد وفروع وشعب كثيرة وموارد استعمال كثيرة .
والاصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التربية وسَوْق الشيء الى الكمال ، وفي (مقاييس اللغة) ذكر عدداً من الاصول له هي : المصلح والقائم على الاصلاح الملازم والمقيم على الشيء ، الادغام بين الشيئين ولكن كما ورد في (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) فإن هذه ترجع جميعها الى اصل واحد وهو عبارة عن سوق الشيء الى الكمال ورفع النقائص في ابعاد مختلفة : مادية ومعنوية ، ذاتية وعرضية ، وفي الاعتقاد والصفات والاخلاق .
وبما أن اداء هذا العمل يقترب بمفاهيم اخرى نظير : الاصلاح ، التدبير ، الحكومة ، المالكية ، الصحبة ، السيادة ، الاجتماع ، التعليم ، والتغذية فإنه يطلق على هذه المعاني ايضاً .

من هنا ذكرت له كتب اللغة معاني متعددة ، فقد جاء في (لسان العرب) مثلاً : إن (رب) اضافة الى اطلاقه على ذات الله المقدسة فإنه يعني المالك والسيد والمدبر والمربي والقيّم والمنعم ايضاً ، وجوهر الكلام هو أن هذه الكلمة تعني في الاصل التربية والسوق الى الكمال ثم اطلقت على المعاني الملازمة له ^(١) .

١ - ينبغي ملاحظة أن (رب) مشتقة من (ربب) في حين أن (التربية) مشتقة من (ربو) ويستفاد من التفاسير التي وردت حول كلمة رب في كتب اللغة أن (ربو) و (ربب) لهما تشابه شديد في المعنى وقد اعتبر الطبرسي (رحمته الله) في مجمع البيان هاتين الكلمتين بمعنى واحد (ج ١ ص ٢٢) .

ولكن كما يستفاد من اقوال اللغويين اذا استعملت هذه الكلمة مطلقة فأنها تستعمل فيما يخص الله تعالى فقط لأنه المالك الحقيقي والمربّي والمصلح لكل شيء، واذا استعملت في سوى الله تعالى فالواجب هو أن تكون مضافة مثل (رَبّ الدار) (رَبّ الابل) و(رَبّ الصبي) ^(١).

إنّ هذه الكلمة عندما تطلق على الله عز وجل يمكن أن تكون فيها اشارة الى ابعاد الربوبية المختلفة أي المالكية والتدبير والاصلاح والتربية والقيمومة والأنعام.

(تدبير) من (دبّر) ويعني المجيء خلف شيء، والتدبير يعني جعل الشيء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة، العمل الذي لا يمكن انجازه إلاّ بالعلم والوعي وبهذا فإن لفظ (مدبّر) يطلق على اشخاص يتدبّرون عواقب الاعمال ويوصلونها الى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً ^(٢).



جمع الآيات وتفسيرها:

إلهنا انت رب العالمين

إنّ الآية الاولى التي نرددها صباحاً ومساءً تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكررت هذه الجملة بعينها في سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل الله تعالى، وتكون تارة مرتبطة بالدينا، واخرى بيوم القيامة ^(٣).

هذه الآية تتضمن في الحقيقة استدلالاً لطيفاً على أن الله عز وجل اهل لكل حمدٍ وثناء، لأنه المربّي الحقيقي للعالمين اجمعين، فهو الخالق وهو

١ - راجع: لسان العرب، مفردات الراغب وقاموس اللغة مادة رب.

٢ - مقاييس اللغة والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ومفردات الراغب.

٣ - سورة الانعام: الآية ١٠.

الرازق وهو المالك وهو المربي وهو المدير والمدبر وهو المرشد والمعلم والهادي ، والملاحظ أن (الحمد) استعمل كجنس يشمل كل انواع الثناء و(العالمين) كذلك ، فإنه جاء على هيئة الجمع المحلّى بالالف واللام فإنه يشمل موجودات العالم كلها من عقلاء وغير عقلاء مادية وغير مادية (واستعمالها بصورة الجمع العاقل فإنه من باب التغليب)^(١) .

وعليه إن ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربية وأنعام في زاوية من العالم فإن ذلك قبس من فيضه سبحانه ، ومن كان مالكاً فإنّ ذلك شعاع من مالكيته المطلقة ، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمدهم ونثني عليهم يجب أن نحمد الله ونشكر ذاته المقدسة .

والفخر الرازي يقدم شرحاً اجمالياً لنعم الله نظراً الى أن الحمد والثناء يكون ازاء النعمة ويقول : «...ثم أن أصحاب التشريح وجدوا قريباً من ٥ الآف نوع من المنافع والمصالح التي ذكرها الله عزوجل بحكمته في تخليق بدن الانسان ثم ان من وقف على هذه الاصناف المذكورة في كتب الشريح عرف ان نسبة هذا القدر المعلوم المذكور الى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط» ثم يذكر آثار الربوبية في بقية انحاء العالم ، ويقول : (إن هذا المجموع» مجموع نعم الله «مشمّل على ألف ألف مسألة أو أكثر اقل ، ثم إنه تعالى نبّه على أن اكثرها مخلوق لمنفعة الانسان أو كما قال تعالى : ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الارض﴾ وحينئذ يظهر أن قوله جل جلاله « الحمد الله » مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو اقل)^(٢) .

المفسر المذكور تحدث طبعاً في اطار العلوم السائدة في عصره ،

١ - لهذا فإنه حينما وصف موسى (عليه السلام) الله تعالى امام فرعون بأنه (رب العالمين) سأل فرعون : ومن رب العالمين ؟ فاجاب موسى : رب السماوات والارض وما بينهما .

٢ - تفسير الفخر الرازي : ج ١ ص ٦ .

وبملاحظة الاكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المختلفة يتضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد، ففي جسم الإنسان وحده (١٠) ملايين مليار خلية! كل خلية منها تعد من خَدَمه ومشمولة بربوبية الخالق سبحانه وتستلزم الشكر والحمد، ولو أراد الإنسان أن يعد هذه الخلايا ليلاً ونهاراً فضلاً عن حمدها والثناء عليها لأحتاج إلى (٣٠٠) ألف سنة!

* * *

الآية الثانية التي تخاطب النبي (ﷺ) تقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

كيف تريدون الاستقلال لأنفسكم عن النظام العام لعالم الخلق؟ فالله رب الموجودات كلها فكيف لا نعتقد بأنه (ربنا)؟ فهل من الممكن أن نجعل شيئاً تحت ربوبية الله شريكاً له ونعتبر المربوب رباً والمخلوق شريكاً للخالق، والعبد في عرض المولى؟ فأى حكم هذا؟!

وبملاحظة سعة مفهوم (شيء) الذي يشمل كل ما سوى الله سبحانه فإن توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة وفي هذا الأمر وضمن آيتين سابقتين النبي (ﷺ) بأن يخاطب المشركين بصراحة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لماذا أعبد غيره؟ ولماذا أسجد لغيره؟ وكيف أبقى حياً بذكر غيره؟ أو أموت فداءً لغيره؟ في حين أنه وحده هو الخالق والمالك والمربي لي. ونرى هنا التلاحم والتآلف بين (توحيد العبادة) و (توحيد الربوبية) حيث أوجدا خليطاً مربباً للروح^(١).

١ - (نسك) مفرد وفسره الكثير من اللغويين بمعنى كل عبادة في حين فسر البعض بمعنى الهدى ولكن لا

في الآية الثالثة خطاب للنبي (ﷺ) ايضاً ولكن الكلام هنا جاء عن رب السماء والارض والذي لا يختلف في الحقيقة عن (رب العالمين) و (رب كل شيء) كثيراً، وأن ذكر بعبارات مختلفة فتقول الآية: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولأنهم ليس بوسعهم الادعاء بأن الأصنام او المعبودات البشرية وامثالها مدبرة ومربية ومنظمة للسماء والارض فان الآية تأمر النبي (ﷺ) مباشرة: أجب على هذا السؤال و﴿قُلْ اللَّهُ﴾.

ينبغي لك أن تهجر كل ما سواه وتعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدسة فقط، واجعل قلبك مرتبطاً به وعقر خدك له، لان جميع الموجودات لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن غيرها ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾^(١).



الآية الرابعة تتحدث عن ربوبية الله للعرش ولكنها تبدأ بحاكمية الله وتقول: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

وهذه جملة تكمل ما ورد في الآية السابقة لها وفيها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢) ويستفاد منها بأنه لولا المعاد والقيامة فإن خلق الانسان يكون عبثاً، لأن الحياة لعدة ايام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من الدلائل المهمة للمعاد، سيكون لنا حديث مفصل عنها في بحث المعاد باذن الله.

→ توجد آية قرينة عليها بل إن ظاهر الآية يدل على أن المراد هو كل العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة في من قبل العام بعد الخاص.

١ - سورة الفرقان: الآية ٣.

٢ - سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

ثم تضيف الآية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ .

(ملك) يعني الحاكم والمالك ، ولا يصدق ذلك بمعناه الحقيقي إلا في الله سبحانه لأنه من شؤون الخالقية ومستلزماتها ولعدم وجود خالق سواه فإنه لا مالك ومَلِك غيره .

ولذا تصفه الآية بعبارة (الحق) ، ثم تحصر المعبود فيه لأن العبادة تليق بالملك الحق وتكمل ذلك بوصفه بـ ﴿رب العرش الكريم﴾ هذه الصفات الأربع جاءت لتثبيت قضية المعاد والقيامة الواردة في الآيات السابقة .

(العرش الكريم) أمّا إشارة الى عالم الوجود كله ، لأن العرش يعني كرسي السلاطين العالي ، وكرسي الحكومة الالهية كناية عن مجموعة عالم الخلق وعلى هذا ينسجم مع جملة ﴿رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ التي جاءت في الآيات السابقة ، واتصاف العرش بـ (الكريم) الذي يعني الشريف والمفيد والجيد بسبب أن كرسي الحكومة الالهية مصداق كامل لهذه الصفات .

ولكن بعضاً اعتقد أن (الكريم) يعني صاحب الكريم ، ولأن هذا المعنى لا يصدق في العرش فإن هذه الصفة تكون لذات الله المقدسة لا العرش ، في حين أن كريم يمكن ان يكون وصفاً لغير الموجودات العاقلة ايضاً مثل : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(١) أي كثير الفائدة والشريف^(٢) .



الآية الخامسة تتحدث عن ربوبية الله للبشر وتنقل عن النبي العظيم «الياس» (عليه السلام) خطابه لقومه ، وفيه وبخهم على عبادة صنمهم المعروف

١ - سورة الحج : الآية ٥٠ .

٢ - هناك ابحاث مفصلة في معنى (العرش) في اللغة والقرآن الكريم ومنها في تفسير الامثل : ٦ / ٢٠٤ ذيل الآية ٥٤ من سورة الاعراف والجزء ٨ ص ٢١٩ ذيل الآية .

بـ (بغل) وقال لهم: ﴿أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ واضاف: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(١).

وهذا في الواقع جواب لجميع الوثنيين الذين كانوا يبررون عبادة الاصنام حينما يُسألون عنها بقولهم: إن هذه سنة آبائنا ولانتركها، وفي المقابل استند النبي إلياس (عليه السلام) الى هذا المعنى وهو: أن اللائق للعبودية هو رب العالم ومدبره والمربي الحقيقي للانسان، والله ربكم ورب آبائكم واجدادكم فاذا كان اولئك على خطأ في معرفة المعبود الحقيقي وربهم فلماذا تسلكون الطريق الخاطيء؟

* * *

هو المدبر للأمور

تحدث الآية السادسة والاخيرة عن تدبير الامر بدلاً من استخدام كلمة (الرب) وهو مفهوم شبيه بالربوبية، وليس عينه تماماً، فتخاطب النبي (ﷺ): ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

مَنْ الذي سخر لكم نور الشمس الضروري لوجودكم وقطرات المطر التي تنزل من السماء وتنشر الحياة في كل مكان والهواء الذي يملأ اجواءكم؟ وهكذا النباتات التي تنمو من الارض، وتوفر البذور الغذائية لكم والفواكه اللذيذة والمعادن الثمينة التي تستخرجونها من باطن الارض من الذي اعطاها لكم؟ هل هذه الارزاق من الاصنام؟!

ثم تتوجه الآية الى جسم الانسان وتشير الى مجموعتين من أهم أعضائه الطريق الاساس في ارتباط الانسان مع العالم الخارجي والمبدأ الاساس للعلوم والافكار حيث تقول: ﴿أَمْ نَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، ثم تتناول اهم ظاهرة في

١ - (الله) منصوب لأنه بدل من (احسن الخالقين) في الآية السابقة وقال بعض إنه عطف بيان.

عالم الخلقة وهي قضية الحياة والموت وتقول: ﴿وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فهل هذا من فعل الاصنام ايضاً؟!

والآية في آخرها بعد ذكر المسائل المهمة الثلاث (الارزاق السماوية والارضية، السمع والبصر الحياة والموت) تذكر القضية بصورة كلية وجامعة وتقول ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

ومن المسلّم به أنهم لو راجعوا عقولهم وضمائرهم لم يكن لهم جواب إلا أن يقولوا: الله ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

ثم تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمسكاً وقل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

إنّ جميع الارزاق المعنوية والمادية للانسان وتدبير العالم كله قد اجتمعت في الحقيقة في هذه الآية، فإن الارزاق المادية أمّا تكون من السماء أو من الارض، والارزاق المعنوية عادة تكون عن طريق البصر والسمع اللذين ينقلان العلوم الحسية والعقلية والنقلية الى الانسان، وتدبير العالم يشمل هذه كلها وغيرها، فمن يستطيع ان يدعي أن العباد الضعفاء أو الموجودات الحقيرة كالاصنام هي الخالقة لهذه الارزاق والمدبرة لهذه الامور؟ إنّ توحيد الربوبية ليس قضية معقدة حتى بالنسبة لعباد الاصنام فيما لو فكروا قليلاً.

والتعبير بـ (يملك السمع والبصر) يمكن ان يكون اشارة الى خلقها او حفظ نظامها وتدبيرها أو هذه الامور كلها.

* * *

تتحصل هذه الحقيقة من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها في القرآن الكريم وهي كثيرة وواسعة، وهي أن القرآن الكريم يعرف الله القادر المتعال بأنه هو المالك والمربي والمدير والمدبر لعالم الوجود كله وكل شيء،

وكل موجود في السماء والارض والعرش والكرسي والبشر في الزمان الحاضر والماضي ، ونقول بصراحة لا ربّ لعالم الوجود غيره .

ايضاحات

١ - التوحيد يعني حذف الوسائط !

إنَّ المطالعة الدقيقة في الآيات القرآنية تفيد أن القرآن يصرّ مؤكداً بأن لا يضيع الناس بين الوسائط وعليهم أن يتوجهوا الى ذات الله المقدسة مباشرة ، ويتحدثوا معه ولتعلق قلوبهم به وحده ولا يعبدوا غيره . والتعبير بـ(رب العالمين) في سورة الحمد والصور القرآنية الاخرى اشارة الى هذه الحقيقة ، وتكرير ذكر الركوع والسجود (سبحان ربي العظيم) و(سبحان ربي الاعلى) كله لبيان هذه الحقيقة وهي : ليس خلقنا بيده فحسب بل وبقاؤنا وتربيتنا وتكاملنا وتدبير امورنا .

وقد اوضح القرآن الكريم ذلك بدقة وهو أن ،(الخالق) و(الرب) لا يمكن أن ينفصلا ، ولو دققنا جيداً في الانسان لوجدنا له خلقاً جديداً في كل لحظة ، وكل ذلك منه سبحانه .

إنَّ موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقيرة وهو الغني المطلق من كل جهة .

وتاريخ الديانات يشير الى أن البشرية بسبب التيه في الوسائط والخرافات التي ابتليت بها وكم من الموجودات المنحطة التي جعلتها معبودة ومتحكمة بمصائرهما ، وهذا التعدد في الارياب والآلهة قد جلب للبشرية كل هذا التفرق والتناثر والشقاء .

ولكن عندما نهجر هذه الوسائط ونعتبر أن الله هو الرب المطلق كما تقول الدلائل والبراهين العقلية ، نعرف أن كل شيء محتاج اليه فأنا سنصل الى مبدأ

النور والعظمة والوحدة والوحدانية .

ولذا فإن صفة (رب) تكررت اكثر من (٩٠٠) مرة في الآيات القرآنية ولم تتأكد صفة اخرى من الصفات الالهية الى هذه الدرجة .
وفي الحقيقة يجب معرفة ومطالعة الاخلاص في توحيد الاسلام قبل كل شيء في هذا التوحيد الربوبي .

٢ - تاريخ الديانات وخرافة الوسائط

كلما تعمقنا في دراسة تاريخ المذاهب والديانات تتجلى امامنا هذه الحقيقة اكثر فأكثر وهي سيادة تعدد الآلهة (الاله بمعنى الرب) بين المجتمعات البشرية المختلفة منذ اقدم العصور بشكل واسع ، ولو قمنا بجمع اسماء هذه الآلهة وعقائد المجتمعات البشرية المختلفة لتألف كتاب مفصل مليء بالعقائد العجيبة والغريبة والخرافية ، ولا بأس في الإشارة اليها بصورة مختصرة ، ليطلع القراء على تلك القصة الطويلة من خلال هذه المقدمة المتواضعة .

أ - آلهة الروم

كَتَبَ احد المؤرخين الغربيين بهذا الصدد : «لم تكن الديانة الرومية تشابه مانصطلح عليه «مذهب» أبداً ، ولم تتضمن أي تشريع لمعتقديها ، ولم تكن بصدد إصلاح التفسخ الاخلاقي بين الناس ، بل كانت تعلمهم افضل السبل لاكتساب رضا الآلهة وعونها» .

... وكانت آلهة الروم كثيرة جداً مما جعل كل اله يحظى بجهة معينة ! وله دور في قضية معينة فلم يكن لابواب البيوت اله فحسب ، بل والعتبة منها وقواعدها كانت لها ارباب ، كما أن هناك آلهة مستقلة تتولى امر المحافظة على كل فرد من افراد البشر ، أضافة الى وجود رب نوع خاص يعلم الطفل أول صرخة ، وآخر

يعلمه شرب الماء ، وآخر يعلمه الخروج من البيت وآخر يعلمه كيف يرجع !
وهناك إله خاص عند حراثة الارض وآله آخر عند الزراعة وآخر عند نثر البذور و
(هكذا ارباب آخرين) ، ولا عجب في أن يكون للروم (٣٠) ألف آله ! حتى أن
احد شخصياتهم مازح بقوله : أن آلهة بلادنا في الشوارع والمجتمعات هي اكثر
من افراد شعبنا! ^(١).

ب - آلهة اليونان

ويكتب ذلك المؤرخ ايضاً: (لقد اعتقد المجتمع اليوناني - كالكثير من
الأمم - بالوهمية الظواهر الطبيعية كلها نظير الشمس والرعد والمحيطات
والاعاصير والانهار والعيون والرياح والامطار، وقام بعبادتها واعتقد أن هذه
الآثار تنشأ من وجود خفي ، واعتقد انها منشأ الخير والشر ومن هنا قام بعبادتها
كي يحصل على كرمها أو يدفع الشر بها .

ثم يذكر آله اليونان المعروف وهو (زيوس) ابن (كرونوس) وهو المتصور
لديهم على شكل انسان ، له الهيمنة التامة والجبروت وذو جبهة عريضة وشعر
كثيف ولحية كثة طويلة على شكل حلقات !

كان زيوس رب الارباب وآله البشر في اليونان ويحيطه عدد كبير من الآلهة
وارباب الانواع ، وكانت زوجة زيوس (هيرا) تعيش في السماء .

ويعتقدون أن لزيوس ابناء ثلاثة هم : (هرمس) و (آرتميس) و (آبولون) وهم
على التوالي مظاهر المطر ورب النوع للقمر والشمس !
كما اعتقدوا بآلهة عديدة اخرى نظير آلهة البحر وآلهة الارض وآلهة جوف
الارض وآلهة العمل ^(٢).

١ - تاريخ ألبرماله.... تاريخ الروم: المجلد ١، ص ٢٩ و ٣٠، (علامة التعجب م٢ا).

٢ - تاريخ ألبرماله - تاريخ امم الشرق: ج ٢، من ص ١٧١ الى ص ١٧٩ (باختصار).

ج- آلهة مصر

اغلب المصريين القدماء اعتقدوا بديانة تؤمن بعدة آلهة ، واعتقدوا أن إلهاً واحداً هو اعلى من الآخرين عرف بـ (اله الآلهة).

في مصر القديمة كان للناس في كل منطقة آلهة ومعبد خاص تجاوزت الـ (٢٠٠٠) معبود! تسعة منهم يحظون بذكر اكبر، احدهم اله الشمس ، ثم اله الهواء ، واله الفضاء والفرغ ، واله الارض وهكذا هناك اله الصحراء والاراضي الخصبة والموات^(١).

يقول المؤرخ الشهير ويل دورانت في (تاريخ الحضارة):

(لم تكن في العالم منطقة تناظر مصر في تعدد الآلهة ، وكان المصري يعتقد أن الخلق ابتداء من السماء ، وكانت سماء نهر النيل اعظم رب الانواع. وقد اعتقد المصريون بأن كواكب السماء ليست اجساماً فحسب بل إنها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء والحيوان والنبات ، وقد بلغت حداً اصبحت فيه المعابد المصرية معارض للحيوانات المختلفة)^(٢).

هـ- آلهة ايران

اعتقد الايرانيون قديماً بالثنوية ثم بتعدد الآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة (امشاسبندان) أو الآلهة الستة ، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء ، اله النار ، اله المعادن ، اله الارض ، واله المياه والحيوانات واله الثوابت

١ - الاسلام والعقائد والآراء البشرية: ص ٤٦.

٢ - تاريخ الحضارة - ويل دورانت: المجلد ١، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ (باختصار).

والسيارات السماوية^(١).

و - آلهة الصين

اعتقد الصينيون القدماء ايضاً بأن العالم يحكمه اعلان احدهما (فحل) أو (الموجب) أو (النور) والآخر (انثى) أو (السالب) أو (الظلام) وتبعه التفكير بالثنوية (شانكتي) وهو فحل مظهر لأصل الذكورة وكان يدعى آله الافلاك ، واعتقدوا أنه هو الذي يجازي الانسان على اعماله الصالحة والسيئة في هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العام .

وكانت (هاتن) الهاً مؤنثاً ويشئى عليه ، ثم ظهرت آلهة اخرى تدريجاً وتبدلت الثنوية الى تعدد الآلهة : آله الخصوبة ، آله المطر ، آله الرياح ، آله الثلج ، آله النار ، آله الجبل و...) ^(٢).

ز - مشركو العرب

يؤكد بعض المؤرخين والمفسرين بأن العرب كانوا يعتقدون بأن الخالق والرزاق والرب والمدبر للعالم آله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدث عن اقرارهم في قضية خالقية الله ورازقته . وعليه فأن عبادة الاصنام بينهم لم تنشأ من الاعتقاد بتعدد الآلهة ، بل من اعتبارهم الاصنام ذات مقام ومكانة عند الله يرجون منها الشفاعة والقرب من الله . حتى اعتقد البعض منهم أن الى جانب كل صنم شيطان موكل به من قبل الله ، وكل من يعبد الصنم حق عبادته فأن ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من الله !! ^(٣)

١ - الاسلام والعقائد والآراء البشرية : ص ٣٤ (باختصار).

٢ - الاسلام والعقائد والآراء البشرية : ص ١٥٧.

٣ - بلوغ الأرب : المجلد ٢ / ص ١٩٧.

ولا يمكن انكار أن طائفة من العرب كانت ترجح عبادة النجوم ، وتعتقد أن كواكب خاصة حين الغروب والشروق تقوم بأنزال المطر وقد عبروا عنها بـ (الانواء) وهو جمع نوء ويعني النجم الذي يميل إلى الغروب ، وقد اعتقدوا بارتباط الحركة والسكون والسفر والاقامة بهذه النجوم (واعتقدوا بتأثيرها على مصائرهم) وقد شيدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب^(١) . وفي اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية ، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد اشار القرآن الكريم اليها في قصة ملكة سبأ ، وطائفة اخرى عبدت القمر ، واخرى عبدت نجمة الشعراء ، كما عبدت قبائل اخرى نجوماً اخرى^(٢) .

ح - في بلدان اخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الاعتقاد بأرباب الانواع والآلهة المتعددة ، كما اعتقد الصابئة (عباد النجوم) بأن السيارات السبع هي التي تحرس الاقاليم السبعة وتحافظ عليها (حيث قسموا الارض قديماً إلى سبعة اقسام اطلق على كل قسم منها اقليم)^(٣) واعتقدوا أنها مبدأ الخيرات ودافعة للاضرار عن أهل الارض .

والاعتقاد بـ (توتم) الذي ساد في مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً بالاعتقاد برب الانواع ايضاً ، حيث كان لكل قبيلة توتم بمثابة الاب وروح القبيلة واعتقد بأنه على صورة الحيوانات أو ما شاكله .

ط - الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية

افترض افلاطون لكل نوع من انواع عالم الطبيعة فرداً مجرداً عقلياً ،

١ - المصدر السابق : ص ٢٢٣ .

٢ - الاسلام والجاهلية : ص ٢٩٥ .

٣ - يمكن مراجعة معجم البلدان : المجلد ١ / ص ٢٧ للمعرفة التفصيلية بالاقاليم السبعة وحدودها .

واعتقد أنه قائم بالذات وبما أن هذه الافراد المجردة اعتبرت امثالاً ومظاهر لأسماء وصفات الله وشبيهة للاتواع الطبيعية فقد اطلق عليها عنوان (مثال) وجمعه مثل على وزن رُسِلَ.

اعتقد افلاطون أن ماله الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذي لا يتغير ومجرد من الزمان والمكان وأبدي وكلي، وأما هذه الاجسام الجسمانية والمادية التي نشاهدها متعددة وذات زمان ومكان وفانية فأنها انعكاس لتلك، وعليه تكون نسبة الانسان الجسماني لمثاله هو نسبة الظل الى ذي الظل.

ولأفراد الانسان قسط من الحقيقة مايناسب قربها من المثال، ومن هنا اعتبر افلاطون العالم المحسوس مجازاً وعالم المعقولات حقيقة^(١).

إن الاعتقاد بالمثل اليونانية وأن تغاير مع الاعتقاد بأرباب الانواع ولكنه لا يخلو من تشابه من عدة جهات ويعتبر شكلاً فلسفياً من ارباب الانواع اليوناني. كما أن الاعتقاد بالعقول الفلكية المجردة له تشابه مع ارباب الانواع من جهة.

وايضاحه: أن جماعة من الفلاسفة اعتقدوا بأن الله - بسبب بساطته من كل جهة - له مخلوق واحد لا أكثر، وهو مخلوق مجرد اطلقوا عليه (العقل الاول) ثم اعتقدوا بأن العقل الاول لتركيبه من وجود وماهية فهو الخالق للعقل الثاني والفلك الاول، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة افلاك!

وقد اعتقد البعض منهم أن عدد العقول لا حصر لها، كما اعتقدوا بـ (العقول العرضية) الى جانب العقول الطولية (العقول العشرة التي يكون احدها مخلوقاً للآخر)، واعتبروها وسائط لفيض الصور النوعية والمرتبة العليا للموجودات الجسمية (مثل ارباب الانواع والمثل الافلاطونية)، ولكل مفردة من هذه المسائل بحوث مطولة ننصرف عنها لأنها خارجة عن موضوع بحثنا.

١ - كليات (الفلسفة الاسلامية) و(سير الحكمة في اوربا) وكتب اخرى.

المهم هنا هو أن نعلم بأن القرآن الكريم واجه هذه الافكار كلها وفي هذا الوسط الواسع من الافكار العجيبة والغريبة والملوثة بالشرك وامام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التي تُشَم منها رائحة الشرك قام بعرض توحيد خالص في مسألة الخالقية وتدبير العالم وربوبيته وهو بحق من معجزات القرآن الكريم .

لقد ابطل القرآن هذه الآلهة الوهمية ورب الانواع الخيالية وعرف (الله عز وجل) كرب للعالمين فقط ، واعتبر كل شيء وكل انسان مخلوقاً له وتحت تربيته وتدبيره ، وقام بأفاسة الصفاء على قلوب البشر وارواحهم بنور الوحدة ووجه انظار البشر المشتتة الى ذلك الواحد الابدی .

أجل ، إن دراسة تلك العقائد المشوبة بالشرك ومطالعتها تفصح عن قيمة التوحيد الاسلامي في منظار أتباع الحق .

والطريف أن الاسلام قد انبعث من اجواء لا يتحكم فيها سوى الجهل ، وكان الشرك يفرض قوته على عقول الناس ، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجزيرة العربية متخلفاً عنها ، فقد اشرنا سالفاً الى أن الفلاسفة والمفكرين كانوا متورطين بلون من الافكار المشوبة بالشرك .

ويدل ذلك على أن طريق التوحيد الاصيل ليس امراً يسمح للانسان أن يسير فيه بنفسه ، بل لابد من يد غيبية تمتد اليه عن طريق الوحي ، ومن انبياء يقودونه من وادي الظلمات ويوصلونه الى ماء التوحيد الخالص .



٣- التفويض لون من الشرك

بالرغم من أن له التفويض معان مختلفة تبلغ سبعة عند بعض ، ووجود بحوث واسعة مرتبطة به ، إلا أن من اللازم التذكير بأن جمعاً من المسلمين

القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأن الله تعالى خلق النبي (ﷺ) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ثم أوكّل اليهم أمر الخلق والرزق والموت والحياة لسائر الموجودات في العالم.

وأفضل ما قيل عن هذه العقيدة هو ما ذكره العلامة المجلسي (رحمته الله) في مرآة العقول: «ثم اعلم أن التفويض يطلق على معانٍ بعضها منفي عنهم (عليهم السلام) وبعضها مثبت لهم فالأول: إن التفويض في الخلق والرزق والتربية والامانة والاحياء، فإن قوما قالوا: إن الله خلقهم وفوض اليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويحييون ويمشون وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال: أنهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وارادتهم وهم الفاعلون لها حقيقة وهذا كفر صريح، دلت على استحالة الادلة العقلية والنقلية ولا يستريب عقل في كفر من قال به وثانيهما: أن الله تعالى يفعلها مقارناً لارادتهم كشق القمر واحياء الموتى وقلب العصا حية وغير ذلك من المعجزات، فإنها جميعها إنما تقع بقدرته سبحانه مقارناً لارادتهم لظهور صدقهم فلا يابى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكملهم والهمهم ما يصلح في نظام العالم ثم خلق كل شيء مقارناً لارادتهم ومشيتهم، وهذا وأن كان العقل لا يعارضه بتاتاً لكن الاخبار الكثيرة مما اوردناها في كتاب (بحار الانوار) يمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهراً بل صريحاً»^(١).

وعليه فإن الاحتمال الثاني غير محال عقلاً، إلا أن الادلة النقلية لا ترتضيه، وقد كثرت الامور التي ليست محالة عقلاً ولكن الشرع يرفضها، فمن الممكن - مثلاً - أن يكون عدد الانبياء أو الأئمة اكثر من المعروف إلا أن الادلة النقلية قد حددت اعدادهم بما نعلمه.

وهناك احتمال ثالث وهو أن الله عز وجل يوهب النبي أو الامام قدرة يستطيع بها احياء الميت أو ابراء المريض من مرضه المستعصي باذنه، والظاهر

من الآيات القرآنية حول السيد المسيح هو ما ذكرنا، وهذا كله ممكن أيضاً بالنسبة للمعصومين، ولكن كما وردت في العبارات المذكورة تكون هذه المسألة في إطار المعجزات والكرامات فقط، لا في مورد خلق السماء والأرض وتدبير أمور الكائنات، لأن القرآن الكريم قد صرح في حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية في الله عز وجل، والآيات التي ذكرناها في هذا الفصل حول التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى.

وبما أن الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من الخلق وبما أن المعصومين هم أفضل البشر، يمكن القول أن عالم الوجود قد خلق من أجلهم، وبتعبير آخر، أنهم بمثابة العلة الغائية لعالم الوجود.



٤- هل الملائكة مدبرات الأمر؟

يُقسم القرآن الكريم في سورة النازعات الآية ٥ بـ (المدبرات أمراً). والمشهور بين المفسرين هو أنها تلك الملائكة التي تدبر أمور العالم، فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية؟

الاجابة عن هذا السؤال واضحة، فلو كانت الملائكة لها الاستقلال في التأثير لم يكن ذلك منسجماً مع توحيد الربوبية ولكننا نعلم أنها منفذة للأمر الإلهي وقد أوكلت إليها الأمور بإرادته ومشيئته نظير الأسباب في عالم الطبيعة التي لها تأثيراتها بأمر الله.

وقد لاحظ الكثير من المفسرين هذه النقطة في هذه الآية ولم يجدوا تناقضاً بين القول بأن الله (رب العالمين) و (رب كل شيء) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبير الملائكة بأذن الله، فكما ينص القرآن الكريم على أن الرازق لجميع الموجودات هي الذات المقدسة لله عز وجل ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

رزقها»^(١) في حين يقول في موضع آخر «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(٢)، ومن المسلم به أن اطلاق الرازق على والد المولود لا يتنافى مع اطلاقه على الله سبحانه ، فهذا مستقل بالذات وذلك بالعرض والتبع .

أ عندما نقول : إن في العسل شفاء «فيه شفاء للناس»^(٣) فإن ذلك لا يتنافى مع أن الشافي هو الله فقط ، كما يقول رمز التوحيد ، ابراهيم (عليه السلام) : «واذا مرضت فهو يشفين»^(٤) .

هذه كلها تبين سلسلة العلة والمعلول ، أي تبدأ بالعلة غير المستقلة حتى تصل الى علة العلل ومسبب الاسباب ، أي الذات المقدسة لله تبارك وتعالى حيث يكون كل سبب مديناً له في تأثيره .



٥ - «توحيد الربوبية» في الاحاديث الإسلامية

لقد انعكس هذا المضمون بصورة واسعة في الروايات والادعية الماثورة عن المعصومين (عليهم السلام) ومنها الادعية المختلفة التي وردت في الجزء الثاني من اصول الكافي ، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الادعية : «اللهم رب السموات السبع ورب الارضين السبع ... رب العرش العظيم... رب المشعر الحرام ورب البلد الحرام ورب الحل والحرام الحمد لله رب الصباح...رب الملائكة والروح.. رب المستضعفين.. رب جبرئيل وميكائيل واسرافيل ورب القرآن العظيم ورب محمد خاتم النبيين»^(٥) .

١ - سورة هود : الآية ٦ .

٢ - سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

٣ - سورة النحل : الآية ٦٩ .

٤ - سورة الشعراء : الآية ٨٠ .

٥ - اصول الكافي : المجلد ٢ / ص ٥١٤ - ٥٨٥ .

كما وردت هذه التعابير في روايات اهل السنة^(١).

وعليه فلا رب للسماء والارض والملائكة والنبين والاغنياء
والمستضعفين والصبح والمساء والكعبة ومكة والعرش العظيم إلا الله القادر
الواحد.

والتنسيق في شؤون الكون وتنفيذ الانظمة الحاكمة عليه دليل واحد على
وحدة المدبّر، ولذا نقرأ في حديث عن الامام الصادق (ع) قوله للزنديق الملحد
الذي سأله عن وحدانية الله عز وجل:

«فلما رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس
والقمر، دلّ صحة الامر والتدبير واختلف الامر على أن المدبر واحد»^(٢).



١ - للمزيد من الايضاح راجع الجزء ٣ من (المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي) ص ٢٠٧.

٢ - توحيد الصدوق: ص ٢٤٤، باب ٣٦ (باب الرد على الثنوية والزنادقة).

جـ- توحيد المالكية

والحاكمية التكوينية

تمهيد :

من الفروع المهمة الاخرى لـ (توحيد الافعال) هو التوحيد في المالكية ، ويعني أن المالك الحقيقي تكويناً وتشريعاً هو الذات الالهية المقدسة ، والماليات الاخرى مجازية وغير مستقلة .

ايضاح ذلك : أن المالكية على قسمين : مالكية حقيقية (تكوينية) ومالكية حقوقية (تشريعية) .

المالك الحقيقي هو من له السلطة التكوينية والخارجية على الاشياء ، وأما المالكية الحقوقية والتشريعية فأنها العقود التي تمضي عليها السلطة القانونية نظير مالكية الانسان بالنسبة لامواله .

والقسمان من المالكية لله تعالى في الدرجة الاولى من منظار الموحد لعالم الوجود ، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع الاشياء في الكون ، لأن الموجودات كلها منه وتستمد منه فيض الوجود آنأ بعد آن ، والجميع تبع له وبهذا تثبت مالكيته الحقيقية على كل شيء من كل جهة .

وأما المالكية القانونية فإن كل شيء له لأنه الخالق والموجد لجميع الاشياء ، بل حتى ما نصنعه فإنه هو الذي اعطانا وسائل الانتاج كلها وعليه : المالك الاول في الحقيقية هو الله ، وأن جعل الاشياء في ايدينا وديعة لعدة أيام .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

٢ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ سورة البقرة - ١٠٧.

٣ - ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَنِي تُضَرِّقُونَ﴾ سورة الزمر - ٦.

٤ - ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة - ٢٤٧.

٥ - ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ سورة فاطر - ١٣.

٦ - ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ...﴾ (سبا - ٢٢) (١).

شرح المفردات :

(ملك) بناءً على ماورد في المقاييس هو في الاصل : القوة على الشيء ، ولذا ورد التملك بمعنى التقوية ، ثم استعمل هذا التعبير في مايصحبه الانسان من اشياء وذلك لما له من قدرة وقوة عليها .

ولذا يطلق على الماء الذي يحمله المسافر(ملك) ، لأن المسافر الذي يصطحب الماء (خصوصاً في الصحارى الحارة) يكون قوياً ومهيماً على عمله . (مَلِك) هو السلطان لقدرته في بلاده .

(ملكوت) يعني العزة والسلطنة .

(إملاك) في العربية يعني التزويج ، لاعتبارهم الزوجة ملكاً لهم !

واخيراً (مملكة) هي الحكومة وعزة السلطنة ، ومن ثم اطلق على الوطن .

١ - وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة اخرى حول هذا الموضوع متفقة مع الآيات اعلاه مثل : المائدة : ١٧ ، ١٨ ، ٤٠ ، ١٢٠ ، الاعراف : ١٥٨ ، التوبة : ١١٦ ، الاسراء : ١١١ ، النور : ٤٢ ، الفرقان : ٢ ، ص : ١٠ ، الزمر : ٤٤ ، الشورى : ٤٩ ، الزخرف : ٨٥ ، وغيرها .

جمع الآيات وتفسيرها :

الله مالك الملك

قال المفسرون : إن الآية الاولى نزلت بعد فتح مكة ، أو حينما كان النبي الكريم (ﷺ) مشغولاً بحفر الخندق قبيل معركة الاحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد اعتبر المنافقون ذلك تخيلات وتكهنات وتشبهاً بالمحالات^(١).

وفي هذه الاثناء نزلت الآية المذكورة وانذرت الجهلاء بأن الله مالك كل البلدان حيث قالت : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ وليس الحكومات فقط وليس العزة والذلة بل ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

وقدرة الله عز وجل على كل شيء هي - في الحقيقة - دليل حاكميته على الارض والسماء .

ومن الواضح أن لمالكية الله بُعْداً عاماً وحقيقياً ، في حين ماجاء في المورد الآخر في جملة ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ يكون له بعد جزئي ومجازي .

ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الاكرم (ﷺ) أو عزة المؤمنين وذلة اليهود وما شاكل - كما يعتقد بعض المفسرين - بأنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كل الحكومات وكل عزة وذلة ، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة ، والجملة الاخيرة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هي في الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الالهية العامة والمطلقة .

١ - مجمع البيان : المجلد ٢ / ص ٤٢٧ ، وتفسير الفخر الرازي : المجلد ٨ / ص ٤ .

٢ - قال بعض اللغويين : الخير والاختيار لهما مادة واحدة ، والحسنات خير لأن كل انسان يختارها (التحقيق ، المفردات ، تفسير الميزان في ذيل آية البحث) .

وواضح أن المشيئة والارادة الالهية التي استند اليها في هذه الآية لاتعني أن الله يعز أو يذل أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب ، بل أنه وضع في عالم الاسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئة و ارادته .
فحينما يوفقُ المسلمون يوماً لفتح الاندلس وهي بوابة اوربا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فإن ذلك حدث وفق تلك الاسباب التي هي مظاهر لمشيئته الالهية .

وعندما يتسلط امثال يزيد وجنگيزخان على الناس فلعلهُ نتيجةً لأعمال الناس انفسهم وأنهم اهل لمثل هذه الحكومات حيث ورد: (كما تكونوا يولئ عليكم) .

من هنا يتضح الجواب على الاسئلة التي تطرح حول آية البحث وليست بحاجة الى توضيح اكبر .



الآية الثانية تنظر الى الاشكالات الواهية التي اثارَت اليهود حول تغيير القبلة بقولهم : هل بإمكان الله أن ينسخ حكماً ويحل حكماً آخر محله ؟ أن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للكعبة ؟ فتقول : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

وعليه هل يكون عجيباً أن يقوم مثل هذا الحاكم العظيم بنسخ حكم ؟ إنه ليس مطلّعاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمة ايضاً وهو مالك التدبير والتصرف المطلق في الكون وفي عبادِهِ .

ولذا تضيف الآية في ذيلها ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

إنه يعينكم في ضوء علمه بالمصالح والمفاسد وفي ظل حاكميته يسرّ القوانين ، ثم أن الله تعالى ليس له مكان لكي تتوجهوا اليه في الصلاة ، وعليه فإن

قيمة المكان المتخذ كقبلة - مع أن الكون بأسره ملك له - ناشئة من امره بذلك .
وقد ورد وصف الله تعالى بأنه (ولي) و(نصير) في القرآن بكثرة ، ويمكن أن يكون الاختلاف بينهما من جهتين : الاولى أن (ولي) يعني حافظ المصالح و(نصير) هو الذي ينصر الانسان على عدوه ، والاخرى : أن (ولي) هو الذي يؤدي عملاً لشخص تحت ولايته ، ولكن (نصير) هو الذي يعين الانسان ليتغلب على مشكلته .

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة الى خلق الانسان والحيوانات والتطورات العجيبة تقول : ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ ، فهو الخالق وهو المربي ولذا فهو المالك والحاكم ، ثم تجعل الآية هذه القضية مقدمة لأثبات توحيد العبادة وتضيف : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِى تُصَرِّفُونَ﴾ .

فيا أيها الغافلون الجاهلون ويا أيها التائهون في وادي الضلالة ! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الاعتراف بخالقية الله وربوبيته ومالكيته ؟! هذا الجزء من الآية يثبت في الحقيقة (توحيد العبادة) استناداً الى (توحيد الحاكمية) لله تعالى وحاكميته بالاسناد الى مسألة الخلق التي يدعن حتى المشركون بأنها مختصة بالله عز وجل .



الآية الرابعة تنظر الى قصة طالوت وجالوت ، فقد كان جالوت جباراً ومجرماً وحاكماً على بني اسرائيل وقد آذاهم كثيراً .
وقد قام النبي (اشموئيل)^(١) بطلب من بني اسرائيل بتنصيب (طالوت) الذي كان من القرويين الفقراء قائداً للجيش وحاكماً على بني اسرائيل !

١ - احتمل بعض المفسرين أنه النبي شمعون أو يوشع ولكنهما يدوان بعيدين ، أمّا بالنسبة ليوشع الذي كان وصياً لموسى (عليه السلام) فهو غير ممكن تقريباً .

اما الملأ من بني اسرائيل فقد احتجوا على هذا الانتخاب واعتبروا انفسهم ارجح منه ، وذلك لما لهم من ثروة وفخامة ! إلا أن نبيهم قال لهم بصراحة : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وأضاف ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُوعَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وعليه فإنه لا يكون حاكماً تكوينياً على عالم الوجود فحسب ، بل إن الحاكمية القانونية والتشريعية على المجتمع البشري هي لذاته المقدسة ويمنحها لمن يشاء وأن كانت ارادته ومشيئته قائمة على اساس الاهلية واللياقة .



الآية الخامسة تبين هذه المسألة في اطار جديد ، فبعد بيان حاكمية الله على الشمس والقمر ونظام النور والظلم تستنتج بهذا النحو بقولها : ﴿ذَلِكَمَ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿لَهُ الْمَلِكُ﴾ .

في حين ليس للمعبودات من دونه حاكمية ولا مالكية حتى بحجم الغشاء الرقيق الذي يغلف نوى التمر ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ . وقد ذكر المفسرون واللغويون معاني مختلفة لكلمة قطمير ، اشهرها هو الغشاء الرقيق الذي يفصل النوى عن التمر .

وقد فسره البعض بأنه يعني التجوف الابيض الصغير الذي يوجد على ظهر النوى وينمو منه نبات التمر ، وفسره البعض بأنه رأس التمرة ، وفسره بعض آخر بمعنى الشق الموجود على بطن النوى ، او بمعنى النطفة الحية الموجودة في بطن النوى .

ترتبط هذه المعان الخمسة بنوى التمر التي كانت في متناول العرب ، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل ، ولكن الاشهر - كما ذكرنا - هو المعنى الأول وعلى كل حال هو كناية عن الشيء الصغير والتافه الذي

لا يؤبه له ^(١).

والآية هذه دليل واضح على أن المالكية والحاكمية لا تكون لأحد سوى الله عز وجل إلا أن تكون بمشيئته وهبته .



وفي الآية السادسة والاخيرة جاء هذا المضمون في اطار جديد ، حيث تخاطب النبي (ﷺ): ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل بإمكانهم أن يحلوا عقدة من مشكلاتكم ؟

ثم تقيم دليلاً على عجزهم في حل المشكلات وتضيف: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَمَالَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ﴾ ﴿وَمَالَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ .

وعليه فأنهم ليسوا مالكين مستقلين ولا شركاء ولا معاونين ، فأى عمل هم قادرون على انجازه حتى تسجدوا لهم وتعبدوهم ؟!

بهذه الاستدلالات الواضحة ينفي القرآن الكريم كل شرك في المالكية والحاكمية في عالم الوجود الواسع بصورة مستقلة ومشتركة ومتعاضدة ، وتعتبر ذلك كله مختصاً في الله ، وينزه الله عن كل شريك ومعين وناصر في عالم الوجود كله .

المستفاد من مجموع هذه الآيات الست والآيات القرآنية المشابهة لها هو أن المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون في منظار الموحد الكامل إلا الله ، ولا يملك احد في أي موضع ومنصب جزءاً صغيراً ، وبهذا لا يبقى للمشركين أي مبرر لعبادة الاصنام أو رب الانواع أو الملائكة وغيرها .

١ - راجع مجمع البيان ، روح المعاني ، القرطبي ، تفسير الميزان ، تفسير المراغي ، مفردات الراغب ، لسان العرب ومجمع البحرين .

ايضاحات :

١ - التربية الایمانية وتأثيراتها على (توحيد المالكية - والحاكمية)

الطغيان والغرور والتمرد والبخل والحسد حالات نفسية تنشأ غالباً من عقيدة الانسان بأنه المالك الحقيقي للاموال التي يتصرف فيها، ويرى نفسه حراً فيما اذا استلم زمام الحكم في نطاق واسع أو صغير، وهذه حالة مشوبة بالشرك وهي منشأ لالوان المعاصي والفساد الاجتماعي .

ولكنه اذا نظر الى هذا العالم بمنظار توحيدي، واعتقد - كما في الآيات - أن العالم ملك مطلق لله واعتبر نفسه - كما جاء في سورة الحديد ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ - ^(١) اميناً بين يدي الله، واستوعب هذا المعنى بوجوده كله، كيف يمكن ان يقصر اداء ما يريده صاحب الامانة الاصلي أو يبخل أو يحسد؟

وكيف يتصور أن تكون هذه الاموال سبباً لغروره وطغيانه، أيكون المال له؟ وهل يغتر الموظف في أحد المصارف بالملايين التي تكون بيده كل يوم؟ وهكذا بالنسبة للحكومات والمناصب التي يتولاها الناس، فانهم ليسوا سوى ممثلين عن الله في جزء صغير من عالم الوجود هذا، وبهذا الفهم والرؤية فلماذا الغرور والطغيان؟ ولماذا الظلم والفساد؟

إنَّ هذه الرؤية التوحيدية للعالم تصبغ الانسانية بلون آخر، لون الهي، لون السلام والصفاء والأمن ولون الانفاق والايثار.



٢ - استغلال مفهوم (ملكية الله)

لاشك في ان الله تعالى مالك لعالم الوجود بأسره - كما تقدم - ومع غض الطرف عن الآيات القرآنية الكثيرة فأن الدليل العقلي شاهد على هذا الامر، فانهصار واجب الوجود في ذاته المقدسة واحتياج الموجودات كلها اليها يكفي لأثبات هذا المفهوم ولا ينافي هذا المعنى مع المالكية الحقوقية والقانونية لبني الانسان في الاطار الذي يسمح به الله أبداً، وما يتشبه به البعض في قضية (ملكية الله) لنفي آية (مالكية خاصة) فأنه استغلال ليس إلا، والعجيب أنه يطرح ذلك تحت عنوان الفقه الاسلامي، ويعطي في الحقيقة للاشتركية أو الشيوعية لوناً اسلامياً.

وبوضوح أكثر نقول: إن القرآن الذي يؤكد على مالكية الله لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلق بـ (الارث والخمس والزكاة والتجارة) ايضاً ويضفي الشرعية على الاموال المشروعة التي يتصرف بها القطاع الخاص، فقد جاء التعبير - (اموالكم) في (١٤) آية قرآنية، والتعبير بـ (اموالهم) في (٣١) آية - وقد أمر المسلمين في العديد من الآيات في اموالهم، فلو كان مفهوم الملكية الالهية ينفي ملكية الانسان، فما هو اذن مفهوم التي وردت في هذه الـ (٤٥) آية اضافة الى آيات كثيرة اخرى تتعلق بهذا الموضوع؟

فالقرآن الكريم يقول في موضع ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ الَّتِي بِأَمْوَالِكُمُ﴾ (النساء - ٢) و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...﴾ (النساء - ١٠).

وفي موضع آخر يقول: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ (البقرة - ٢٦٢).

ويخاطب المرابين: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ (البقرة - ٢٧٩).

د- توحيد التقنين

(الحاكمية التشريعية)

تمهيد :

من المعلوم أن تنظيم شؤون المجتمعات البشرية بحاجة الى ثلاث سلطات (السلطة التشريعية) التي تتكفل سن القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من اضرار الحقوق ، و (السلطة التنفيذية) التي تنفذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاها عادة الحكومات والوزراء والدوائر الحكومية. و(السلطة القضائية) المسؤولة عن معاقبة المتخلفين عن القانون والمجرمين والمعتدين .

في الرؤية التوحيدية الاسلامية نستمد هذه الامور الثلاث من ذات الله سبحانه وتعالى ولا يكون فيها حكماً جائزاً إلا باذنه وامره فهو الذي شرع القوانين وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين ، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة ، وعليه فإن هذه السلطات الثلاث لا بد أن تستمد شرعيتها عن طريق الاذن الالهي طبق الشرائط والاورام ، وهذا المعنى له انعكاس واسع في الآيات القرآنية اضافة الى امكانية الاستدلال عليه عقلياً .

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات القرآنية :

- ١ - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة - ٤٤.
- ٢ - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة المائدة - ٤٥.
- ٣ - ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ سورة المائدة - ٤٧.
- ٤ - ﴿وَأَن اخْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ سورة المائدة - ٤٩.
- ٥ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قُضِيَتْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴿ سورة النساء - ٦٥ .

٦ - ﴿إِنْ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ سورة الانعام - ٥٧، وسورة يوسف - ٦٥ .

٧ - ﴿وَمَوْاَ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ سورة القصص - ٧٠ .

٨ - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ سورة القصص - ٨٨ .

٩ - ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ﴾ سورة الشورى - ١٠ .

١٠ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ

مُفَصَّلاً﴾ سورة الانعام ١١٤^(١) .

شرح المفردات :

(حكم) على وزن (قُفل) ويعني في الاصل - كما يقول الكثير من كبار اللغويين - المنع والصد^(٢) ومن ثم اطلق على (القضاء) و (الحكومة)، لأن القاضي والحاكم يمنعان الناس باحكامهما الحازمة من مخالفتها أو ارتكاب الاعمال الممنوعة .

(حَكَمَهُ) تعني الحديدية التي توضع في فم الحيوان أو انفه كلبجام ، ولدى سحبه يتألم الحيوان ويستسلم ويوجد هنا معنى المنع نفسه ايضاً .

وفي (لسان العرب) : لـ (حكم) معانٍ مختلفة كالعلم والفهم والقضاء بالحق والعدل (حيث تصد هذه الامور الانسان عن المخالفة) ويطلق (حكيم) على من

١ - هنالك آيات قرآنية كثيرة وردت بهذا المضمون ايضاً مثل المائدة : ٤٨ ، و ٥٠ ، الكهف : ٢٦ ، الاعراف :

٨٧ ، يوسف : ١٠٩ ، هود : ٤٥ ، يوسف : ٨٠ ، التين : ٨ ، النساء : ٦٠ .

٢ - المفردات ، مقاييس اللغة ومصباح المنير للفيومي .

كان ذا معرفة كافية تصده عن ارتكاب الاعمال السيئة .

ومن اللازم التذكير بهذه النقطة وهي أن هذه الكلمة تستعمل في الموارد الثلاث (التشريعية والقضائية والتنفيذية) حيث يطلق الحاكم على الموارد الثلاث ، ولذا فإن البعض من كتب اللغة تذكر أن احد معاني حكم هو تفويض الامر والفعل لشخص ما .

ورد في كتاب (العين) أن لفظ (حكمة) يرجع الى مفهوم العدل والعلم والحلم ، ويقول صاحب الكتاب : إن هذه الكلمة فُسرَت بمعنى (المنع) أو (المنع من الفساد) ، وهذا ينسجم مع ما نقلناه عن اللغويين . والآيات المحكمات اطلق عليها هذا اللفظ لأن صراحتها ووضوحها يمنع من أي تفسير أو تأويل خاطيء .

جمع الآيات وتفسيرها :

من لم يحكم بما انزل الله

في الآيات الاربعة الاولى (الآية ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، من سورة المائدة) اضافة الى الآية (٤٩) من السورة نفسها عرض لمسألة توحيد الحاكمية بأوضح وجوهه . تقول الآية الاولى والثانية والثالثة : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... هُمُ الظَّالِمُونَ... هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

وللمفسرين اقوال في هذه العبارات هل أنها تتضمن مفاهيم مختلفة أو أنها تشير الى مفهوم واحد ؟

فبعض يعتقد أنها تنظر الى جماعة واحدة ، وأنها صفات متعددة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب : من يحكم بخلاف ما انزل الله فإنه يخالف الله وينهض بوجه الله فهو كافر من هذه الجهة .

ومن جهة ثانية أنه يوجه ضربه للحق الانساني فهو ظالم .

ومن جهة ثالثة أنه يخرج من نطاق واجباته فهو فاسق (لاحظ أن الفسق يعني الخروج عن واجبات العبودية).

وقال بعض آخر: إن الآية الأولى والثانية - وبقرينة ما قبلها - تقصدان اليهود، في حين تتحدث الآية الثالثة عن النصارى، وبما أن عداء اليهود للاحكام الالهية اشد من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بينما حكم على هؤلاء بالفسق.

ولكننا نعلم أن نزول الآيات في موارد خاصة لا يحدد مفاهيمها الكلية بتلك الموارد، وعليه فإن الآيات هذه تشمل جميع الذين يحكمون بغير ما انزل الله. إنَّ صدق الظلم والفسق فيمن يرتكب هذه المعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون في حالة الرد لحكم الله والاعتقاد ببطلانه، لأن ذلك أمّا اعتقاد يلزمه انكار الذات المقدسة أو علمه وحكمته وعدله، وهذا يستوجب الكفر قطعاً، وهكذا إذا رجع انكار هذا الحكم الى انكار القرآن أو رسالة نبي الاسلام (ﷺ).

ولكنه اذا حكم بغير ما انزل الله فقط وكان المنشأ فيه هوى النفس مثلاً لا انكار التوحيد أو النبوة فإنه لا يستوجب الكفر.

وقد ورد في الآية (٤٨) من هذه السورة امر هو: ﴿فَاخُكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وفي الآية (٤٩): ﴿وَأَنْ اخُكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وتقول الآية (٥٠): ﴿أَفَحُكُم الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إنَّ الآيات الست هذه تؤكد على هذا المعنى وهو (الحكم حكم الله فقط). إنَّ هذه التعابير المختلفة وهذا التأكيد المثالي الذي ورد في هذه الآيات الست في سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهي أنه لا يحق التشريع لأي مقام إلا الله، وكل من يفتي أو يقضي أو يحكم على خلاف حكم الله

فأنه يقترب ائماً عظيماً وظلماً وينزع عنه ثوب الايمان ايضاً.

بهذه يثبت توحيد الحاكمية التشريعية وحصر التشريع في ذات الله المقدسة وحصر الحكم في حكم الله .



الآية الخامسة تتحدث عن مقام القضاء وتعتبره من مختصات رسول الله (ﷺ) (الذين ينصبون من قبله ائمة بالمعنى المطلق أو في خصوص القضاء) وتقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ «ثم لا يجدوا في أنفسهم خرجاً مما قُضِيَتْ» «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» .

وعليه تكون علامات الايمان الحقيقي ثلاثة : الاحتكام الى النبي (ﷺ) في كل اختلاف وعدم الشعور بالاذى من حكمه وتنفيذه بالكامل في الخارج ، وبهذا فإن الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمية ، أي الحاكمية في القضاء منحصرة في الله عز وجل (لأن النبي (ﷺ) ممثل عن الله) .



الحكم حكم الله فقط

الآية السادسة تقول بتعبير قصير: ﴿ان الحكم إلا لله﴾ .

لقد تكررت هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً ولها مفهوم واسع حيث تتضمن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكويني والاحكام التشريعية ، غير أن هذا التعبير في سورة الانعام الآية (٥٧) وسورة يوسف الآية (٦٧) جاء في مورد الحكم الالهي بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم .

على كل حال فإن الاختلاف في موارد التعبير هذه دليل واضح على أن

مفهوم الآية واسع كما قلنا ، ويعتبر كل حكم وامر مختصاً في الله ، في عالم التكوين وعالم التشريع .



الآية السابعة وبعد أن وصفت الله عز وجل باستحقاق العبودية والحمد والثناء في الدنيا والآخرة تقول : ﴿وَمَوْاَ لِلّٰهِ لَا إِلَهَ إِلَّا مَوْاَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وعبارة (وله الحكم) في الحقيقة دليل على انحصار الاهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عز وجل لأن (المعبود) و (المحمود) هو من كان حكمه نافذاً في كل شيء وفي الجميع ، وأن قال بعض المفسرين امثال ابن عباس : بأن المراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم القيامة ^(١) وليس بايدينا أي دليل على تحديد معنى الآية ، وقلنا مراراً : إن خصوصية المورد لاتمنع عمومية مفهوم الآية .

وعليه فإن الآية اعلاه تشمل توحيد حاكمية الله في عالم التكوين وفي عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (في تفسير الميزان اشارة الى عمومية مفهوم الآية) ^(٢) .

وينبغي ملاحظة أن عبارة (له الحكم) تدل على الحصر من جهتين : احدها من جهة أن (له) مقدم ، والاخرى من جهة أن كلمة (الحكم) جاءت مطلقة أي أنها تشمل انواع الحاكمية كلها .

والجدير ذكره أن انحصار المالكية في الله لايمنع من أن يضعها الله في اختيار الانبياء والأئمة المعصومين والعباد الصالحين فالبحث يدور حول المبدأ الاصيلي للحاكمية ، كما أن اختصاص الحمد والثناء في ذاته المقدسة لايمنع من

١ - تفسير روح المعاني : المجلد ٢٠ / ٩٢ .

٢ - تفسير الميزان : ١٦ / ٧٠ .

أن يثني الانسان على العباد الصالحين وهم وسائط النعمة والوالدين أو المعلم ،
ولابد من ملاحظة أن هذه الامور كلها من الله وهذا هو معنى الحاكمية .



الآية الثامنة تتحدث اولاً عن توحيد العبادة ثم توحيد الحاكمية حيث
تقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم تقول بما يتضمن الدليل على هذا
الحكم: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وتضيف اخيراً: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .
هذه الآية تخصص العبادة في الله وهكذا البقاء والحكم والقضاء وأن اعتبر
البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكويني واردة الله النافذة في كل شيء ،
واعتبرها البعض الآخر بمعنى القضاء يوم القيامة .

وقال البعض : إن الحكم هنا له جانب تشريعي فقط ، غير أن الاطلاق هو
الظاهر من الآية ويشمل كل حكم في عالم الوجود وعالم الشريعة والدنيا
والآخرة .

أمّا المراد من (الوجه) في العبارة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فإن البعض
فسره بمعنية الاعمال الصالحة التي تنجز لله تعالى ، فيما فسره البعض الآخر
بمعنى الدين والقانون ، والبعض الآخر بمعنى مقام الرب .

ولكننا نعلم أن (وجه) يعني في الاصل (الصورة) وكما يقول الراغب : أن
الوجه هو اول ما يواجه الاشخاص الآخرين وهو اشرف الاعضاء في الانسان ،
ولذا اطلقت هذه الكلمة على الموجودات الشريفة ، وبهذه المناسبة يطلق على
ذات الله المقدسة وقد استعملت بهذا المعنى في الآية ظاهراً .

وبما أن كل موجود يرتبط بهذه الذات الباقية والابدية ، فإنه يتلون بلون
الابدية فإن دين الله وشريعته والاعمال المنجزة من اجله و الانبياء تكون خالدة

وباقية لارتباطها بالله تعالى ، بهذا تجتمع التفاسير المذكورة في مضمون الآية .



عند الاختلاف ارجعوا الى الله ورسوله

الآية التاسعة ترى (الحاكمية) بمعنى القضاء حيث تقول : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ .

أجل ، إنه وحده القادر على رفع الاختلاف فيما بينهم لأنه عالم بكل شيء وله الولاية على الجميع .

وتضيف الآية : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

وهناك اقوال عديدة في تفسير هذه الآية ، فالبعض اعتبرها ناظرة الى الاختلافات والخصومات بين الناس الذين وجب عليهم الاحتكام الى النبي (ﷺ) ، فيما اعتبرها البعض الآخر اشارة الى الاختلاف في تأويل الآيات وتفسيرها ، في حين اعتبرها البعض الآخر ناظرة الى الاختلاف في العلوم المرتبطة بالمفاهيم الدينية والتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة الروح وامثالها^(١) .

ولكننا لانرى دليلاً لتحديد مفهوم الآية ، بل كما قال بعض المحققين : إن الآية تشمل كل قضاء سواء كان في الاحكام أو في المفاهيم الدينية أو في معنى الآيات المتشابهة أو غيرها .

إن الآية هذه من الآيات التي تثبت هذه الحقيقة بوضوح وهي أن كل المسائل التي يحتاجها الناس قد وردت في الكتاب والسنة ، ويكون كل قياس وتشريع وامثاله باطلاً ، فلولا وجود هذه الاحكام كلها في الكتاب والسنة فلا

١ - نقلت هذه التفاسير الثلاثة عن المفسرين في روح المعاني : ج ٢٥ ، ص ١٥ .

معنى لأرجاع جميع الاختلافات الى الله فيها (تأمل جيداً).
والملاحظ أن الفخر الرازي وبعض المفسرين قد اقرّوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآية من جملة الادلة المبطلة للقياس في الاحكام الفقهية^(١).
فالآية تقول: يجب ارجاع الحكم في جميع الاختلافات الى الله (النبي ﷺ) (طبعاً هو ممثل عن الله بين الناس)، فلو لم يتضمن الكتاب والسنة طرق حل الاختلافات في الاحكام والعقائد وما يتعلق بالشرع لكان ارجاع الاختلافات الى الله عز وجل بلا معنى.



الآية العاشرة والأخيرة تقول كاستنتاج عام عن لسان النبي (ﷺ): ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ وعليه فإن (الحكم والحاكم والقاضي) هو ذاته المقدسة فقط لأنه عالم بكل شيء، والقرآن افضل دليل على علمه^(٢).

وأما السؤال عن أن الحكمية في أي شيء تكون؟ فإن القرائن تشير الى أن المقصود هو الاحتكام الى الله في حقانية الرسول الاكرم (ﷺ).

وشأن النزول الذي ينقل في هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل: إن مشركي قريش اقترحوا على النبي (ﷺ) أن اجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود أو قسس النصارى! كي يخبرونا عنك بما يتوفر لديهم من كتب

١ - تفسير الفخر الرازي: ٢٧ / ١٤٩.

٢ - (حكم) كما يعتقد المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والشيخ الطوسي في (التيان) يطلق على من لا يحكم إلا بالحق في حين أن (الحاكم) يمكن أن يحكم بغير الحق، ولكن لم يتوضح من أين استفيد هذا المعنى إلا أن القدر المسلم به هو أنه صفة مشبهة وتدل على الدوام والاستمرار ويطلق على من يحكم باستمرار، والقصة المعروفة عن (الحكمين) في حرب صفين شاهد على نفي هذا المعنى، غير أن هذه الكلمة او كلمة (حاكم) اذا استعملت في الله فأنها اشارة الى القضاء والحكم المنزه عن كل ظلم وخطأ وليس لهذا ارتباط بالاصل اللغوي.

سماوية^(١).

فنزلت الآية وردّت : هل يكون الحكم أحداً غير الله !
وذيل الآية شاهد على هذا المعنى ايضاً بقولها : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ .

على كل حال فإن مفهوم الآية واسع ويحصر الحَكَمية لجميع الامور دون استثناء في ذات الله المقدسة لأننا نعلم أن مورد الآية لا يحدد مفهوم الآية ابداً .

* * *

المستفاد جيداً من الآيات العشرة هذه هو أن الحاكمية ونفوذ الحكم والامر في عالم الوجود وفي عالم الشريعة مختص في ذات الله القدسة .
والحاكمية بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى التنفيذ كلها تنشأ منه تعالى ومن يرغب في التصدي لبعض هذه الامور فلا بد أن يكون ذلك بأذنه وامره .

غير أن الآيات المذكورة مختلفة ، فبعضها يلاحظ فروع الحاكمية كلها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط ، ولكن المستفاد من المجموع هو مسألة (توحيد الحاكمية) بجميع ابعادها من هذه الآيات .

ايضاحات :

١ - حاكمية الله في المنطق العقلي

لاشك أن كل عارف بالله مقر بتوحيد الخالق يذعن بنفاذ امره في عالم الوجود ، وعندما يتقبل حاكميته على عالم الوجود فإنه سوف لا يتردد في ولايته

وحكومته التشريعية لأنه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير والمدبّر فغيره لا يكون اهلاً للتشريع ولا يتمكن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق .

وهكذا عندما يكون هو الخالق و المدبّر فإنه هو الذي يجب أن يحكم في مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضي في الاختلافات ، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عز وجل وتدبيره بدون اذنه ، من جهة اخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للانسان وروحه ويلبّي حاجاته المادية والمعنوية ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة وطويلة ، وأن يكون ذا ضمان تنفيذي كافٍ وذا تقبل وانشداد في المجتمع الانساني .

وبتعبير آخر يكون المشرّع الحقيقي عالماً بالانسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة اخرى كي يلاحظ بدقة العلاقات التي تربط الانسان مع العالم الخارجي والداخلي ويضع القوانين مضافاً الى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين .

وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فإنه ناشيء من :

أولاً: فقدان البشرية لمن يعرف الانسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم ، فلا زالت تؤلف كتب من قبل المفكرين تحت عنوان (الانسان موجود مجهول) وما شاكل ، فاذا كانت معرفة الانسان بنفسه الى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع ؟

ثانياً: الانسان موجود محتاج الى غيره ، ولذلك نجد أن كل مجموعة تسنّ القوانين في احدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب .

ثالثاً: الانسان غير مصون عن الخطأ والاشتباه ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغير المستمر وذلك لظهور عيوبها ونقائصها واطوائها بمرور الزمان فيبادر لأصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب اخرى، وهكذا، من هنا اصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم، اختباراً لا طائل فيه ولا نهاية!.

وبقطع النظر عن مسألة مالكية الله وخالفته لا يصلح احد للتشريع اصلاً إلا من كان خالقاً للانسان وعالمأ بكل متطلباته الجسمية والروحية وغنياً عن كل شيء وكل انسان ومنزهاً عن كل خطأ واشتباه.

وواجبنا الوحيد هو تطبيق اصول القوانين الالهية العامة على مصاديقها وجعل الاحكام العامة احكاماً جزئية قابلة للتنفيذ.



٢- الحكومة وديعة الهية

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيدة أن الحكومة وديعة الهية. وعلى الحكام والمسؤولين العمل كنواب عن الله تعالى، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الاصلي للحكومة، أي الله سبحانه وتعالى في جميع المجالات.

وقد خاطب الله عزوجل النبي داود(عليه السلام) وهو ملك لأحد أوسع الحكومات في التاريخ البشري: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

إنَّ هذا التعبير يشير من جهة الى أن الحكومة وديعة، والى المنهج

والطريقة للحكومة الالهية الشرعية والصحيحة من جهة اخرى .



٣- شرعية الحكومات من الله فقط

في الاسلام والرؤية التوحيدية تتعين الحكومة من الاعلى وليس من الاسفل ، أي من قبل الله عز وجل لا من قبل الناس ، ويضمن الجانب الاجتماعي لها بأمره ايضاً .

توضيح ذلك : ان احدى الفوارق الواضحة بين الرؤية التوحيدية وبين الرؤية المشوبة بالشرك في قضية الحكومة هي أن الموحّد يعتقد أن الحكومة في جميع ابعادها (التشريعية والتنفيذية والقضائية) نشأت من الله ومن ثم انتقلت الى الانبياء واوصيائهم ثم الصالحين والعلماء في الامم .

لابد أن يشعر هؤلاء الحكام بالمسؤولية امام الله عز وجل ، ويراعوا رضاه قبل كل شيء ، وأن يكونوا خدمة مخلصين وامناء لعباده .

إنّ مثل هذه الحكومة وبوحي من الرسالة الالهية يمكنها قيادة البشر ، لا أن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المنحرفة والمشوبة بالمعاصي .

ومن الممكن أن يقال : بأن الحكومة الاسلامية اذن ليس لها بعد اجتماعي بل هي اكثر ماتكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين ، ولكن هذا خطأ كبير لأن مبدأ الشورى الذي تقرر في الشرائع التوحيدية كقضية اساسية في الحكومة واكد عليها النص القرآني ويشهد له فعل نبي الاسلام (ﷺ) وهو صاحب مقام (العقل الكل) يدل على أن الله هو (مالك الملك) و (احكم الحاكمين) هو الذي امر بالمشورة مع الناس في امر الحكومة واشراكهم في هذا الشأن .

من هنا تكون الحكومة التوحيدية والاسلامية حكومة (شعبية دينية) ويعني ذلك الاهتمام بآراء الناس بأمر الهي وذلك في اطار مبادئ العقيدة والاحكام

الالهية طبعاً، وسيأتي تفصيل هذا الكلام بشكل كامل في مباحث الحكومة في الاسلام باذن الله .

النتيجة هي أن الناس - مثلاً - عندما يتوجهون الى صناديق الاقتراع في الحكومة الاسلامية لانتخاب رئيس الجمهورية أو نواب المجلس فإنهم يلاحظون هذه النقطة وهي أنهم أمناء الله تعالى، فالواجب هو أن يضعوا هذه الوديعة الالهية التي اسمها الحكومة في يد من يتصف بالقيم الالهية، وإلا فأنهم يخونون الامانة .

تقول الآية (٥٨) من سورة النساء ﴿ان الله يأمركم ان تؤدّوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتكم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾ وقد ورد في الروايات الاسلامية إن احدى المصاديق المهمة للأمانة هي الحكومة، وقد تأكد هذا الامر في تفسير الدر المنثور حيث قال: «حق على الامام أن يحكم بما انزل الله وأن يؤدي الامانة»^(١).

وعليه فانهم لا يفكرون ابداً بأي نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو الفتوية أو من هو الذي تربطهم معه الصداقة أو القرابة؟ من الذي يرتاحون اليه أو لا يرتاحون؟ بل ينبغي أن يراعوا الله عز وجل ورضاه والقيم الانسانية والدينية السامية في كل موضع .

أما في الحكومات الديمقراطية والشعبية في العالم المادي يمكن أن تنظر هذه الامور في آراء المقترعين من قبيل الميول الشخصية والفتوية، الاتفاقات السياسية، المصالح المادية اللامشروعة والعلاقات الخاصة وامثالها .

لاحظ الفارق من اين والى أين ؟

٤ - الايمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية

مما ذكر يتضح جانب من تأثير الايمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الاعتقاد بحاكمية الله في جميع الابعاد، وأن الحكومة وديعة الـهية عند الناس، فعند التعيين سواء كان في المسؤوليات الكبيرة في الحكومة أو الصغيرة ينبغي أن يراعى فيه مبدأ الأمانة والوديعة الالهية وعدم التضحية بالضوابط فداء للعلاقات وعدم التضحية بمصالح المجتمع من اجل مصالحهم .

وأما من جهة الحكام فأنا نعلم بأن المشكلة الهامة في العالم مشكلة الحكام المستبدين الذين اضرموا النيران طيلة التاريخ في مناطق واسعة من العالم، أو في العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير للبشرية .

في هذا العصر قام (هتلر) بقتل عشرات الملايين ، و(ستالين) مسؤول عن مقتل (٣٠) مليون انسان ! حسب الاحصاءات المروعة التي نشرت من قبل شعبه ، ولا تزال اوضاع العالم بهذا النحو وأن كانت بصور اخرى .

في حين لو كان الانسان ذا رؤية توحيدية لآمن بأن الحكومة المطلقة مختصة بالله تعالى وقد فوّضت اليه باذنه عزوجل واعانة عباده وانه خليفة الله في الارض فإنه لا يكون انساناً مستبداً مغروراً وظالماً أبداً، وعندما يصل الى الحكومة يقول كما قال علي (عليه السلام): «...وما أخذ الله على العلماء الاّ يقرّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس اولها، ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفة عنز»^(١) .

أجل إنه يرى الحكومة في كل الاحوال وديعة الـهية وهو أمينها ومسؤول امام صاحبها الاول . وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة الحكومة في العالم بشرط أن تنفذ الى اعماق الروح وتتلون الروح الانسانية بلونها .

ولا يصدق هذا الامر على المتصدرين في الحكومة فحسب ، بل يصدق

على جميع العاملين في الحكومة والامراء والقادة والمديرون والقضاة .
 المعلوم من مجموع مامر من ابحاث هو أن الحكومة في الاسلام ليس لها
 شكل استبدادي وليست من الطراز الديمقراطي الغربي ، بل هي نوع من
 الحكومة الشعبية التي تعمل في اطار العقيدة ولها لون الهي في اساسها ، وعن
 هذا الطريق تكتسب لوناً شعبياً وتنشأ كل امتيازاتها من هنا .
 وهناك كلام طويل حول (الحكومة في القرآن) والمطروح هنا هو (التوحيد
 في الحاكمية) و (نشوء الحكومة من الله) ولذا نوكل الباقي الى البحث العام حول
 الحكومة باذن الله .



هـ- توحيد الطاعة

تمهيد :

الكلام الاخير في باب فروع التوحيد هو أن الانسان الموحد يعتقد بأن الله وحده واجب الاطاعة ولذا يضع طوق العبودية في رقبته ويفتخر بقوله : إني عبد ويستعد للتضحية بنفسه ويعلن عن استعداده لتنفيذ أمره .

ويقوم باطاعة الانبياء والمرسلين واوصيائهم المعصومين ومبعوثيهم بوصفها فرعاً لعبادة الله عز وجل ويحترم اوامرهم .

إنه يفكر بأمر واحد فقط هو رضا المحبوب الحقيقي وامثال أوامر المولى الحقيقي ، إنه لا يشتري (رضا الناس) بـ (سخط الله) ولا (اطاعة المخلوق) بـ (معصية الخالق) ، لأنه يرى ذلك شعبة من الشرك .

إنَّ هذا الفرع من التوحيد وهو (توحيد الطاعة) ينشأ من الواقع من التوحيد في الحاكمية الذي مر في البحث السابق .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم للاستماع بخشوع الى الآيات التالية :

١ - ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

البلاغُ المبينُ﴾ سورة المائدة - ٩٢ .

٢ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

الكافرين﴾ سورة آل عمران - ٣٢ .

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ﴾ سورة النساء - ٥٩ .

- ٤ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ سورة التغابن - ١٦ .
- ٥ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ سورة الشعراء - ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٩ .
سورة آل عمران - ٥٠ ، سورة الزخرف - ٦٣ .
- ٦ - ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ سورة الاعراف - ٣ .
- ٧ - ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ سورة الاحزاب - ٣٦ .
- ٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة الحجرات - ١ .
- ٩ - ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بَنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُسَبِّحُانه عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة التوبة - ٣١ .
- ١٠ - ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنۢ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سورة يس - ٦٠ ، ٦١^(١) .

شرح المفردات :

(إطاعة) تعني في الاصل الانقياد والتسليم (وقد صرح بذلك الكثير من اللغويين) ومن ثم اطلق على اتباع الامر .
وقد فرَّق البعض بين (الاطاعة) و (المطاوعة) ففسّر الاطاعة بمعنى الانقياد وتنفيذ الأمر، والمطاوعة بمعنى الموافقة والانسجام، ولذا يقول الخليل بن احمد في كتاب (العين): تستعمل (الاطاعة) في مورد الرعية بالنسبة للقائد، وفي مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل (طواعية) أو (مطاوعة) .

١ - هنالك آيات قرآنية كثيرة اخرى تتفق مع الآيات اعلاه مضموناً منها: الانفال: ٢٠ ، ٤٦ ، النور: ٥٤ ، محمد: ٣٣ ، المجادلة: ١٣ ، النساء: ١٦ ، الانعام: ١٥ ، يونس: ١٥ ، الزمر: ١٣ .

جمع الآيات وتفسيرها :

إلهنا : نطيع أمرك وحدك

إنَّ آية البحث الاولى وأن جاءت بعد تحريم الخمر والقمار والانصاب والازلام إلا أن محتواها لا يخفي كونه حكماً عاماً حيث تقول : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ ، وتضيف لدى تأكيدها على هذا الأمر : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(١) .

ومن الواضح أن اطاعة الرسول رشحة من رشحات اطاعة الله تعالى واطاعته اطاعة الله ، لأنه لا يبين سوى كلام الله وأمره ، ولعل إشارة في تكرار جملة (اطيعوا) شارة الى هذا المعنى ، أي أن الاطاعة الاولى لها جانب ذاتي واصلي والثانية لها جانب عرضي وفرعي .



والآية الثانية تعكس هذا المضمون من خلال توجيه خطاب للنبي (ﷺ) : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ذيل الآية يشهد جيداً بأن التمرد يستوجب الكفر ، التمرد الحادث عناداً وعداءً لأمر الله تعالى والنبي (ﷺ) ، أو نتوسّع في معنى الكفر حتى يشمل كل معصية . على أي حال فإن الآية تؤكد على وجوب طاعة الله ونبيه أي أتباع الكتاب والسنة .

النبي (ﷺ) في هذه الآية وأن كان معطوفاً على الله تعالى بدون واسطة ولكن بملاحظة الآية السابقة التي تقول ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ يتضح أن

١ - جزاء الشرط في الآية محذوف يقدر بـ (قامت الحجة عليكم) أو (استحققت العقاب) أو (لم تضروا بتوليكم الرسول) (تفسير مجمع البيان ، الفخر الرازي ، روح المعاني والمراغي في ذيل آية البحث) .

إطاعة النبي (ﷺ) هي فرع لأطاعة الله تعالى .

* * *

وهذه الآية تدل بوضوح على أن علامة الحب الحقيقي لله ورسوله هي اطاعتها واتباعهما وإلا كان حبا كاذبا أو ضعيفا جداً.

* * *

الآية الثالثة تضيف اطاعة اولي الأمر الى اطاعة الله ورسوله وتأمراً «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» .

وهذا التعبير يدل بوضوح أن الاطاعة مختصة في الله ثم رسوله وأولي الأمر، ولحل أي نزاع لابد من الاستعانة بهم، وبدون ذلك فإن قواعد الايمان بالمبدأ والمعاد ستتزعزع في قلب الانسان وروحه .

* * *

الآية الرابعة تتحدث عن اطاعة الله فقط حيث تقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا» ، فهي تأمر بالتقوى أولاً وتجنب المعاصي لأن (التحلية) والتطهير يتقدمان على (التخلية)، ثم تأمرنا ثانياً بالاستماع لأمر الله استماعاً يكون مقدمة للاطاعة، وتأمر أخيراً باطاعة أمره دون قيد أو شرط، وهذه الاطاعة المطلقة مختصة في الله عز وجل وما يظنه البعض من أن عبارة «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» نسخت الآية (١٠٢) من سورة آل عمران «اتقوا الله حق تقاته» خطأ كبير لأن الآيتين تتحدثان عن حقيقة واحدة، لأن حق التقوى ليس سوى أن يكون الانسان متقياً قدر ما يستطيع .

الآية الخامسة التي جاءت على لسان الكثير من الانبياء (عليهم السلام) تأمر أولاً بالتقوى ثم اطاعة الانبياء وتقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نَبِيَّكُمْ﴾ وقد نقلت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب والسيد المسيح (عليه السلام) في القرآن الكريم (مرة واحدة على لسان نوح (الشعراء: ١٠٨) ومرتين على لسان هود (الشعراء: ١٢٦ و ١٣١) ومرتين على لسان صالح (الشعراء: ١٤٤ ، ١٥٥) ومرة على لسان لوط (الشعراء: ١٦٣) وشعيب (الشعراء: ١٧٩) ومرتين على لسان المسيح (آل عمران: ٥٠ والزخرف: ٦٣) ومن المسلّم به هنا هو أن الاطاعة ترتبط بالدرجة الاولى بمبدأ التوحيد وترك الوثنية ثم سائر التعاليم الدينية، ومثل هذه الاطاعة هي طاعة لأمر الله لأنهم لم يتحدثوا إلا عنه تعالى.



في الآية السادسة حديث عن متابعة الاحكام الالهية، وهي تعبير آخر عن الاطاعة إضافة الى تصريح الآية بعدم اتباع غيره، وهذا النفي والاثبات يوضحان (توحيد الطاعة) وتقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هذه الآية تبطل اطاعة الغير أياً كان وفي أي حال إلا أن ترجع اطاعته الى طاعة أمر الله عز وجل.

وهذه الآية وامثالها تشهد جيداً أن احكام البشر وآراءهم مهما كانت فهي ليست اهلاً للاتباع (لامتلائها بالاخطاء اضافة الى عدم وجود دليل على وجوب اطاعة الآخرين).



الآية السابعة وبعد التصريح بعدم امتلاك أي رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أي خيار أمام أمر الله ورسوله تقول: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾.

إِنَّ الْآيَةَ تُبَيِّنُ فِي أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا تَوْحِيدَ الطَّاعَةِ وَتَعْتَبِرُهُ عِلَامَةُ الْإِيمَانِ وَمَعَارِضَتُهُ تَكُونُ (ضَلَالاً مُبِيناً) وَأَيُّ ضَلَالٍ هُوَ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانُ أَمْرَ اللَّهِ الْعَالَمِ الْحَكِيمِ وَالرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ وَيَتَوَجَّهَ لِطَاعَةِ الْآخَرِينَ ؟ !

* * *

الآية الثامنة تخاطب المؤمنين ، وقد ذكرت شؤون مختلفة في نزولها وكلها تشهد أن بعض الأشخاص يتقدمون أحياناً على الله ورسوله بالاقتراعات ويقولون : لو أصدر الأمر الفلاني لكان أفضل ، فنزلت الآية تنذرهم بقولها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

ومن المسلم به أن الله لا مكان له حتى يقول : لا تتقدموا عليه ، بل أن ذلك كناية عن عدم التقدم عليه في أي عمل أو كلام^(١) .

على أي حال فإن الآية لا تعتبر اطاعة الأمر الإلهي واجباً فحسب ، بل تقول : كونوا بانتظار أوامره في كل عمل ، وبعد إصدار الأمر لا ينبغي عليكم التقدم عليه أو التريث في أمثاله فالمسرعون والمبطلون مخطئون .

وقد جاء في تفسير المراغي القول عن بعض علماء الأدب العربي بأن مفهوم التعبير (لا تقدم بين يدي الإمام) هو : لا تعجل عليه في أداء الأعمال .

* * *

١ - المراد من (تقدموا) هنا هل هو بمعنى لا تتقدموا أم لا ؟ وقع كلام بين المفسرين (الاول من باب التفعيل والثاني من باب التثقل) ولكن جملة (بين يدي الله ورسوله) في الحالة الاولى يكون معناها عدم التقدم على الله ورسوله ، وفي الحالة الثانية يكون مفهومها هو لا تقدموا شيئاً على الله ورسوله واوامرها والمعنى الاول هو الانسب .

عبادة القادة والعلماء

الآية التاسعة تذم اليهود النصارى لكونهم جعلوا من علمائهم ورهبانهم آلهة امام الله الواحد ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١).

وقد جعلوا من المسيح بن مريم معبوداً لهم ايضاً ﴿وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ﴾ في حين : ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . ومن المسلم به أن اليهود والنصارى لم يعتقدوا بالوهمية علمائهم ورهبانهم ولم يعبدوهم كما نعبد الله تعالى ابداً، فلماذا اذن استعمل القرآن الكريم كلمة (رب) و(اله) فيهم ؟ !

وردت الاجابة عن ذلك في رواية عن الامام الباقر (عليه السلام) والامام الصادق (عليه السلام) «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم احلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»^(٢).

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة اخرى في المصادر الشيعية والسنية ومنها ما نقرأه في كتب عديدة : «عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله (ﷺ) وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي : اطرح عنك هذا الوثن وسمعه يقرأ آية : اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله . فقلت له : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلّون ما حرّم الله فيستحلّونه ؟ فقلت : بلى ،

١ - (احبار) جمع (حبر) أو (حبر) ويعني في الاصل الاثر الجميل ثم اطلق على العالم والمفكر بسبب الآثار الجميلة التي تبقى منهم بين الناس وهذه الكلمة تستعمل في الغالب في علماء اليهود وقد تطلق احياناً على غيرهم كما لقبوا ابن عباس بـ (حبر الأمة).

(رهبان) جمع راهب وقال البعض إن هذه الكلمة لها معنى المفرد والجمع وتعني في الاصل الشخص الذي يتصف بخوف الله ويظهر ذلك على اعماله ، وتطلق عادة على مجموعة (التاركين للدنيا) من النصارى وهي مجموعة هجرت الحياة والاكتساب والعمل بل والزواج ايضاً واشتغلوا بالعبادة في الدير (مفردات الراغب، العين، نهاية ابن الاثير، تفسير الميزان، الفخر الرازي، روح المعاني وروح البيان والمراغي).

٢ - مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٣، وتفسير البرهان: ج ٢ ص ١٢٠ و ١٢١.

قال : ذلك عبادتهم»^(١).

وبهذا يتضح أن اتباع واطاعة اشخاص يأمرون على خلاف حكم الله يكون لونا من الشرك.

* * *

الآية العاشرة والاخيرة تخاطب جميع البشر: ﴿أَلَمْ أُعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

ومن المسلم به أنه لا أحد يعبد الشيطان بمعنى الركوع والسجود والصلاة والصيام ، فما هي العبادة التي تُهي عنها ؟ هل هو شيء غير الاطاعة ؟ اجل ، إنهم حينما يستسلمون لما يريده الشيطان ويقدمون امره على امر الله فأنهم مشركون وعباد الشيطان والشرك هنا بمعنى اطاعة الامر لا الركوع والسجود.

أين اخذ الله تعالى هذا العهد من بني آدم ؟ فسره البعض بأنه (عالم الذر) وفسره بعض أنه وصايا الانبياء لأقوامهم ، ولكن الظاهر أن الآية تشير الى الوصايا التي تشبه العهد الذي كان لله تعالى عند هبوط آدم مع اولاده الى الارض ، وقد قامت الآية (٢٧) من سورة الاعراف بتبيان ذلك : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

وهكذا في الآية (٢٢) من هذه السورة ، وفيها تخاطب آدم وزوجته بقولها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

والآية (١١٧) من سورة طه تخاطب آدم (عليه السلام) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

ومن المسلم به أن مثل هذا العدو يكون عدواً لأبنائه ايضاً ، لأن مخالفته

١ - تفسير روح المعاني: ١٠ / ٧٥ وورد هذا المعنى في تفاسير متعددة اخرى منها تفسير الدر المنثور بفارق طفيف.

لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله ، ولذا اقسم من البداية ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتُ عَلَيْ لَنْ أُخْرَتْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) .
وقوله تعالى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢) .



ايضاحات

١ - الله تعالى هو المطاع المطلق

من مجموع الآيات السابقة يستفاد جيداً أن الله تعالى وحده هو (واجب الاطاعة) في النظرية الاسلامية وفي المنظار القرآني وهكذا الذين تُعتبر اطاعتهم اطاعة الله تعالى ، وكل طاعة وتسليم امام الاحكام والاوامر المخالفة لأمر الله يُعد لوناً من الشرك والوثنية في المنظار القرآني .

وعليه فأن لزوم طاعة النبي والائمة (عليهم السلام) والوالدين هو بأمر الله كما يقول القرآن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) .

كما يمكن اثبات هذه المسألة بالدليل العقلي ، لأن المطاع المطلق هو من يكون عالماً بكل شيء وحكيماً وخبيراً ومنزهاً عن كل خطأ ورحيماً وقد اجتمعت هذه الصفات في ذات الله المقدسة فقط .

وارادة الحكام والاصدقاء والابناء والارحام والامنيات القلبية إن لم تتناسق مع ارادة الله فأن اطاعتها تكون شركاً .

يقول الانسان الموحّد : لو انحرفت عن طاعة الله قيد أنملة فأنني قد أشركت لأنني جعلت له نداً في طاعته .

١ - سورة الاسراء : الآية ٦٢ .

٢ - سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

٣ - سورة النساء : الآية ٦٤ .

٢ - توحيد الطاعة في الروايات الاسلامية

إنَّ الاحاديث المختلفة التي وردت في مصادرنا الاسلامية اكدت على هذه المسألة ايضاً وهي أن احد شعب الشرك هو الشرك في الطاعة منها الروايات التالية :

أ- ورد في الحديث النبوي : «لا طاعة في معصية الله انما الطاعة في المعروف»^(١) .
 ب - ونقرأ في نهج البلاغة عن امير المؤمنين (عليه السلام) : «لا طاعة لمخلوق بمعصية الخالق»^(٢) .

ج - في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) : «من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده»^(٣) .
 د - في حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) وهكذا عن الامام الجواد (عليه السلام) : «من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فأن كان الناطق يؤدي عن الله فقد عبد الله ، وأن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»^(٤) .

هـ - ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن امير المؤمنين (عليه السلام) : «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق»^(٥) .

تتضح من هذه الروايات الصريحة والقاطعة النظرية الاسلامية في مسألة الشرك وتمييز الموازين الاسلامية في توحيد الطاعة.

إلھنا : إنَّ سلوك طريق التوحيد معتد ومشكل ، فاهدنا انت في هذا الطريق الملتوي .
 إلھنا : إنَّ جهات مختلفة تدعونا لطاعتها من كل جهة ، فالهوى من الداخل ، وشياطين الجن والانس من الخارج ، ونحن نرغب في طاعة امرك وحدك ، فكن لنا عوناً وناصرأ في هذا الطريق .

١ - صحيح مسلم : ٣ / ١٤٦٩ .

٢ - الكلمات القصار : الكلمة ١٦٥ .

٣ - وسائل الشيعة : ١٨ / ٩١ الحديث ٨ .

٤ - وسائل الشيعة : ١٨ / ٩١ / ٩١ الحديث ٩ ، وتحف العقول : ص ٣٣٩ (باختلاف يسير) .

٥ - بحار الانوار : ج ٧٣ ، ص ٣٩٣ ، الحديث ٦ (وهذا المضمون ورد ايضاً عن الامام الباقر عليه السلام في

الكافي : ٢ / ٢٧٣ الحديث ٤) .

الفهرست

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الطرق الى الله	٥
طرق معرفة الله	٩
برهان التوحيد والحركة	١٣
شرح المفردات	١٦
ابراهيم (عليه السلام) يواجه عبدة الاصنام بمنطق قوي	١٧
علاقة الافول مع الحدوث	٢٢
برهان الحركة ومقدماته	٢٦
ادلة وجود الحركة الجوهرية	٣٠
اثبات وجود الله ببرهان الحركة	٣٢
العالم متغير وكل متغير حادث	٣٤
حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة	٣٥
برهان الوجود والامكان (الفقر والغنى)	٣٩
احتياج الجميع اليه	٤٤
برهان الوجود والامكان من الناحية الفلسفية	٥٠
برهان العلة والمعلول	٥٥

الموضوع.....	الصفحة.....
استجواب عجيب.....	٥٩.....
برهان العلة والمعلول في الفلسفة والكلام.....	٦٣.....
ايضاح برهان العلّية.....	٦٧.....
برهان الصّدّيقين.....	٧١.....
القرآن وبرهان الصّدّيقين.....	٧٦.....
بزوغ الشمس دليل عليها.....	٧٨.....
احاطة الوجود الالهي.....	٧٩.....
هو نور العالم.....	٨٣.....
برهان الصّدّيقين في الروايات الاسلامية والادعية.....	٨٥.....
ايضاح برهان الصّدّيقين.....	٨٧.....
الطريق اليه من خلال الباطن.....	٩١.....
الخلق الثابت والراسخ.....	٩٦.....
عهد عالم الذر.....	١٠٤.....
حصيلة البحث عن عالم الذر.....	١١٢.....
عالم الذر في الروايات الاسلامية.....	١١٣.....
فطرة العقل أم القلب.....	١١٦.....
شواهد حيّة على فطرية الايمان بالله.....	١١٧.....
الفطرة في الروايات الاسلامية.....	١٢٤.....

الموضوع.....	الصفحة
وحدانية الذات المقدسة اهم اصل في معرفة الله	١٢٦
الذنب الذي لا يغتفر.....	١٣٣
أعظم الظلم.....	١٣٦
السقوط الموحش.....	١٣٧
الجنة محرمة على المشركين	١٣٩
الله بريء من المشركين.....	١٣٩
تعلموا مقارعة الشرك من النبي ابراهيم (عليه السلام).....	١٤٣
لماذا هذا الاهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك	١٤٦
دلائل التوحيد	١٤٨
شهادة الفطرة على وحدانية الله	١٤٩
تلجأون اليه في كل شدة	١٥٤
النور الوهاج في الظلمات.....	١٥٦
تناسق العالم دليل آخر.....	١٥٩
انظر جيداً هل ترى خللاً.....	١٦٤
ماذا لو كان في العالم إلهان.....	١٦٤
وحدة عالم الخلق من منظار علمي	١٦٥
ايضاح برهان التمانع.....	١٦٩
دليل صرف الوجود	١٧٥

الموضوع.....	الصفحة
هو الاول والآخ والظاهر والباطن	١٧٩.....
إنه حقيقة لامتناهية	١٨٣.....
الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً	١٨٣.....
دليل الفيض والهداية دعوة الانبياء جميعاً الى الله الواحد	١٨٥.....
دعوة الانبياء العامة الى الله الواحد	١٨٨.....
هل تمتلكون دليلاً على الشرك؟! ..	١٩٠.....
الفيض والهداية في الروايات الاسلامية	١٩١.....
برهان التركب	١٩٣.....
التوحيد والأدلة النقلية	١٩٣.....
مصادر الشرك الهامة	١٩٥.....
إتباع الاوهام	١٩٥.....
الغطس في عالم الاوهام!	٢٠٠.....
اسماء بلا عناوين	٢.....
الاستناد الى الحدس والتخمين	٢٠٢.....
المصدر الثاني للشرك (الحسيّة)	٢٠٧.....
لماذا لانرى الله	٢١٠.....
طلبوا ذلك من موسى	٢١١.....
دعني ارى الله في السماء!	٢١٣.....

الموضوع.....الصفحة

أيتوقعون أن يأتي الله اليهم ؟!.....٢١٤

لماذا ألفوا عالم الجس ؟!.....٢١٦

مصالح وهمية.....٢١٩

الاصنام شفاعونا؟!.....٢٢٢

منشأ الاعتقاد بالشفاعة.....٢٢٤

انتشار الشرك بين العرب.....٢٢٦

عوامل اخرى للشرك وعبادة الاصنام.....٢٢٨

عالم التقليد والاستعمار.....٢٢٩

عبادة الاصنام دين اجدادنا!.....٢٣٣

اجابة المشركين الدائمة.....٢٣٦

التقليد، عامل للتقدم أم للانحطاط ؟.....٢٣٨

تزيين الشياطين وهوى النفس.....٢٣٩

عامل الاستضعاف والاستعمار الفكري.....٢٤٠

كلمة اخيرة حول عوامل الشرك.....٢٤٢

فروع التوحيد.....٢٤٧

توحيد الذات والصفات.....٢٥١

يامن تعاليت على الخيال والقياس والظن والوهم.....٢٥٣

المفهوم الدقيق لتوحيد الذات.....٢٦٠

الموضوع	الصفحة
مفهوم توحيد الصفات	٢٦٠
الدليل على توحيد الصفات	٢٦١
التوحيد في العبادة	٢٦٣
المفهوم الدقيق للعبادة	٢٦٧
هو المعبود وحده	٢٦٩
لا أعبد غير الله	٢٧٢
إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا	٢٧٤
شجرة توحيد العبادة المثمرة	٢٨٠
روح العبادة والاحتراز من الافراط والتفريط	٢٨١
توحيد الوهابيين المشوب بالشرك	٢٨٥
توحيد الأفعال - توحيد الخالقية	٢٨٦
هو الخالق لكل شيء	٢٩٤
خالقية الله للكون	٢٩٧
الخطوة الاولى نحو الشرك في الخالقية	٣٠١
خطوة اخرى على طريق الشرك	٣٠٢
توحيد الربوبية	٣٠٧
إلهنا انت رب العالمين	٣١١
هو المدبّر للأُمور	٣١٦

الموضوع	الصفحة
التوحيد يعني حذف الوسائط !	٣١٨
تاريخ الديانات وخرافة الوسائط	٣١٩
آلهة الروم	٣١٩
آلهة اليونان	٣٢٠
آلهة مصر	٣٢١
آلهة ايران	٣٢١
آلهة الصين	٣٢٢
مشركوا العرب	٣٢٢
الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية	٣٢٣
التفويض لون من الشرك	٣٢٥
(اجابة عن سؤال): هل الملائكة مدبرّات الأمر؟	٣٢٧
(توحيد الربوبية) في الاحاديث الإسلامية	٣٢٨
١ توحيد المالكية والحاكمية التكوينية	٣٣١
الله مالك الملك	٣٣٥
التربية الايمانية وتأثيراتها على (توحيد المالكية - والحاكمية)	٣٤٠
استغلال مفهوم (ملكية الله)	٣٤١
توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية)	٣٤٣
من لم يحكم بما انزل الله	٣٤٧

الموضوع.....	الصفحة.....
الحكم حكم الله فقط.....	٣٤٩.....
عند الاختلاف ارجعوا الى الله ورسوله.....	٣٥٢.....
حاكمة الله في المنطق العقلي.....	٣٥٤.....
الحكومة وديعة الهية.....	٣٥٦.....
شرعية الحكومات من الله فقط.....	٣٥٧.....
الايمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية.....	٣٥٩.....
توحيد الطاعة.....	٣٦١.....
إلهنا: نطيع أمرك وحدك.....	٣٦٥.....
عبادة القادة والعلماء.....	٣٦٩.....
الله تعالى هو المطاع المطلق.....	٣٧١.....
توحيد الطاعة في الروايات الاسلامية.....	٣٧٣.....